

مَرَفَأُ الْأَرْبَعِينَ

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢١٥٦٦

بطاقة فهرسة

طاهر ، أيمن رجب
مرفأ الأربعين: رواية/ أيمن رجب طاهر، ط ١ -
القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩
٣٢٨ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم
تدمك: ٨-١٩٠-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية
أ- العنوان

٨١٣



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عمرء الحو

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

أيمن رجب طاهر

مَرَفَأُ الأَرْبَعِينَ

رواية

إهداء

إليها..

إلى التي أعيش في حنايا قلبها وتتخلل مسامي
فتقرأني وأقرأها وسنظل كذلك

من أقوال الحسن البصري :

" يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك "

" الدنيا ثلاثة أيام : أما أمس فقد ذهب بها فيه،

وأما غدا فلعلك لا تدركه،

وأما اليوم فلك فاعمل فيه "

البيتُ بجدرانه الرمادية عكس ظلال شبحي المتقدّم نحوه، فتحتُ الباب وأنا أتهمياً لخواء المطرح من أمي وخالتي وزوجتي وبناتي، ضغطتُ على زر المصباح فأضئ المجازُ، صعدت لأعلى، جلستُ وأنا مبسوطٌ بعد انقضاء تلك الليلة الفاصلة في حياتي التي عشتها وأعيشها وسأعيشها إن قدر الله لي ذلك، الكرسي خشبه العتيق يتر بالرغم من جسمي النحيل أما المنضدة فسيقانها المخلخلة تذهب وتحى وقد سترت خشبها العتيق بقطعة من (بانر) لواحد من أتباع عضو مجلس الشعب كان يعلقه أمام الحارة، نهضتُ وعلى البوتاجاز المسطح ذي العيون الثلاثة وضعت البراد، وقفت منتشياً لرائحة الشاي المغلي التي أعشقها، البخارُ المتصاعد من التئكة يرسم في الهواء أشكاله الغامضة التي ما تلبث أن تنمحي، صبيته وعدت لأجلس أمام المنضدة، أمامي أكداس من الأوراق مختلفة الحجم واللون، بعضها مسطر والبعض الآخر وجه ووجه، جوار الأوراق علبة السمن نصف الكيلو التي أستخدمها الآن كمقلمة، جمعت فيها ما تبقى من أقلام البنات بعد انتهاء الدراسة وذلك بالبحث عنها في حقائبهن وتحت الأسرة وعلى الشباك ومن فوق السطح وغيرها من أماكن جلوسهن في البيت ..

أخيراً ..

فرغ البيتُ إلا مني، أمسك بقلم حبر فرنساوي تبقّى منه القليل في أنبوبة الأزرق لكن لا يهم سأبدأ في الكتابة لأن هذا ما أريده الآن واليوم بالذات فيكفي ما ضاع من سنين أعتبرُ أن معظمها انقضى في لا شيء ولكنني أتساءل بعد أن كتبت الأسطر القليلة السابقة :

من أين أبدأ ؟ وما العنوان الذي سأبدأ به ؟

أما العنوان فسأتركه إلى ما بعد انتهاء الكتابة التي لا أدري متى أنتهي منها وأما متى أبدأ فسأبدأ الآن، المهم أن أبدأ، أن يلامس سنُ القلم الورقة التالية ويخط أولَ حرفٍ من الحروف التي تعلمتها قديماً ...

أنا غريبٌ في هذا العالم، ذاكرتي تعي أنني لا أكف عن البكاء وإحساسي بالألم لا ينقطع، لا أدري من أين تتوالد تلك الأوجاع في جسمي فتحملني سيدة تلبس شقّة سوداء على كتفها ومن بين رموشي التي تبللها الدموع رأيت وجه أُمِّي تتبعها في سرعة، تسيران إلى المستشفى وتدخلان غرفة كبيرة فيقابلهما رجل يلبس رداء أبيض، تضعني على سرير ملاءته بيضاء غير الملاءة المفروشة على سرير الجريد التي لا أعرف لها لونا ورائحتها زنخة سواء أغرقتها أُمِّي في صفيحة الماء المغلي أم لم تغسلها ..

رائحة المطهر تريحني فأكف عن البكاء، يشمر الممرض الجلباب، يضع الساعة الباردة على صدري الساخن ثم يمر بها على بطني فأشعر برغبة في الضحك لكنني ابتلعت الابتسامة التي جنحت على شفتي عندما رأيت وجهه المكشّر، في مفاجأة لم أتوقعها يقلبني التومرجي على بطني، يسحب سروالي، يقحم شيئاً في مؤخرتي فأطلق صرخة الاعتراض؛ أريد منعه لكن يدي أُمِّي تكتفني وهي تصوّب لي نظرات العتاب، أتلفت فأراه يرفع الأنبوب الزجاجي القصير أمام نظارته التي تشبه قعر الكوب الذي يشرب فيه أبي الشاي، يهز الأنبوب مرات ويضعه في المطهر ..

بينما تشغل أمي في الملمة ملابسي إذ به يسحب ورقةً ويكتب، تحملني أمي ونغادر تلك الغرفة وعيناي تودع الولد الآخر الذي يليقه أبوه على السرير مكاني، أمام شباك له أسياخ من حديد تنزرق جارتنا أم وجيه وسط الجموع الزائطة ويدها الورقة، تغيب دقائق ثم تخرج من بين المزدحمين وهي تمسك بشرائط من البرشام وزجاجات صغيرة وعلبة دواء كبيرة ..

نعود إلى شارعنا الضيق وقبل أن تخطو أمي عتبة البيت أسمعها تشكر أم وجيه فتزد السيدات العطوف بكلمات عبثية لم أفهمها، ندخل وفي يد أمي كيس الدواء، تريحني على السرير؛ أعطس لرائحة الملاءة العفنة، أسمع صوت أبي الجالس على سريره الخشبي القديم ..

- كشفت له ؟

- عنده حمى ..

هكذا سجلت ذاكرتي أول حوار بين أمي الصغيرة السمراء وأبي الجالس دائما على السرير وسبب الألم الذي ينفذ كل شبر في جسمي، تغيب أمي ثم تعود خلفها العم فنجري الذي لا يأتي البيت إلا ليعطي الحقنة لأبي، يخرج من جيبه كيسا بنيا من الجلد، يسحب حقنة وعدة إبر، يضعها في طبق وكالعادة يطلب من أمي أن تغلي عدته، تسحب أمي كباس الموقد وتقذح الكبريت، تتوهج النار فتضع صحن الإبر والسرنية، يجلس فنجري جوار أبي الذي يسحب نفسا من ماسورة الغاب ولم يلبث أن يعطي الجوزة لفنجري فيشد بدوره نفسا وأسمع صوت المياه وهي تفور من بطن الشيشة النحاسي المجنزر، بقطعة قماش ترفع أمي الصحن ويتناول عم فنجري سرنجة ثم يضع الإبرة

فيها، تعبت أصابعه بكيس الأدوية فيخرج زجاجة صغيرة يرفعها مرات قبل أن يسحب سائلها، تعرّي أمي فخذي فتتهيات روعي المغمومة للألم، بقطعة قطن ينظف ثم يغرز الإبرة التي أشعر بحرارة وخزها في جسمي فأصرخ وأحاول أن أقلب نفسي لكن كفي أمي تثبتي ، يسحب الإبرة وأسمعه يقول:

- بالشفاء إن شاء الله ..

يعيد ترتيب الحقن والإبر في الكيس، تضع أمي صينية الشاي المنبجعة بينه وبين أبي ويواصلان تبادل الشيشة بعد أن غير أبي كعادته قطع الفحم المتوهجة على الحجر ..

من بين رموشي المتشابكة يتماوج شبحا أبي و فنجري وهما يهمهان في حوار طويل والدخان يخرج تارة من أنف أبي وأخرى من فم رفيق جلسته إلى أن تتلاقى رموشي على طيفهما وأنام، عندما أصحو أجد البيت خاليا، ألتفت فألمح ظل الشمعة يتراقص على الجدار فيشكل أمامي أشباحا هلامية لها أيادٍ ورءوس كثيرة تظهر وتختفي وتهجم عليّ؛ أشعر بالخوف ورغبة في البكاء ..

أنادي على أمي، يأتيني صوتها من خلف الستارة المفرودة على باب الغرفة الضيقة التي بها فتحة في الأرض أشم منها روائح عفنة كلما دخلتها وعرفت فيما بعد أنه يجب عليّ دخولها عندما تزخ حمامتي الماء الأصفر أو أقعبي طاردا تلك الكائنات ذات الرائحة العفنة من أسفل جسمي وبعدها أشعر براحة لا أفهم مبعثها، تخرج وهي تبتسم، تقف أمام حوض صغير قريب من الأرض اصفرّ لونه الأبيض، تغسل يديها من ماء الحنفية الوحيدة

في البيت، تمسح بكفها المبتل خدي وجبيني الذي يعرق، تضحك فيتسع
الوشم المرسوم أسفل ذقنها. تضع أمامي صحن به كوسة مسلوقة وقطعة
صغيرة من اللحم، تحاول أن تطعمني لكنني لا أطيق الأكل وأخيرا تحاملت
على نفسي ومضغت دوائر الكوسة، ترج زجاجة الدواء وتسكب سائلا
أصفر في ملعقة ألومنيوم معوجة وأشرب فيتنقبض وجهي لطعم الدواء الذي
لا هو مر أو حلو، تتركني وتنشغل في تحضير الغذاء، أتضايق من ذهاب أمي
إلى سرير أبي قليل الحركة فتضع أمامه طبق الطعام وأحيانا تعطيه الدواء
كما تفعل معي ومن جمعة إلى جمعة تسخن صفيحة ماء ويقعد أبي على كرسي
خشب صغير وسط الطست الكبير فتشلع جلبابه الذي لا يلبس أسفله
شيئا وبالليف تدعك جسمه وتدلق الماء ثم تنشفه بالفوطة التي بهت لونها
الأخضر، تلبسه الجلباب الغامق حين غسل ما خلعه ثم يعود ويستلقي على
السرير ولا أعرف لماذا ينام أغلب الوقت بينما صاحبي مقنع أبوه يذهب إلى
الشغل كل يوم على دراجة كبيرة ولا أفهم سببا لكل هذا الشعر الأبيض في
رأس أبي وفرحان الذي ألعب معه أبوه الأستاذ رمزي شعره أسود، وجدتُ
نفسي أطرح كل هذه التساؤلات خلف ظهري وفضّلت بعد أن برد جسمي
من السخونة أن أجلس على حصير الحلفاء المفروش أمام البيت، عليه كومان
من ملح أحدهما ناعم كالبودرة والآخر فصوصه خشنة جواره ميزان صغير
يزن به أبي أرطال الملح للناس وأمي ترص على قفص جريدي أصابع العسلية
والملين والحُمص وقرطيس اللب والفول السوداني ويدها منشة من الليف
تبعد بها الذباب الحائم حول بضاعتها القليلة ..

لا أذكر من تلك الأيام إلا أنها كانت تمر، فقط تمر والذي نبيت فيه نصبح فيه، لا جديد في هذا الزمن سوى أنني ألحظ أُمي وهي تسلق كيس لحم صغير مرة كل شهر وأحياناً تتوالد الأيام بساعاتها المديدة ويمضي الشهر ولا أذوق إلا المدمس والبصارة والباذنجان المقلي وأحياناً تستضيف معدتي قطعاً من الجبن بالبتاو الطري الذي تأتي به أُمي بعد أن تعاون الست معزوزة في الخبز أما العدس الذي يحبه أبي مثل الشيشة فإنني لا أطيقه لأنه يحرق قلبي بعد أكله.. تأتي أيام العيد الكبير فأبتهج لأن أُمي تسلق أي كيس لحم يزورنا من الناس الذين أسمعهم يقولون لها :

- كل سنة وأنت طيبة ..

فترد أُمي بابتسامة ملت تكررهما ..

- بعودة الأيام ..

تلك الأيام تتسحب من الفراغ الذي أعيشه ولا أتذكر منها إلا طنين الصداع وديبب الألم ثم الذهاب بي إلى المستشفى والعودة بالدواء والحقن وبعدها أشعر براحة وأعاود القعود بين أُمي التي تباع الحلوى وأبي الصموت الذي يزن الملح وهو لا يتوقف عن إخراج الدخان من منخاره ولا يحدث زبائنه إلا في القليل النادر فسمعت ذات يوم جارنا صدقان والد وجيه ومقنع يتصفح الأهرام أمام بيته الملاصق لبيتنا ويقول :

- السادات منع اللحم

فيضحك أبي وتكشف أسنانه الصفراء وهو يرد ..

- يمنع .. لا يمنع، لا يهمني في حاجة، المهم لا يمنع المعسل وكفاية عليه

أنه أكل لحم موشي ديان ..

يميل العم صدقان بأذنه الثقيلة نحو أبي ثم تعلقو ضحكته ويواصل قراءة الجريدة في صمت، أتساءل عن الاسم الذي سمعته ..

- من السادات، رئيس المدينة ؟

بسحته الموسومة بالحزن يلتفت إليّ أبي ويتنخم كعادته ويصق كرة كبيرة تتسابق فراخ أم وجيه في نقرها ..

- لا يا غريب، السادات رئيس مصر ..

لا أفهمُ حرفاً مما قاله أبي عن مصر التي أسمع الشباب في الشارع يرددون أن أحدهم مسافر إلى مصر وآخر عاد من مصر وأبي يقول أننا نعيش في مصر، أنفضُ كل هذه الصراعات للفهم وراء أذني ويتنضي يومي مثل غيره من الأيام لكنني لاحظت أن الفراخ في الشق الضيق الذي نعيش فيها بدأت تقل واختفت أصوات بط و إوز أم وجيه التي تفاخر دائماً بتربيتها ويوما جاء عم شوقي السماك بقفة مملوءة بالبلطي والقراميط، في لمح البصر اشتراها كل من بالشق حتى أمي حصلت على سمكة بلطي كبيرة أسرع بتنظيفها وشممت رائحة القلي فابتهج بطني لها وتعشينا في هذه الليلة من سمك عم شوقي الطيب الذي عرفت من أمي أنه رفض أن يبيع سمك اليوم في السوق وفضل يبعه لجيرانه من أهل الشق؛ ليلتها نمت وأنا مبسوطٌ وفي منتصف الليل صحت على أصوات قرب البيت فنهضت، من خلف الباب الموارد رأيت سيد الجزار يحرق جدياً بحبل رفيع و من حين لآخر يلتفت خلفه، أمام البيت يقلبه ويمر بالسكين على رقبتة والجدي يعافر ويطلق مأمأة خافتة ثم

تهدأ حركته ويكف حافره عن دق الأرض، يعاونه من حوله على سلخ الجلد وفي سرعة يقطع اللحم ويعلق الميزان في خطاف أعلى باب بيته ويزن لكل واحد نصيبة ويلف الباقي في ورقة كبيرة، يدخل البيت ثم يعود متلفتا يمينا ويسارا ويشرع في ردم الدماء بالتراب ..

يتسم لي أبو وجيه وهو يسرع نحو بيته بيده نصيبه من لحم الجدي، أغلق الباب، أتمدّد على السرير وأنا أحلم أنني أقضم ورك الجدي المشوي حتى جاء الصباح فصحوت بعد الظهر، ظللت ألعب مع وجيه ومقنع ومسعود بن سيد الجزار حتى المساء وبعد المغرب جاءت أم مسعود بصنيبة كبيرة وضعتها أمام عتبة بيتها ودعت كل من بالشق للأكل، جلست وسط العيال وتسابقت أصابعنا في التهام الفتة بالأرز أما أم مسعود فقد اغترفت طبقا نصيب أمي معها قطعة لحم وذبحت إليها بالبيت وأعطتها طبق الفتة، أكلت حتى شعرت بالامتلاء، أمضينا بقية الليلة في اللعب ثم عاد كل واحد إلى بيته وأنا أتساءل: لماذا يذبح سيد الجزار في الخفاء وقد كان منذ أيام يعلق ربع العجل في خطاف كبير بدكانه ويقطع منه ويبيع أمام كل الناس ومرة ثانية عندما لا أجد تفسيراً لما أفكر فيه أطرّد أفكاري وأريح نفسي من هم الإجابات عنها ..

ألزم القعود بين أمي وأبي، وقد أتمشّى أول الشق فأجلس على عتبة دكان عم بشاي المفتوح في بيته، أمضي وقتاً أراقبه وهو قاعد أمام النّول الخشبي الكبير فينسج المفارش الصوف يعاونه ابنه كيرلس ومينا وكثيرا ما ترسلنا أم وجيه أنا ومقنع بكرات كبيرة من شريط الأقمشة ليصنع لها مفرشا منه .

في ساعة مغرب تمشيت إلى أن وقفت قبالة عم حربي المزين، تقرب لمة
من أولاد وبنات الحارات القريبة من الشق وهم يدقون على الطبول الصغيرة
والصفائح ويرددون أغنية فتجراتُ وسرت معهم وأنا أردد معهم :

يا بنات الحور سَيِّوا القمر
القمر مخنوق والخبر وصل
يا غفور يا غفور
رجّع القمر يدور

ظللت أصفق وأتبعهم حتى انحنت اللمة في شارع جانبي كبير فتوقفت
جوار بيت قديم وتلفت حولي، أرعبتني الوجوه الغريبة والبيوت العالية،
سرتُ في طريق العودة وصدى أغنية الأولاد يأتيني من بعيد لكنني لم أصل
إلى الشق فما أقف أمامه ليس شارعنا الضيق فالمزين حربي غير موجود أمامه،
ضيق ينتابني وندمت على خروجي من الشق مبتعدا عن دكان عم بشاي،
عجزت عن مغالبة البكاء فسالت دموعي غزيرة وأنا أسير على غير هدى ولا
أحد يسألني حتى شعرت بيد تقبض على كتفي، رفعت رأسي فرأيت كيرلس
بن بشاي فتوقفت عن البكاء ففهم أني تهت عن الشق، فأمسك كفي وقادني
وهو يضحك عبر الشوارع فإذا ما ظهر مطعم عم مكرم ودكان عم بشاي
حتى هرولت داخلا الشق مستأنسا بحربي المزين وهو قاعد كعادته يلعب
السيجة، عدت جالسا جوار أمي مقررا ألا أبتعد مرة ثانية ..

قبل رمضان بأيام، أمارس هوايتي المفضلة وهي مراقبة مكرم وابنه خميس
وهما يبنيان فرن الكنافة أمام بيتهم ولم يلبث العم مكرم أن يأتي بأطنان البوص
والخطب ويغذي خميس بيت النار بالبوص ويدور كوز العجين السائل على

الفرن مكونا شبكة كبيرة فتفوح رائحة الكنافة الشهية التي يوزعها عم مكرم أول ليلة في الصيام مجانا على أحبائه فأنال نصيبي من الكنافة وأعود إلى البيت لنأكلها أنا وأمي بالسكر ..

ليلا، اصطحبتني أمي لبيت الأستاذ رمزي، جلست تتحدث مع أمه الجدة الكبيرة معزوزة وأنا أتأمل وجه حفيدتها الصغيرة ماري، تضحك جدتي معزوزة الطيبة وهي تقول :

- تتزوجها يا غريب ..

فترد أمي والبسمة تشرق في وجهها ..

- لو ينفع نشرف يا مقدسة، المهم غرضي أكلم الأستاذ رمزي لأجل يقدم لغريب في مدرسة الثورة القريبة من هنا ..

تدخل أم وحيد زوجة الأستاذ رمزي خلفها وحيد الذي يكبرني وفرحان الذي يصغرنني وهي تخبر أمي ..

- رمزي في الغيط يا أم غريب، على العموم هات شهادة الميلاد وربنا يسهل ..

تخرج أمي من صدرها ورقة مطبقة وتسلمها لأم وحيد التي تفرد لها أمامها وتمز رأسها مرّات وهي تقول مطمئنة أمي :

- قدمنا لماري في مدرسة الثورة ..

مرة أخرى أتأمل وجه ماري النظيف المستدير وعينيها الزرقاوين وشعرها المفرد على ظهرها وأشعر بالفرح لأنها ستكون معي في نفس المدرسة وأراها كل يوم ..

• • •

جاءت أمي من الخارج فخلعت جلبابي الوسخ وألبستني مريلة لونها مثل الشاي باللبن، كبيرة عليّ لكنها بإبرة وخيط جعلتها على مقاسي، مرة أخرى تلبسني إياها وهي تقول :

- تلبسها لما تفتح المدرسة يا غريب ..

تخلع المريلة وتلفها، تنظر إلى أبي الجالس على السرير كعادته وتحيب عن سؤال لم يكلف خاطره ويسأله ..

- أم وحيد - الله يكرمها - أعطتها لي، صحيح قديمة لكن بعد الغسيل تكون جديدة، لا يهتم بما تقول، يهز رأسه ثم يغيّر ماء الشيشة ويضع على الحجر قليلا من المعسل وبقطعتي حديد يثبت عظام الذرة المتوهجة ويسحب النفس ثم يرفع وجهه إلى أعلى ولم يلبث أن يشفط من الشاي بصوت مسموع ..

أسمع من أولاد الشارع أن المدارس يوم السبت، أراهم يذهبون إلى دكان صابر أول الشق فيشترون الأقلام الرصاص والخبر، أسأل وجيه العائد مع أبيه من شارع السوق عن التي يمسك بها فيجيب بأنها حقيبة المدرسة، أقلب فيها وأنتشي لرائحة جلدها الأسود، يسحب أبو وجيه الشنطة ويتركاني فأجري إلى البيت وأسأل أمي :

- الشنطة ؟

تحييني باسمه ..

- يوم السبت إن شاء الله تكون عندك شنطة يا حبيبي ..

يأتي صباح يوم الجمعة فيمسك أبي بيدي إلى أول الشق حيث يفرش
حربي المزين كيسا من الخيش في ركنٍ منزو بين بيتين أمامه عدة الحلقة،
يلعب السبيجة مع عم صدقان، ما إن جلس أبي جواره حتى أنهى دور السبيجة
وتهيا للحلقة، يجلس أبي أولاً، يلف المزين ملاءة قصيرة حول رقبتة ويدهن
وجهه برغوة بيضاء، يمر بالموس الطويل على خده وأتعجب من اختفاء
الشعر الذي كان متناثرا على كل وجهه، يعيد المزين ذلك حتى ينهي الحلقة
فبدا وجه أبي برغم سمرته جميلا، أجلسني قدام عم حربي وهو يطلب منه :
- احلق لغريب ..

يهز المزين رأسه، نفخ الملاءة من بقايا الشعر ولفها حول رقبتني، دار
بالماكينة على رأسي وأنا حزين على شعري المتساقط حتى إذا ما نزل بالماكينة
قرب خدي ضحكت لحركتها السريعة التي يديرها حربي بأصابعه ثم جاء
دور المقص ليساوي أطراف الشعر، ينقده أبي قرشين ودون أن ينظر إليهما
يدسهما تحت كيس الخيش فنهض أبي قابضا على معصمي، يرص عم حربي
أحجار السبيجة ويعود للعب مع صدقان الذي علمت أنه لم يعد يركب
دراجته ويذهب بها إلى مصلحة الري بعد أن أصبح على المعاش، رجعت أنا
وأبي إلى البيت لأستحم ..

بعد العصر، أخذتني أُمي عند خالتي رزقين التي تسكن في بيتٍ صغير
مسقوف بالجريد جوار مقام الشيخ رمضان حيث مدافن العيال الذين
يموتون صغاراً، خالتي رزقين التي تكبر أُمي بأعوام لم ترزق من إبراهيم
صانع المخلل بأولاد بل بنت وحيدة اسمها عفاف تحملها خالتي طول

الوقت وإذا تركتها على الأرض فإنها لا تمشي وعرفت فيها بعد أنها مشلولة،
أحاول ملاعبة عفاف إلا أنها لا تتكلم وإن أعدت المحاولة فلا تجيبني إلا
بالبكاء حتى ترضيها خالتي بإصبع سمسمة ..

أتذكر حديثاً سمعته في عصر يوم بين أمي وجارتنا أم مسعود أن المخللاتي
زوج خالتي رزقين بعد سنوات طويلة من زواجه أنجب منها عفاف ولم تحمل
بعدها ثانية فهجرها وهرب إلى الإسكندرية ولم يعد ثانية بعد أن باع البيت
فاضطرت خالتي أن تعيش في عشة جوار مقام الشيخ رمضان ..

أمي دائماً تتحدث عن خالتي حكيمة التي تسكن في كوم الترمس وهو
مكان بعيد وسط الزرع وعن زوجها الذي لا يحبنا ولا يحب أن تزورنا
خالتي، نعود قرب العشاء وقد تعشيت مع أمي وخالتي رزقين، أبيتُ قلقاً
من شخير أبي الذي يعلو من حين إلى آخر وعندما يهدأ قليلاً تتلاقى رموشي
إلا أنني أنهض وأنا ألوذ بحضن أمي هلعاً من مواء القطط التي تتعارك على
السطوح ونباح الكلاب خارج البيت، أظل مستيقظاً حتى يغلبني النوم
فأسقط في بثره العميقة التي أتخلص بها من الشخير وأصوات معارك القطط
والكلاب ..

-٢-

على غير العادة توقظني أمي فأتململُ ثم أعود للنوم لكنها تمس وجهي
بكفها المبلل بالماء وصوتها يعلو ..

- قم يا غريب .. المدرسة فتحت ..

ينفخ قلبي عندما تتناهى لمسامعي تلك الكلمة فأنهض في حماس ونفسي
فرحة لدخول المدرسة، تلبسني أمي المريلة التي أصبحت على مقاسي وأفاجأ
بصندل جديد مثل الذي أراه في فاترينة محلات باتا بحري البلد، فرحت
للوّنه الأزرق الفاقع، تضع واحدة من الكعك في الشاي الساخن وبالرغم
من أنها لم تلن إلا أنني أكلتها ثم رفعت صوتي بالأمر ..

- الشنطة ؟

تهلل وجهي وأنا أراها تفتح باب الطاقة الخشبي وتهبأت للحقيبة الجلد
لكن أملي خاب وهي تفرد أمامي كيسا من قماش سميك لونه أحمر مخطط
وتقول :

- امسك المخلاة، فيها تضع الكتب ..

أمسكتها بيدي فاحتبس الاعتراض في حلقي وأنا خارج من البيت ولا يزال شخير أبي يرن في المطرح، تسير بي في شارع السوق حتى وصلنا للمدرسة وقبل أن ندخل أوقفتني جنب الجدار، تراحم الواقفين أمام مكتبة النصر وخرجت من وسطهم وهي تمسك بقلم رصاص ثم تضعه في المخلاة..
أدخل المدرسة فأندھش للعيال والبنات المزدحمين بها وجميعهم يلبسون تلك المريلة التي بدأت أكره شكلها..
- ادخلوا الحوش ..

يكررها الرجل الذي يلبس قميصا وبنطلون فتسحبني أمي إلى حيث يشير للجميع وأفاجأ بأولاد آخرين أكبر مني لكنهم يلبسون قمصانا وبناطيل، مشت أمي وهي تقبض على معصمي والأفندي يصفر فانتظم الأولاد والبنات الكبار في صفوف أما نحن الصغار فبدأ الأستاذ الذي يناديه الجميع باسم غيط يعلو صوته بالأسماء والأم أو الأب يسحب الولد أو البنت ويوقفه حيث يشير الأفندي..
تشغل أمي في الحديث مع جارتنا سميرة أم ماري التي تقف جوار أمها فأنظر إليها فأرها وجهها يلمع وشعرها مربوط بشريط أحمر وجزمتها الصغيرة سوداء وشرابها أبيض، من حين لآخر تشير لأخيها وحيد الذي يقف في صفوف سنة رابعة، يرفع الأفندي صوته..
- غريب ضيف عوض العريان ..

لم تنتبه أمي فكرر الأفندي الاسم فنبهتها أم ماري فشدتني أمي إلى حيث يشير وهو ينظر إليها في غيط، وقفت في الطابور، تركت يدي وابتعدت فأوشك

على البكاء لكنها كانت تشير إليّ من بعيد وتطمئنني، أستاذ آخر يمسك بعضا خيزران ويقف أمام الطابور لينظم حركة الصفوف وبعد الانتهاء من المناذاة يتقدم أربعة من الأولاد وترتفع صفارة المعلم فتهدأ زبطة الحوش ..

- تحيا جمهورية مصر العربية ..

الكل يثبت مكانه ويردد ما يقوله الولد الكبير الذي يتقدم زملاءه الثلاثة وأسمع كلمة مصر فيعلو صوتي مثلهم وأردد اسم مصر الذي يتحدث عنها الجميع وأنساءل إن كانت مصر بعيدة يذهب إليها الناس ويعودون فلماذا نردد اسمها في أرض الطابور وكالعادة أنفض ما أفكر فيه وأمشي وراء العيال، أرفع رأسي للطبلة الكبيرة التي يدق عليها الولد السمين وأسير مع الصف خلف السيدة التي تلبس ملابس غير أمي بل وشعرها يلمع في أشعة الشمس حتى وقفت بنا أمام حجرة مملوءة بالمقاعد الطويلة، تلفتُ لأنادي على أمي لكنني لم أرها، انفصلت عن الطابور ولكن المعلمة أعادتني مرة أخرى وكأنها رددت ذلك آلاف المرات زعقت ..

- أمك مشت، تقابلها في البيت يا روح أمك ..

كدت أبكي وأنا أتحيل أنني سأمضي النهار بطوله بعيدا عن أمي مع تلك السيدة التي زعقت في وجهي فهممتُ أن أعود للحوش وأبحث عنها لكن المعلمة رفعت العصا الطويلة ويعلو صوتها ..

- ادخلوا الفصل ..

دخل طابور البنات أولا، جلس في الركن المجاور لباب الفصل ثم دخل الأولاد وهم الأكثر وجلسنا في الصفين الآخرين، يعلو صوت المعلمة على أصواتنا جميعا ..

- القصير من قدام والطويل في الخلف..

ولأن جميعنا لا يعرف معنى خلف وقدام فيسود المهرج داخل الفصل وتتدخل المعلمة في ترتيب فصلها وكان نصيبي أن جلست في الآخر بالرغم من قصري لكنني فرحت عندما رأيت ماري تجلس عن يميني فابتسمت لي وهي تقول :

- أنت ابن خالتي حسنة وعم ضيف بائع الملح ؟

هزرت رأسي فأكملت ..

- أملك تأتي عندنا لتساعد جدتي معزوزة في الحبيز ..

هممت أن أقول كلمة لولا أن معلمتنا ضربت المنضدة بالجريدة الناشفة التي تمسك بها ثم زعقت ..

- سكوت يا سنة أولى رابع، قيام ..

وقف الجميع فهدأت الزيتة تدريجيا حتى سكن الفصل تماما والعيون كلها تتجه إلى الأبله ..

- جلوس ..

جلس الجميع واستدارت المعلمة لتمسح ما سمعت أنها سبورة فأردد :

- أولى رابع ؟

تحييني ماري بثقة ..

- فيه أولى أول، ثاني، ثالث وهنا أولى رابع ..

هزرت رأسي لإجابتها التي استوعبتها ولم ألبث أن طردت كلامها من رأسي ونظرت إلى المعلمة التي تمسك بقطعة بيضاء تشبه حلوى النوجة

التي تبيعها أُمي أو نبوت الغفير لكنها تنتهي بسرعة بعد أن كتبت أرقاماً على السبورة ولا يتبقى منه إلا دقيق أبيض تدوسه جزمة المعلمة على بلاط الفصل .. زعقت وهي تلتفت :

- قولوا معي .. ألف ..

نردد جميعاً ما قالت ثم أرى جريدتها تشير إلى كوز ذرة عليه علامة تشبه رقبة الإوزة فعرفت أن هذا الحرف هو الألف، ظلت طوال الوقت تردد ونحن نردد وراءها حتى سكنت فجأة ونظرت إلى ساعتها وعندها دق شيء في الحوش التفتنا جميعاً نحوه فوجدت رجلاً يلبس جلباباً أزرق مثل جلباب أبي ويسحب سيخاً فيهتز القمع الحديدي ويحدث صوتاً متتابعاً وعرفت من الأولاد أنه جرس، خرجت معلمتنا من الفصل وبعد قليل دخلت ومسحت السبورة ثم رسمت نفس كوز الذرة ولكن من غير رقبة الإوزة وزعقت ..

- قولوا يا أولاد : واحد ..

ارتفعت أصواتنا ونحن نردد وأنا مندهش من تغيير ما تقول وظلت تكتب وتزعق حتى دق الجرس مرة أخرى وشعرت بزققة البول، فهممت أن أقول لها لكن ارتفع صوت الأولاد ..

- فسحة ..

طلعوا جميعاً وأنا بينهم، رأيت أولاد سادسة وخامسة نازلين من الدور العلوي في اندفاع، كدت أبكي من بولي المحتبس وهممت أن أقف أمام الجدار وأفعلها ولكن خفت من الأستاذ الذي يمسك بعصا رفيعة من الخيزران، سألته عن الحمام فنادى على الرجل الذي دق الجرس ..

- خذ يا رسمي، ولد من سنة أولى عرّفه طريق الحمام ..

يقودني الرجل إلى غرفة كبيرة وعند الباب يتركني فأدخل والمخلاة خلف ظهري، تزكم أنفي روائح زنخة كالتي أشمها في حَمَام البيت قبل أن تدلق أُمي الماء لتنظفه، أفعل مثل الأولاد في واحد من الأحواض الملاصقة للجدار وأشعر بالراحة وأي راحة بعد إفراغ الماء الذي لم أتعود تخزينه كل هذه المدة وأنا وسط العيال في حجرة يسمونها الفصل ..

أخرج فيستريح صدري من الرائحة الزنخة التي لا كادت تخنق روحي، أقف جوار باب الحوش وأرى ماري تقضم من الفينو فتراني وتأتي إلي فأخرج من المخلاة نصف رغيف الخبز الذي وضعت أُمي في قلبه السكر، تبتسم ماري وهي تقول بصوتها الرفيع :

- باقي حصتين ونطلع من المدرسة ..

- ونرجع البيت ؟

هزت رأسها وهمت أن أقضم من رغيفي لكن ولدا كبيرا يرمح وراء زميله يصطدم بي وأقع على الأرض فينفلت الرغيف من يدي، يتمرغ في التراب؛ أقف باكيا فتنفض ماري التراب عن المريلة وتقسم الفينو وتعطيني نصفه المتبقي، أمسكه وأنا أنظر إلى رغيفي المترب في حسرة، أقضم فأشعر بطعم البيض الشهوي المحشوبه، يرن الجرس ونعود إلى الفصل لكنني شعرت بالعطش فرمحت نحو الحوض الكبير والأولاد يشربون منه وصفارة المعلم تحثهم على الانتهاء سريعا لكنني رفعت نفسي على الحوض نصف المملوء بالماء وشربت وما إن نزلت إلا وتلسع مؤخرتي عصا المعلم فهرولت إلى الفصل،

دخلت ولا أثر لعمّر وسعيد و مينا الذين يجلسون جواري أو ماري التي تجلس عن يميني في صف البنات فبكيت لكن المعلم الذي دخل الفصل مع بقية الأولاد الكبار أخبرني أن ذلك فصل لسنة رابعة فارتفع صوتي بالبكاء، يربت على كتفي وأعطاني حبة من حلوى الندلر وسألني عن اسمي فأجبته وعن فصلي فقلت له سنة أولى ومُحي من ذاكرتي رقم الفصل لكنه أمسك يدي ودار بي في فصول أولى ابتدائي حتى دخلت فصلي فجريت نحو مقعدي وجلست مستأنسا به .

مضت الحصتان الأخيرتان ومرة أخرى رن الجرس فخرج أولاد أولى فقط من الفصول و صيحاتهم الرفيعة ترن في أرجاء المدرسة، خرجت والمخلاة على ظهري وعند الباب الكبير رأيت ماري تقف مع أبيها الذي يلبس مثل الأساتذة بالمدرسة ، وقفت أنتظر أمي وهمّ الأستاذ رمزي أن ينصرف لكنه التفت إليّ ..

- تعال يا غريب .. امش معنا ..

سرت جوار ماري وأنا حزين لأن أمي لم تحضر لتأخذني كما وعدتني ومن حين لآخر أتأمل وجه ماري الأبيض الجميل حتى مالت مع أبيها نحو بيتهم في الشارع العمومي أما أنا فقد سرت نحو الشق الضيق المقابل لبيت الأستاذ رمزي وعند البيت هرولت إليّ أمي مرتميا على صدرها فغمرتني بالقبلات وأعطيني العسلية التي أحبها فقطعت نصفها مقررا أن أعطيه لماري في اليوم التالي، تعلقت برقبة أمي ولا أريد أن أفارقها أبدا ..

منذ صياح الديكة وأنا أتقلب على السرير الجريدي الذي تؤلم أعواده الناشفة ظهري وأمي تنام على الأرض، أعيد محاولة النوم وأنجح فيها كما نجحت في اليوم السابق أن أردد حرف الضاد وراء المعلمة وما بين اليقظة والنام أرى أُمِّي تنهض وتلف الطرحة السوداء حول وجهها، تفتح الباب فيندفع هواء الصبح الذي ولد لتوه ليبدد روائح البيت المكتومة؛ فيستريح صدري، تخرج ولم أستطع سؤالها ولكن راودني إحساس أنها ستساعد كعادتها السيدة الكبيرة معزوزة في الخبيز وتمنيت أن أذهب معها لألعب مع ماري، لكن طردت الفكرة فماري سأقابلها بعد قليل في المدرسة .

أحلق في النملة التي تخرج لتوها من شق بالجدار الذي أواجهه، تدور حول الشرخ الصغير، أبتسم لها و أصفر صغيرا منقطعا فيعاكسها الهواء الخارج من بين شفتي المضمومتين، أراها تقرر دخول الشرخ فتمنيت أن يصغر جسمي وأدخل خلفها لأرى كيف تعيش مع عائلتها وهل زوجها يدخن الشيثة مثل أبي، أبتسم لتفكير الساذج ثم أجدي أُلقي بما فكرت فيه وراء أذني ..

طلعت الشمس فنهضت من فوري، دخلت الحمام لأريح أمعائي، الملح عند خروجي ظهر أبي الممدد على السرير، ألبس المريلة وأسحب المخلاة وكبدل للريغف المحشو سكر أضع فيها البسكوت السادة، أخرج من البيت وأنا موقن أن أمي ستفتخر بي لأنني اعتمدت على نفسي في ارتداء ملابسني، أسير نحو المدرسة فألاحظ أن الشارع خالٍ من البنات والعيال، أقف أمام مكتبة النصر وأتعجب من أنها لم تفتح بعد وهي التي يتزاحم عليها الأولاد كل صباح، ألتفتُ إلى باب المدرسة فتجحظ عينايا لمواربته وعم رسمي الفراش يجلس على دكة أمامه، أتجاسر متصنعا اللامبالاة وأدخل لكنه يمنعي بصوته الرفيع غير المناسب مع شاربه الغليظ ..

- ارجع يا ولد ..

- والمدرسة ؟

- اليوم إجازة ستة أكتوبر ..

- وأنا مالي ؟

- قلت لك ارجع وتعال في الصباح ..

لم أسمع كلام الفراش وظللت واقفا أمام المدرسة التي ثبت بعد مرور الوقت أن أحدا لن يدخلها اليوم وبخاصة بعد أن شاهدت الأستاذ بكر مدرس الألعاب يركب حمارته وأسفله زكية الطحين وهو يلبس الجلباب لا القميص والبنطلون .

الشمس تواصل إرسال أشعتها الساخنة أمام المدرسة فذهبت للناحية الأخرى من الطريق حتى وقفت أمام قهوة أبو شنب، التفتُ إلى الأصوات

العالية فرأيت التليفزيون الأبيض والأسود يعرض فيلم شدتني مناظر العساكر فيه وهم يحذفون في الماء وبعضهم يفرد سلماً على الرمال ويصعد وهو يقول : الله أكبر والعلم يرفعه أحد الجنود ثم يقع بعد أن تصيبه الرصاصات ، اثنان من الأفندية يدخنان الشيعة وأحدهم يقول للآخر :

- تصوّر يا أخي، مرت سبع سنين على الحرب ..

يرد الآخر وهو يشرب شايه بصوت مسموع أعلى من صوت أبي :

- الحمد لله، أخذوا علقه حمار في مطلع وموشي ديان الأعور راحت عليه وجولدا ماتت من حسرتها ..

يشير أحدهم إلى الرجل الأسمر الذي يلبس مثل عساكر المركز وهو يرفع صوته :

- السادات عليه هيبة تهد جبال ..

ينتهي العرض العسكري وتظهر مذيعة تقدم للفيلم فجلستُ على عتبة القهوة وأخرجت البسكوت، من كوب مركون جوار الكرسي مملوء نصفه بشاي بارد وضعت البسكوت، أكلت وأنا أتابع مشاهد القتال المختلفة، أظل أحرق في الشاشة ولم يلتفت لي أحد من القهوة حتى كتبت النهاية وظهر العلم الذي تقدّم له التحية كل صباح مغروراً في الرمال، نهضتُ وعدت إلى البيت فرأيت أُمّي تجلس أمام قفص الحلوى وأبي يزن الملح ..

- الفيلم حلوا خالص ..

- فيلم ؟

- حضرته في القهوة، أصل اليوم ستة أكتوبر، عم رسمي قال اليوم إجازة.. لم تهتم أُمي بما أقول وكعادة أبي يرضع الشيشة التي لا يفارق ميسمها فمه، ينقضي النهار وتطعمني أُمي البتاو الطري أجر مساعدتها في الخبز عند الجدة معزوزة، فكل عام في هذا الموسم تحبز للعمال الذين يجنون القطن في أرضهم، تمر الأيام وتضطجني أُمي يوم جمعة إلى بيت الأستاذ رمزي فأراه مشغلا مع إخوته الفلاحين في تعليق أكياس الخيش الكبيرة بالحبال الليفية الغليظة في حلقات حديدية مدقوقة بسقف البيت ويكبسون القطن، عند قرب امتلاء الكيس تأتي ماري بصينية شاي، تركنها على الأرض وتقف لتراقب ما يفعلونه فيحملها أخوها وحيد ويضعها في الكيس فلا يظهر إلا وجهها وهي تضحك، يخرجون جميعا متجهين نحو الجرارات الكثيرة التي ستحمل القطن فيخلو حوش البيت ومن بين ضحكاتها تشير إلي وتقول ..
- تعال يا غريب ..

أتشبت في الخيش، أصدع إليها وما إن أدخل في الكيس إلا وتركميني رائحة القطن بذوره السوداء، تنط ماري وأنط أمامها والفرحة لا تسع قلبي، تتمايل، تكاد أن تقع فتتشبت بي فأمسك كتفيها وضحكاتها ترن؛ أنتشي بملامسة جسمها الناعم، نعاود النط وتأتي لحظة لم أتوقعها إذا بها تقع وأقع عليها فأشعر بخدها الناعم الملاص لحدي وضحكاتها تتعالى لكني وبسرعة أنفض وأساعدنا فنقف متقابلين وقد طُرفت عيني، دعتها بإصبعي حتى احمرّت فرفعت ماري طرف جلبابها ووضعت على عيني ونفخت، شفتها تلاص خدي الذي يكاد ينفجر من الخجل، نسمع أحدهم ينادي من

الخارج فأخرج من الكيس وأقفز على آخر ممطط على الأرض، ماري تفعل مثلي ثم تمسك يدي ونعود معا إلى حجرة الخيز فأجد أُمي وسيدات البيت قد ملأن المشنة الكبيرة والصغيرة التي تجاورها، أعادت أُمي لف الطرحة وأخذت أجرتها من البتاو الطري وعند الباب سحبت الجدة معزوزة من صدرها منديلا وفكت ربطته، أخرجت نصف ريال فضة ومدته لأُمي التي تمنعت أول الأمر ثم أخذته ودسته بدورها في صدرها وأنا أتعجب من تلك الصدور التي تخزن الريالات والقروش الفضية، خرجنا وعيني لم تفارق وجه ماري المستدير وأتمنى أن أبقى معها طوال اليوم داخل كيس القطن .

عدنا إلى البيت وبسرعة جهزت أُمي العشاء، وضعت طبق البصارة أمام أبي الذي قشر البصل وأخذ يأكل في نهم حتى أنهى على كل ما في صحنه وبلقمة كبيرة مسح ما تبقى في القعر ثم مال برأسه إلى الوراء وسمعت شخيرته الذي بدأ يضايقني ..

- نم يا غريب؛ عندك مدرسة ..

قالتها أُمي وهي تسحب يدي نحو سريرى، أتمدد ولكن النوم رفض أن يزورني فأتقلب على السرير وكل لحظة يظهر وجه ماري أمامي وأتذكر لعبنا في كيس القطن الكبير فأضيف عليه من خيالي مواقف عديدة وألوم نفسي على أني لم أفعل معها كما فعل الولد الجميل أحمد رمزي مع واحدة حلوة نسيت اسمها في نهاية الفيلم الذي حضرته في بيت أم وجيه أول أمس والذي انتهى على أن شفتيهما انطبقتا على بعضهما البعض ثم كتبت النهاية ولكني طردت هذه الفكرة وقلت لنفسي أن هذا عيب ..

لاحظت وأنا أكتب في الصفحة السابقة أن القلم نفذ الحبر الذي به وبدأ يبهت فرفعته أمام عيني وتأكدت من خلو أنبوبته، هممت أن ألقيه لكنني شعرت بحنين جارف تجاهه بعد أن رافقني في كتابة الصفحات السابقة وله الفضل كل الفضل في تشجيعي على الكتابة بل وأنهى الفصل السابق وهو ينازع حتى خط الباء من كلمة - عيب - فابتسمت ووضعت مع رفاقه داخل علبة السمن الصغيرة أقصد المقلمة وأمسكت بالآخر فانفرد أمامي مزهوا بشبابه المملوء بالحبر .

بعد إعداد كوب آخر من الشاي، جلست وأول ما كتبت تلك الكلمات التي عبرت فيها عن عظيم امتناني لرفاق رحلة الكتابة الذين يجود الواحد منهم بآخر ما يسري في عروقه من حبر حتى ينفخ الحياة في تلك الصفحات ...

ها أنا ذا أعود للكتابة وما تحويه تلافيف ذاكرتي أنني عدتُ يوماً من المدرسة، مررت بعم حربي يلعب السيجة ولكن هذه المرة مع نفسه، ابتسمتُ ساخراً منه، أقترب من البيت فأرى عم صدقان كعادته يقرأ الجريدة أمام بيته وزوجته أم وجيه تدير ماكينة الخياطة، برغم علمي أن جارنا صدقان

سمعه ثقيل جدا إلا أنني ألقيت عليه السلام ثم دخلت البيت، وجدت سيدة معها بنت كبيرة، أكبر مني بسنوات تساعد أُمِّي في تنف ريش الفرخة المذبوحة استعدادا لسلقها ثم تحميرها وعمل عليها ماعون ملوخية كما اعتادت أُمِّي أن تفعل عند سنوح تلك الفرص النادرة لأكل الطيور، وقفت في البيت فابتسمت السيدة ثم اتجهت نحوي في شوق، مسحت يديها من الماء واحتضنتي، قبلت خديّ وفوجئت بها تقول :

- أنا أختك يا غريب ..

ألقيت المخلاة جانبا وجريت نحو أُمِّي التي ضحكت عليّ ..

- أصله أول مرة يراك يا نفيسة، سلم على أختك يا غريب، سلمي على

خالك يا سعاد ..

مدت البنت يدها لتسلم عليّ فاحتميتُ بأُمِّي وأنا لا أفهم ما يُقال لي، خرجت من البيت لأسأل أبي عن أختي التي لم تعش في بيتنا ولم تلدها أُمِّي فضحك ومسح على رأسي فحمدت الله أنه لم يدخن المعسل وإلا لنسي كل شيء في دينته المعبّقة بالدخان ..

- أنا يا غريب تزوجت واحدة من زمان قبل أمك هي أم نفيسة ولما ماتت

تزوجت أمك، أختك نفيسة متزوجة من عمك محمود نجار المسلح وتعيش في بلد اسمها أبو تيج ..

أضاف كلام أبي شيئا جديدا عن حياته التي لا أعرف عنها سوى بيع الملح وتدخين الشيشة، أمضت أختي نفيسة وابنتها سعاد اليوم معنا وغادرت بعد

المغرب، عند الباب وعدتني أن تأخذني معها لأزور مولد سيدنا الفرغل وحديقة الحيوان في بلدهم البعيدة التي عرفت أننا نركب القطار للوصول إليها، وكان أهم ما في ذلك اليوم هو أنني فزت بورك محمّر واستمتعت بمذاقه أيما استمتاع وشعرت لأول مرة بالشبع .

• • •

أقبلت أيام الصيف وأنا ملتزم بالقعود مع أبي وأمي في جلستهما المعتادة أمام البيت لبيع الحلوى والملح، أجمع الكثير من أغطية زجاجات الكوكاكولا والسيكو وبمسار آخرمها وأجمعها في استك مطاط لأصنع منها عجلة ألفها على واحد من مكرات الخيط الفارغة التي تلقىها أم وجيه من حين لآخر أمام البيت فأتعاون أنا وابنها مقنع في صنع لعبتنا بأنفسنا .

أدور بعجلتي أمام البيت فينهرني أبي أحيانا ويطلب أن أتوقف، أبي متقلب الأحوال، يطيل فترات صمته ثم يأتي عليه وقت لا يكف عن الكلام مع الجيران وخاصة عندما يأتيه حربي المزين ويحتران معا ذكريات زمان وأسمع أبي يتكلم في حماس عن عمله كأجير في بناء السد العالي ثم يميل عينيه ناحية صورة معلقة على الجدار لرجل مبتسم يلبس بذلة، جوار الصورة قصاصات من جرائد قديمة بها صور مختلفة لنفس الرجل بملابس الجيش أو أمام الميكرفون وأسمع أبي يردد من حين لآخر اسم الرئيس جمال .

أراه يضرب كفا بكف على زمان وأيام زمان ويبادل المزين حربي سيرة بناء مستشفى البلد الكبيرة التي شارك أبوه المزين مينا في بنائها مع شباب البلد، يتدخل عم صدقان في حديثهما ويقر أن اليوم لا فيه شغل ولا مستشفيات

وكل شيء متوقف، ينهي المزين عمله بمسح ذقن أبي بالفوطة ثم بكلمة :
نعيمًا ويترك أبي بعد أن يللملم أدواته الشحيحة ويجلس كعادته على التليس
القديم في ركنه المنزوي أول الشق أمامه أحجار السيجة ينتظر أحداً يحن عليه
ويسليه باللعب معه ...

رويدا تتسلل العتمة بأرجاء حارتنا الضيقة، تخفت الحركة إلا من صوت
اجترار جمل عم علي المربوط بوتد أمام بيته، تأتي أم وجيه بطبق كبير من
الويكة، تتفجر الرغبة في أمعائي لرائحة البامية المهروسة، أقعي وظهري
يسنده الجدار يجاورني مسعود بن سيد الجزار ومقنع و وجيه وصديق بن علي
الجمال نتحلق جميعا حول الطبق الكبير، تتسابق أيدينا في التهام الويكة حتى
تمسح اللقيمت المتبقية ما في الصحن الكبير، يدور الكوز على أفواهنا، يركنه
آخر الشارين، نلتف حول أم وجيه التي تجلس أمام عتبة بيتها وتحكي :

كان يا ما كان، ما يحلو الكلام إلا بذكر النبي المختار، كان فيه واحدة
اسمها أم قفة، تلبس الأسود وعلى كتفها قفة، بعد ما تخطف العيل تخفيه في
القفة وتغطي بطرحة كبيرة، تذبحه على باب المغارة وتطلع الكنز المدفون
هناك، لو عيونكم لمحت أم قفة اجروا على طول ولا واحد منكم يقرب
منها..

تتلاصق أجسامنا الصغيرة والعيون جميعها معلقة بوجه أم وجيه وقسماته
التي تتصنع الجهامة حتى إذا ما أنهت الحكاية كعادتها بتحذيرها المخيف
خفق قلبي وارتجت روحى، تخيلت نفسي وقد اختطفني أم قفة لكنى
وبسرعة طردت الفكرة من رأسي عندها نهضت أم وجيه لتدخل بيتها

خلفها ابنها مقنع فترّق أولاد وبنات الشق كل إلى بيته، تمددت على سريري
أثقل وأمسح العرق الناز من رقبتى ومن حين لآخر أتحيل أم قفة وعندما
علا شخير أبي التصقت بأمي التي بدأ منخارها هي الأخرى يعزف ألحان
النوم..

• • •

حر الصباح والجو الخانق المكتوم أيقظني من النوم مبكراً فغسلت أمي
وجهي بالماء ورافقتني نحو موقف السيارات، ركبنا العربة إلى أسيوط،
أنزلتنا أمام جامع سيدي المجذوب فرحت ومنيت نفسي بأكل الكشري
وشرب العصير وبخاصة أنني لم أفطر بعد ومشيت على لحم بطني لكن
أمي سارت مسافة قصيرة حتى المحطة وكان ذلك مفاجأة كبرى أن أركب
القطار الذي رأيته مرات عديدة في تليفزيون أم وجيه أو في قهوة أبو شنب
فنسيت جوع بطني وأنا أنط داخل القطار، يسير بنا فأطل من نافذته الخشبية
وأتعجب من ازدحامه أكثر من السيارة وصوته شديد وهو يشق طريقه بين
الغيطان الواسعة، تهدأ سرعته فألتصق بأمي عند انطلاق صفارته واستطعت
قراءة العنوان المكتوب على لوحة كبيرة - أبو تيج - .

فرحتُ لأني سأزور أختي وسأتفرج على حديقة الحيوانات، خرجنا من
المحطة إلى شارع كبير سلمنا لشارع أصغر ثم انتهى المسير إلى حارة ضيقة،
أضيق من التي نعيش فيها في أنبوب، رأيت أختي نفيسة تقف أمام الباب
واستقبلتنا بالأحضان، أفطرت مع أولادها بمن فيهم سعاد، أخذني أولاد
أختي إلى مولد سيدنا الفرغل المزحم، أكلت الفول السوداني والحمص

واشترت لي سعاد الطرطور الملون، وضعته على رأسي وواحدة من الشخايل ذات الصوت الرنان وطبلة صغيرة ..

بعد الغذاء ذهبنا جميعا إلى حديقة الحيوان على النيل ومضى اليوم سريعا فاستأذنت أمي في الانصراف؛ معللة ضرورة عودتنا إلى البيت حتى لا نترك أبي بمفرده كل هذا الوقت، رافقنا أحد أبناء أختي إلى محطة القطار ووصلنا البلد بعد العشاء لكن عرفت بمجرد دخول البيت سبب تلك الزيارة التي لم تكن على البال أو الخاطر فلم تلبث أمي أن أخرجت من المنديل ورقة بعشرة جنيهات مدتها إلى أبي فتناولها ، قلبها بين أصابعه وهو يهز رأسه ثم وضعها في جيب الجلباب الداخلي ولا أدري لماذا لم أنم تلك الليلة فقد نهضت من فوري وبحثت عن بقية من أوراق كراسة، أما القلم الرصاص فقد كان على الشباك، جلستُ وضوء الللمبة نمرة عشرة ينير البقعة، أرسم ما شاهدته في أبوتيج، رسمت قبة مقام الفرغل وبائع النفاخة وفي الصفحة الأخرى رسمت البغاء الملون الذي رأيته في الحديقة لكنه لم يكن يردد الكلام كالذي نراه في التلفزيون فقد قلت له : أبوك السقامات .. لكنه لم ينطق ورائي ورسمت النسناس في القفص الحديدي والطيور الملونة أما الذئب فقد خفت منه فلم أرسمه ..

بعد انقضاء الوقت غلبني النوم وآخر ما شعرت به هو حركة أمي وهي تطفئ الللمبة ولم تلبث أن نامت كالعادة على الأرض جوار سرير الجريد، في اليوم التالي خرجت أتابهى بالطرطور الملون وأحرك الشخولة فتصدر تروسها المعدنية صوتا عاليا، وددتُ أن أذهب إلى بيت عم رمزي لأعطي ماري لعبة مما أحضرته ولكني فضلت أن أنتظر حتى أصبح أمي يوم الخبز

وأعطيتها البالونة الحمراء التي أحضرتها خصيصا لها لكن اليوم لم ينقض على ما يرام فقد اغتاز مسعود بن سيد الجزار وخطف من على رأسي الطرطور، رمح وعندما لحقت به رفض أن يعطيني إياه فأوقعته على الأرض وسحبت الطرطور، عدت إلى البيت وأنا أبكي بسبب تمزق طرفه لكن أمي طيبت خاطري وأخذته مني وبقليل من الصمغ لصقت الورق الملون فعاد الطرطور كما هو ثم صحبتني إلى الجدة معزوزة وأخذت معي البالونة الحمراء ..

نفختها أمام ماري وربطت طرفها بالخيط، ظللنا ندفعها لأعلى ونجري خلفها، نتسابق في النط لنضربها مرة أخرى حتى فرقعت فجأة فضحكت على فزعي من صوت الفرقعة، أمسكت يدي وخرجنا من البيت وعند دكان مفيد اشترت بتعريفة ثلاث بالونات كبيرة أعطتني منها واحدة، وضعت الثانية في جيبها ثم نفخت الأخرى واستمر اللعب بها حتى انتهى عمل أمي عندهم وعدت إلى البيت متمنيا ألا ينتهي اليوم .

كي أتخلص من الحر والجو الخانق؛ صعدتُ إلى السطح فاردا ملاءة قديمة، تمددت والبالونة جوارِي، أتأمل كتل السحاب المارة في هدوء وأتخيل أشكالها على هيئة كائنات خرافية لا تلبث أن تلتصق ببعضها فأراها كبيرة مثل جمل عم علي أو صغيرة كنعجة أم وجيه التي لا تكف عن البكاء أو مثل كائنات كارتون سندباد الذي أعشق مشاهدته مع مقنع ..

يفيقني مواء القطط فأخاف أن أبيت بمفردي على السطح؛ الملمت الملاءة ونزلت ليستقبلني سريري الجريد فنمت وباللونة ماري الخضراء بين أحضاني ..

انتهت الإجازة سريعا وأبي كل يوم صحته تسوء، يأتي عم فنجري ليعطيه الحقنة وينصحه بعدم التدخين فيسمع أبي كلامه لكن ما إن يشعر بتحسُّن حتى أرى أصابعه المرتبكة تثبت الحجر وتتوهج الجمرات الصغيرة حين يسحب نفسا عميقا، أريد أن أمنعه لكنني أبتلع الاعتراض خوفا من نظراته الحادة، يسعل بشده فتهاز أمي رأسها وتزعق وهي تلعن الشيشة ومن اخترعها..

بدأ العام الدراسي من جديد، فوجئت بأولاد وبنات الفصل كما هم لم يتغير منهم أحد، عرفت أن ذلك سيستمر حتى سنة سادسة إن شاء الله، عدت أول يوم فلم أجد أحدا في البيت حتى الباب كان مغلقا بالضبة والمفتاح لكن جارتنا أم وجيه أدخلتني البيت وأعطتني رغيفا به فتافيت من الجبن، سألتُ عن أمي فأخبرتني أنها ذهبت مع أبي مشوار وراجعة بسرعة، بقيت أمام العتبة ساعة وأخرى أشاهد التلفزيون الأبيض والأسود يعرض فيلما لإسماعيل يس الذي أحبه فأخبر وجيه أنني أريد السفر إلى مصر لأقابل إسماعيل يس لكنه يضحك ويصدمني بحقيقة لم أكن أتوقعها ..

- إسماعيل يس مات من زمان يا غريب ..

لم أكن أتخيل أن إسماعيل يس الذي أعشق أفلامه وأقلد حركاته وكلامه مات فحزنت أشد الحزن بل ودون أن أشعر سالت الدموع من عيني وأنا أتابعه في فيلم ابن حميدو والشاويش عطية يقول له : صباحية مباركة يا ابن العبيطة ..

أراقب أم وجيه الجالسة أمام ماكينة الخياطة تدير عجلتها وهي تخطط الجلابيب الحريمي، تمضي وقتا تزر عينيها وهي تحاول أن تدخل الخيط في خُرْم الإبرة، بينما أبو وجيه الذي لم يعد يسمع مطلقا يجلس طوال الوقت صامتا وأراه يمط شفّيتية تارة وتارة أخرى يحدث نفسه ثم يعود للصمت ..
ينهشني القلق لتأخر أمي، ثقلت رأسي ومالت نحو الباب فأشارت لي أم وجيه ، ذهبت إليها فأرقدتني على وركها وطفقت تمر بالفلاية على شعري وألح بطرف عيني أناملها وهي تلتقط القمل وتقصعة بأظافرها، من بين رموشي المتشابكة أراها تدلف الشق وعم حربي الحلاق يسند أبي، انتترت واقفا، جريت نحوهم وعرفت أنها كانت في المستشفى لتكشف على أبي الذي يسعل بشدة حتى يكاد صدره ينخلع .

مرت الأيام وكل يوم ألاحظ طول رقاد أبي على السرير حتى صباح يوم السادس من أكتوبر الذي أنتظره، ذهبت إلى قهوة أبو شنب المقابلة للمدرسة وأنا ألبس شورت قصير وفانلة نصف كم، جلست لأحضر أفلام الحرب وأنا أتعجل العرض الذي يحضره الرئيس وكل من بالقهوة منشغلون في لعب الدومينو والطاولة أو تدخين الشيثة ولا أعلم لما حدثت في التلفزيون

فرايت السادات يرفع رأسه ليشاهد الطائرات الحربية في السماء وسمعت صوت إطلاق الرصاص وأفراد من الجنود والعساكر يجرون ثم انقطع الإرسال واختفى المشهد فجأة وساد الزعاق في القهوة وخارجها وسمعتهم يقولون :

- السادات انضرب .. ضربوا الرئيس، ضربه بالنار ..

أحد الأساتذة يضع رأسه بين يديه وهو يزعم :

- اغتالوا السادات .. اغتالوا السادات ..

ازدحم المطرح والكل يحرق في التلفزيون، خفت من زحمة القهوة وزق الأجساد الطويلة فقررت العودة إلى البيت وقبل أن أنزرق من وسط الجموع التي تكدست أمام التلفزيون ظهرت مذيعة تعلن إصابة الرئيس بطلقات من الرصاص، رحمت وكل من أقبله أخبره بأي رأي ضرب السادات حتى دخلت البيت ووقفت أمام أمي التي تعطي أبي الدواء، زعقت مكررا الكلمة التي قالها الأفندي :

- اغتالوا السادات .. قتلوا السادات

ضربت أمي صدرها بكفها وهزّ أبي رأسه غير مصدّق، ظن أنني أهدر ولكن أمي خرجت من البيت وعادت ووجهها أصفر وهي تؤكد الخبر الذي سمعته من الجيران، حاول أبي النهوض لاستطلاع الأمر بنفسه لكن قدميه خائتاه فجلس على السرير وهو يكح، انقضى النهار والناس تروح وتجي ولا سيرة إلا هذا الخبر، حزنت لأن أفلام المعارك لم تُعرض واستمرت تلاوة القرآن طوال اليوم حتى أقبل الليل والبلد لم تنم، الأصوات العالية تتناهى

لمسامعي من الشارع العمومي وأنا طوال الوقت أتباهى أمام أصحابي بأني كنت في القهوة ورأيتهم وهم يجرون ويطلقون النار على المنصة التي كان يجلس السادات في مقدمتها ومقنع يعلن عن ضيقه لأنه في تلك اللحظة أرسلته أمه لشراء أزرار فلم ير مشهد قتل السادات فيطلب مني أن أحكي ما رأيته بالتفصيل .

مرّ اليوم الحزين والإشاعات تنتشر عن قتلة الرئيس، واحد يقول أنهم من إسرائيل وآخر يقول أنهم من المتشددین وأسمع كلمات لا أفهم معناها حتى تمددت على سريري وتمنيت أن أكون جوار الرئيس وأدافع عنه أو أدفعه فيخترى بين الكرسي وينجو من بنادق المجرمين، نمت ومشهد المنصة لا يفارق خيالي ..

استيقظت في الصباح على صراخ أمي واندهشت أنها تصرخ على موت السادات اليوم بالرغم أنها لم تفعلها أمس لكن تجمع الجيران حولها ومحاولة تهدئتها وهي تلطم خديها أكد لي أنها تولول على أبي الذي رأيته جسمه ممددا على السرير ساكنا، استعجبت لموته مع أن عينيه مفتوحتان وينظر إلى سقف الغرفة لكن عم صدقان مرّ بكفه على عيني أبي وهو يردد الشهادة فأغلقها ..

تجمعت السيدات في البيت ورأيت خالتي رزقین تقبل صارخة وابنتها تعرج جوارها حتى جلست على الأرض وهي تهيل التراب على ناصيتها وبعد ساعة أتت خالتي حكيمة مع ابنها الأكبر وشاركتهم النحيب وهي تردد : كان بدري عليك يا أبو غريب ..

التصقت بالجدار وأنا أراقب رجال الحارة يخرجون أمني من البيت ويتناسون قعودي على السلم، رأيتهم وهم يُرقدون أبي على منضدة خشبية واطئة تناهي لمسامعي كلمة أحدهم وهو يأمر بأن يشتوا المغسلة ناحية القبلة، يخلعون ثيابه؛ أحاول الزعاق فيهم لأمنعهم لكن الصوت يحتبس في صدري، لا أحد يلتفت إليّ وهم يصبّون الماء على جسمه الساكن ثم يلبسونه الملابس البيضاء، يفتق عم شوقي كيسا ويرش شيئا يشبه نشارة الخشب لكن رائحته عطرة وآخر يسكب زجاجة عطر على جسد أبي الملفوف بالقماش، يضعونه في صندوق خشبي ويُغطي بملاءة خضراء، يحملونه على أكتافهم خارجين من البيت فيعلو صراخ أمني وخالتي وأختي نفيسة التي حضرت قبل خروج أبي بدقائق ..

اتجهوا إلى جامع السوق والمؤذن ينهي أذانه، صلوا عليه بعد الظهر ثم خرج النعش من الجامع إلى مقطورة جرار، ركب الجمع القليل ورفعني أحدهم إلى أعلى حتى جلست جوار الصندوق الراقد داخله أبي وأنتظر من حين لآخر أن ينهض من رقدته ويكلمني، تدور عيني بين وجوههم وأنا مغتاض مما يفعلونه بأبي وأتساءل في قرارة نفسي : لماذا لم يتركوه نائما على سريريه وأمني تسقيه الدواء ويقوم مرة أخرى لكن تذكرت كلمة - مات - ومعناها أن كل ما رأيته يجب أن يحدث بالإضافة إلى دفنه في الجبل الذي بدأت مناماته وقبوره تظهر من بعيد حتى وقف الجرار الذي يسحب المقطورة بجانب مدفن صغير جوار مقام الشيخ منصور .

نزلنا إلى حيث يشير عم صدقان وعملت الأيدي على إظهار فتحة المنامة التي عرفت بعدها أنها مقبرة الصدقة لدفن الفقراء؛ لأن أبي عاش طول عمره

لا مدفن خاص به يرقد فيه، نزل رجلان ودخلا فتحة صغيرة وبعد فترة ظهر وجه أحدهم وهو ينز عرقا وقال : هاتوا الأمانة ..

تعجبت من الرجل الذي يمسح عرقه بكم جلبابه الطويل من الأمانة التي يطلبها وعدت مرة أخرى أتساءل : أي أمانة يريد لها ؟ أليست هذه الغرفة الصغيرة سيقعد فيها أبي؟

لكن اندهاشي زال عندما رأيتهم يحملون الصندوق الكبير ويقربونه من الفتحة الضيقة، يتلقى أحدهم أبي للداخل ومن في الخلف يرددون : مع السلامة يا أبو غريب ..

عندها انخطف قلبي ودمعت عينايا؛ عرفت أن أبي سيعيش في هذه الغرفة تحت الأرض وبخاصة بعد أن خرج الرجال وتركوه وحيدا ورسوا قوالب الطوب على الفتحة وملطوها بالطين ثم ردموا الحفرة حتى غطوا الفتحة تماما بالتراب .

أمسك عم علي الجمال بكتفي فوقفت بينه وبين شوقي السماء، مثله مددت يدي للمعزين الذين بدأوا يسلمون علينا واحدا بعد الآخر مغمغمين بكلمات لم أتبين معناها حتى انتهى الصف القصير وعدنا إلى المقطورة، تحرك الجرار وعيني لم تفارق شجرة السنط التي تظلل قبر أبي حتى ابتعدت المقابر ومعها عشش وبيوت قرية عرب القداديج، عدنا وما إن دخلت البيت حتى ضجعت أُمي وأختي بالبكاء وحضنتني خالتي رزقين ولم أر خالتي حكيمة وقد قلت السيدات من البيت ولكن علي الجمال ناداني فجلستُ جواره على دكك للغزاء فيقبل الرجال مسلمين وأسمعهم يقولون :

- ربنا يصبركم ...

فيرد الواقفون ..

- شكر الله سعيكم ...

طوال الوقت أرددها والشيخ يوسف يقرأ القرآن ويين ربيع وآخر أسمعهم يتحدثون عن مقتل السادات ويضربون كفا بكف، حزنت وغضبت من كل الجالسين لأن أحدهم لم يتناول سيرة أبي صاحب تلك الجنازة بشيء .

انقضى النهار ومن حين لآخر يخرج عم صدقان بصينية الشاي من بيته فيقدمها إلى الجالسين القلائل من أهل الشق حتى أنهى الشيخ تلاوة آخر ربيع بعد العشاء وختم قراءته بالفاتحة التي أحفظها عن ظهر قلب، حاسب زوج أختي نفيسة الشيخ يوسف، عدتُ إلى البيت وأنا لا أصدق أني لن أرى أبي مرة أخرى، جاءت أختي نفيسة لي بالطعام فأكلت الرغيف بالجبن ونظرت إلى البيت الذي خلا إلا من أمي وخالتي رزقين وابنتها العرجاء وأختي، ذهبت إلى سرير أبي، أخذت الشيشة وعدت بها إلى سرير الجريدي، أنمتها جوارى، نظرتُ إلى ماسورتها و حجرها بحب، ضممتها إلى صدري، شممت أنفاس أبي من بقايا الاحتراق الملتصق بالحجر المتفحم، أغمضت عيني وغلبنى النوم بعد يوم لم ينمح من ذاكرتي حتى كتابة هذه الكلمات .

أخيرا فتحت المدرسة أبوابها بعد تأجيل دام أياما، أجلسُ في الفصل وقد ضاق صدري من سيرة موت السادات والأساتذة يتبادلون الآراء ويعيدون رواية مشاهد المنصّة، تلك الكلمة التي أصبحت على كل لسان وبعضهم يعيد مشهد الدفن فالتزمتُ الصمتَ، لاحظت ماري ما أنا فيه من حزن وهي الوحيدة التي تعرف أن أبي مات ودُفن قبل أن يدفن السادات ولا أحد يهتم به فكانت من حين لآخر تكلمني وتداعبني وفي الفسحة أعطتني قالب حلاوة طحينية صغير تمنعت أول الأمر ثم أخذته منها وحين عدتُ إلى البيت وجدت أمي التي لبست الجلباب الأسود قد فرشت كيس النايلون وكوّمت عليه الملح يجاوره قفص الحلوى ومن حين لآخر تأتيها الست معزوزة تحفف عنها ثم تنصرف حتى كان يوم في شتاء نصف العام أخبرت جدتي معزوزة أمي أن رمزي ابنها سيختن فرحان بعد عيد الميلاد وعرضت عليها أن تقطع لي معه فبكت أمي وترحمت على أبي ..

بعدها بيوم كان الطبل الكبير أمام بيت الأستاذ رمزي وذهبت أمي بي إلى هناك، ظللت طوال النهار أستمع إلى الطبل والمزمار اللذين أحبهما بشدة وأرقص أحيانا بجانب الطبال ومن حين لآخر أدخل غرفة الخبز عند أمي

التي تعطيني واحدة من البتاو الطري فأنثني لرائحتها الجميلة وأعود إلى
الطبل مرة أخرى .

قبل المغرب حضر حربي المزين فقلبت الجدة معزوزة الماجور وفرحان
الباكي يرفعه أبوه ويكشف فخذه والجدة معزوزة والسيدات من حولها
يرددن :

طاهرة يا مزين تحت السقيفة

واقطع له يا مزين قطعة قطيفة

يخرج المزين من جرابه الجلدي الصغير قلما كوبيا، يخط علامة دائرية
على الجلد الممتد الذي يسحبه ثم يضع كلابة؛ ارتجف قلبي لصراخ فرحان
ونزلت عيني فأرى المزين يزيل الجلد والدماء تنقط من حمامة فرحان الذي
سالت دموعه غزيرة وعلا صوته فقرّب أخوه وحيد الميكروفون من فمه
فارتفع صوته الصارخ حتى سمعه الشارع كله بينما انطلقت الزغاريد تهز
جدران البيت الكبير..

في سرعة لف المزين الجرح بالقطن وربطه، أخرج قنينة صغيرة ونقط
منها عدة قطرات وحمل عم رمزي ابنه والجميع يسمعون كلمات التهئة،
هنا أقبلت ماري وهي تبكي على أخيها، خجلت أن تراني مكانه فقررت أن
أتحرّر من قبضة أمي فلم أستطع الإفلات منها عندها ألبتني جدتي معزوزة
الجلباب الأبيض وسحبت أمي سروالي الصغير وأنا أتوقع الخطوة القادمة
فسيحملني أحدهم على الماجور لكنني انفلت من يدها، جريت تجاه البيت
فلحقت بي أمي ولم تلبث أن أمسكت بي، رفعني عم شوقي وفي سرعة كان
المزين حربي ينهي فعلته فشعرت بثقل عضوي بعد لفه بالقطن والشاش .

أعطت جدتي معزوزة أُمي كيس لحم وطبق به فول سوداني وُحْمَص،
حملني عم سيد الجزار إلى البيت، أنامني على السرير وهو يهنئ أُمي ويترحم
على روح أبي، بُتُّ والجرح يشتد ألمه من حين لآخر حتى هممتُ أن أنزع
القطن والشاش من حوله وطوال الليل أرى وجه ماري يضحك علي
فأغمضتُ عيني وأنا أعرض شفتي، ليلتها حلمت بأبي يمسح شعر رأسي
ويقول لي: كبرت يا غريب، وصيتك أملك والبيت ..

انقضت إجازة نصف العام، شعرت أنني أصبحت رجلاً، مرت أيام
الدراسة حتى يوم الأحد فخرجت مع فرحان وماري وجلسنا على عتبة
كنيسة مارفام نصنع القلوب والخواتم من سعف النخيل الأصفر وأعطيني
ماري قلباً كبيراً، قرب انتهاء اليوم أحضر فرحان من داخل الكنيسة رغيفاً
شمسياً صغيراً مرسوم عليه دائرة داخلها صليب صغير، قسّمتها ماري بيننا
فأكلنا ونحن فرحون بيومنا الربيعي الرائق، عدتُ إلى البيت، وضعت القلب
المضفور من سعف النخيل في الطاقة الصغيرة وما إن خرجت حتى وجدت
رجلاً يقعي أمام أُمي وهي تزن له نصف كيلو ملح، ربطت الكيس، مدت
يدها به فأمسكها؛ كسّرت أُمي بعد أن سحبت يدها بقوة، انتترت من
جلستها فنهض الرجل وهو يفتح فمه بضحكة صامتة ويهز رأسه لأُمي التي
رفعت أمامه عكاز أبي فألقى كيس الملح وتراجع؛ وددتُ لو أتبعه وأضر به
لكنني اكتفيت بشتمه فحضنتني أُمي ولملمت قفص الحلوى، سحبت كيس
الملح وأدخلته في البيت، أغلقت الباب وهي تخبرني أنها ستزور خالتي رزقين
لأنها متعبة ...

ظللنا سائرين حتى ظهرت قبة مقام الشيخ رمضان، عندما وصلنا إلى العُشة التي تسكن فيها خالتي كان الظلام غطى تلك البقعة النائية فدخلت أُمي على خالتي الممددة على حِرام قديم تجاورها ابنتها عفاف فنهضت خالتي من رقدتها وهي تربط رأسها بطرحة سوداء وأخبرت أُمي أنها ذهبت إلى المستشفى وأعطوها عدة زجاجات دواء وأقراص البرشام .

تضع خالتي برادا أسود على كانون صغير وأشعلت الحطب فيه، على الشاي وصبته لي ولأُمي، قدمت عفاف طبق به بعض القرص ولأنني لم أكن قد أكلت فتناولت قرصتين وعيناي تمسحان أركان العشة الصغيرة بما فيها من أقفاص فارغة وثلاثة بلاليص تربض آخر العشة، خطوت نحوها فكدت أتقيأ ما في جوفي لرائحتها النفاذة ..

أسمع صوتا ينادي على خالتي، تتحامل على نفسها وتفتح باب العشة، سيدة تتلفع بعباءة سوداء تمد يدها بطبق صغير و ورقة بخمسة قروش، من البلاص تخرج خالتي الجبن القديم والمش يتقطر منه تناول السيدة طبقها فهتّت أُمي أن نعود لكن دوي الرصاص أفزع خالتي وأُمي وعفاف التي التصقت بأُمها، من الباب الموارب أرى السيدة تهزول مبتعدة، فتغلق خالتي الباب الجريدي القديم، في وهن هزت خالتي رأسها وهي تردد أن عائلة عنتر وعائلة درويش قاموا على بعض ..

ساعة أخرى مضت استمر فيها إطلاق الرصاص حتى هدأ ومن حين لآخر ينطلق عيار فيرد عليه آخر فنهضت خالتي برغم مرضها وتأكدت من إغلاق باب العُشة، نصحتنا بالمبيت لكن أُمي اعترضت فأكدت لها أن

الشوارع فارغة من الناس وأي واحد يمشي ممكن أن يُصاب بعيار طائش
فرضيت أمي، هدأت الدنيا من حولنا فوقفت وحدّدت بين جريد العشة،
رأيت قبة مقام الشيخ رمضان العالية ودون أن ألتفت سألت عن الأكوام
الكثيرة التي تحيط بالمقام فجاء صوت عفاف من خلفي :

- كل الأكوام قبور للعيال الميتين المدفونين هنا ..

ارتجف قلبي لما سمعت والتفتُ إليها في حدة فرأيت على ضوء الشمعة
وجه بنت خالتي الشاحب الصغير بأنفها المستقيمة وفمها المستدير وقصرها
الملحوظ لشلل ساقها ..

- تعال يا غريب ..

جلست أمام العشاء الشحيح المكون من بتاو وخيار وفلفل وجبن قديم
ذي رائحة لم أستحبها أول الأمر لكنني أكلت مع أمي وخالتي وبتتها التي
أتعجب من اعوجاج ساقها، أراقب فوران الشاي من التنكة المفحومة، صبته
خالتي في أربعة أكواب صغيرة ومن بين صوت الرشقات المملوطة استمر
حكي خالتي رزقين مع أمي وحنقها على خالتي حكيمة المقاطعة لهما فطيت
أمي خاطرها بأن خالتي حكيمة مغلوبة على أمرها بسبب زوجها الشديد
الذي لا يحبنا، يخفت الكلام فتمددت أمي جوار خالتي وبقيت جالسا أمام
عفاف التي شعرت بعطف تجاهها وسألتها عن مدرستها فأخبرتني أنها لا
تذهب إلى المدرسة وأنها تساعد أمها في بيع القصب والخضروات والطماطم
أمام العشة ...

سكتُ لكن سيرة الأولاد المدفونين هنا هاجتني، سألتها عنهم فأخبرتني أن المولود إذا مات يدفنه أهله هنا .. نظرت إلى أُمِّي فوجدتها في سابع نومة أما خالتي فقد علا غطيظها فتمددت على طرف الحرام ولم تلبث عفاف أن ركنت عكازها وتمددت جانبي وما إن أغمض عيني حتى أفتحها في سرعة للمواء المختلط بنباح الكلاب خارج الخصر، لحظت عفاف التماع الدموع في عيني فربتت على كتفي وهي تخبرني أنها عفاريت العيال تطلع كل ليلة لتلعب وهي تقلد أصوات القطط والكلاب ثم تنصرف فدق قلبي بقوة حتى كاد يقفز من بين ضلوعي، هممت أن أهزّ أُمِّي لتصحو ونعود لبيتنا القوي المبني بالقوالب والمسقوف بعروق الخشب والجريد لا تلك العُشة التي يمكن أن يدخلها أي إنسان ويحيط بها عفاريت العيال الميتين ..

لمحت عفاف دموعي التي لم أستطع منعها فاقتربت مني وأحاطت كتفي بذراعها ولا مست جبينها رأسي فشعرت بأنفاسها الساخنة على وجهي ثم ألصقت شفيتها بشفتي وضممتني أكثر وأنا مستسلم لما تفعل وعندما أحست بحركة أمها تتقلب وهي نائمة ابتعدت في هدوء وهي تهمس ..

- أحبك يا سونة ..

رنّ الاسم في أذني ورددته في دهشة ..

- سونة ؟

- هند رستم قالته لعمر الشريف في الفيلم ..

تململت في رقدي ونهضت سائلا عن الحما، تلبّسني رعبٌ عندما أخبرتني أنه خارج الخصر فتمددت مرة أخرى محتملا ألم ماثلي عن الخروج وسط

أسنام القبور المتناثرة التي تلعب العفاريت حولها، نامت عفاف وظللت
أتقلب على جنبي، نهضت قاعداً، من بين أعواد العشة أدقق النظر فسقط قلبي
بين ضلوعي للسيدة الملفوفة بشئقة سوداء وتسير في بطء وعلى رأسها قفة،
هممت بالبكاء لكن ابتعادها عن العشة طمأن قلبي، ظلت عيناى تودعانا
حتى ابتلعها الظلام فتقلبت على جنبي وما أكاد أغفو حتى أحلم بأم قفة
وهي تمد يدها وتسحبني من بين الأعواد لتخبئني داخل قفتها، مضى وقت
طويل حتى غلبني النوم وصحوت على صوت أمي ويدها تهزني، أسمعها
تعتذر لخالتي عن الإفطار لأنها قلقة على البيت، خرجنا من العشة والشمس
لم تشرق بعد فانتحيت جانبا وشمرت الجلباب فاندفع الماء المحبوس على
الأرض ليصنع بحيرته الصغيرة؛ شعرت براحة ما بعدها راحة وحمدت الله
أني لم أفعلها وأنا نائم وإلا لانصبّ علي غضب أمي، انتظرت أمي حتى أنتهي
ثم أمسكت يدها ..

غير عشة خالتي رزقين عددتُ سبع عشش أخرى متناثرة حول مقام
الشيخ رمضان فسلمت على خالتي وقبل أن تغادر المطرح ابتسمت لعفاف
وقلت لها :

- سلام يا هند رستم ..

غمزت عفاف بعينها وهي تضحك، بسرعة عدنا إلى البيت ولم أستطع أن
أذهب إلى المدرسة ولم تهتم أمي بذلك فانشغلت بفرش القفص وتسوية كوم
الملح واستكانت في جلستها كالمعتاد .

أقفُ وسط صف طويل من الأولاد أمام الفرن البلدي، أرقب الخبّاز وهو يضع أقراص العجين المستديرة على المطرحة الطويلة ثم يدفعها في الفرن، أفرح لانتفاخ الأرغفة التي يسحبها الفرّان في سرعة، أظل مكاني وما إن يقترب دوري حتى يقتحم رجل أمامي وأنا أزعم فيه بأنه دوري فيلتفت إليّ ويلطمني على خدي؛ أبكي من القهر الذي شعرت به ومينا بشاي الواقف خلفي يربت على كتفي ويقول في صوت خافت أن دورنا قرّب لكن نفسي أبت إلا أن تأخذ بثأرها فشكّرت جلاباب الرجل بسيخ حديدي معقوف حتى إذا ما حمل قفص الخبز وهمّ أن يمشي تمزّق جلابابه ووقعت أرغفته على الأرض فانحنى يلتقطها ويعاين جلابابه المفتوق، ابتعد وهو يسب ويلعن الفرن وأصحاب الفرن، راقبته والفرحة تغمرني للانتقام من هذا الظالم الذي أخذ دوري ثم مددت القفص وأخذت الأرغفة، انتظرت مينا وسرنا متجاوزين حتى فم الشق فانحرف بقفص الخبز نحو دكان أبيه ودخلت الشق لكن الشارع الضيق يسده جمل علي الجمال الذي يحمل أطنان البوص على ظهره وما إن رآني ابنه حسين حتى ضحك من خوفي وحجز بيني وبين الجمل فجريت وحمدت الله أن قفص الخبز لم يقع مني، دخلت البيت لاهثا

فتضع أُمي يدها على رأسي الساخنة، تمسح على شعري، تغسل وجهي بماء الزير البارد، أجلس جوارها لتتناول الغذاء ..

تنهض أُمي، تفتح كيسا كبيرا وتخرج منه بنطلونين وقميصا وفانلة ملونة بنصف كم، تفردهم أمامي وهي تقول ..

- قسهم يا غريب ..

أرتدي الواحد تلو الآخر وهي تلاحظ القطعة التي على مقاسي والأخرى التي تحتاج إلى تضيق أو توسيع وفي النهاية ابتسمت لي وهي تقول :

- ستنك حلوة يا غريب، لازم تذاكر لأنك داخل القبول ..

- أنا في سادسة ؟!؟

- القبول يعني سادسة ..

أساعدها في رصّ علب البسكوت والكبريت والحلوى على المنضدة العريضة وعلى الجانب الآخر منها علب الرابسو والصابون، بهاون نحاسي تنهمك أُمي في دق فصوص الملح الكبيرة، أجلس جانبها وألحظ الشعيرات البيضاء التي تسحّبت وسط السوداء، طوال قعدتي أما البيت أنشغل في صنع أراجوز مثل بقلظ مع ماما نجوى في البرنامج الذي أشاهده باستمرار في تليفزيون أم وجيه، أضع يدي في جوف جلبابه القصير وأحرك رأسه وأقلد بقلظ وأُمي تضحك على لعبتي التي صنعتها بنفسني حتى أقبلت علينا ماري مع أخيها فرحان فأقف مسلما عليهما، تخبر أُمي أن جدتها معزوزة تريدها الآن فهضت من فورها وأعادت تغطية شعرها بتلفيعة سوداء، سارت معها وأنا أراقب ظهر ماري العريض وضميرتها الصفراء المربوطة بفيونكة حمراء حتى ابتعدوا وغابوا عن عيني وآخر النهار عادت أُمي وقد بدا عليها التعب .

فردت أمامي كيسا وأخرجت منه قرصا من المشلت فأكلت في نهم واستطعمت السمن البلدي الذي ينز من قلب الفطير وما إن أدخل المنضدة إلى البيت حتى تقبل خالتي رزقين معها صرة كبيرة وتحمل على رأسها المواعين وعفاف ابنتها برغم العكازين والجهاز الذي تلبسه في ساقها المشلولة إلا أنها تحمل هي الأخرى لفة كبيرة ودهشت أُمي لحضورهما المفاجئ فأدخلت خالتي وبنتها البيت وأغلقت الباب .

بكت خالتي وهي تخبر أُمي أن مجلس المدينة قرر رصف الطريق وأمر بإخلاء العشش التي أمام مقام الشيخ رمضان بل وهدّ عشتها بعد أن عزلت منها مباشرة فضربت أُمي كفا بكف وهي تطيب خاطر خالتي التي علا صوتها بالدعاء على زوجها الذي تركهم وهرب بعد أن باع البيت الذي كان يلهمهم لكن أُمي أكدت لها أن بيتنا هو بيتهم وشرعنا في ترتيب الإقامة الدائمة معنا ..

يقبل سوق يوم الخميس فتشتري خالتي ثلاثة بلايص وماجور كبير مملوء بالجبن الجديد وتشرع في تعتيقه كما كانت تفعل في عشتها، تضايقت أول الأمر من سكنهما معنا في بيتنا الضيق ولكن انقلب هذا الضيق راحة لوجود عفاف التي تجلس على كرسي طوال الوقت أمام منضدة البضاعة وأتركها لألعب مع الأولاد بالكرة الشراب أول الشق ..

مرت الأيام المتبقية من إجازة الصيف حتى كانت ساعة عصر شعرت بحرارة الجو، قررت أن أملاً صفيحة ماء وأدلقها دفعة واحدة على جسمي، ثبت الصفيحة أسفل الحنفية الواطئة، أفتحها عن آخرها فلم أظفر إلا

بصوت الهواء الخارج منها، أتلقت حولي، أرفع غطاء الزير الخشبي المكون خلف الباب، القعب ينزح ما تبقى من مياه في القعر العميق، قبل أن أسأل تخبرني أمي أن المياه مقطوعة من البلد كلها، تعطيني ماعون نظيف وتطلب مني أن أذهب به إلى أم كيرلس أول الشق، عندما يراني عم بشاي يخرج من أمام النول الكبير، يفتح الباب فتقودني الخالة رقيقة إلى حوش البيت، من برميل كبير تملأ الماعون، تغطيه جيداً فأحمله على رأسي عائداً به إلى البيت، تتناول خالتي فتأخذ منه لجلي الشاي أو تزويد الطبخ، أمي تقول :

- رقيقة طول عمرها ناصحة وتخزن في براميل كبيرة ..

أعجبت بتصرف خالتي رقيقة وتمنيت لو كانت أمي خزنت الماء مثلها لما شعرنا بمشكلة، انقضى النهار بطوله بلا ماء حتى انتابني الضيق وأخيراً تبدأ الحنفية تنقط ثم تسيل المياه ضعيفة وعند منتصف الليل تنزل غزيرة فاستحم في سرعة وتملأ أمي وخالتي وعفاف كل مواعين البيت تحسباً لانقطاع الماء في الغد ..

قبل أسبوع من بدء الدراسة صرخة تشق سكون الليل فانتشرت أمي وخالتي في وقت واحد، خرجتا من البيت، الصراخ من بين أم وجيه، دخلت خلفهما البيت ففزعت لعم صدقان الممدد على سريره فتوهجت فجأة صورة أبي في نفس موقفه، انخلع قلبي للرجل الطويل الذي همدت حركته حتى أقبل أهل الشق ويمضي الوقت فيغلق الباب بعد إخراج أم وجيه الملتاعة على موت زوجها ولكني لم أطق أن أشاهد تغسيل عم صدقان فخرجت من البيت، ظللت أمام بيتي حتى خرج النعش تتبعه نسوة الشق النائحات،

ركبت المقطورة جوار مقنع الباكي ومن حين لآخر أربت على كتفه، ما إن مرّ
الجرّار بين قبور عرب القداديح حتى لحظت شجرة السنط المائلة، قفزت على
الفور مسرعا نحو منامة الصدقة وقرأت الفاتحة عل روح أبي وأنا أتخيل ما
حدث له طوال تلك السنوات الفائتة، تمنيت أن أفتح الباب وأرى أبي وأدت
بي الظنون أني سأراه جالسا جوار الجدار أو متكئا على ذراعه لكن الحقيقة
التي عرفتھا من أحد المعلمين يوما أن جسم الإنسان يتحلل بمجرد موته
ويمسي عظاما ينخرھا السوس، طردت هذا الخاطر من تفكيري، ظللت
دقائق سارحا حتى سمعت صوتا يقول : آمين فالتفت فإذا بعم شوقي
الساك يربت على كتفي ويجري نحو منامة عائلة صدقان فأقف جوار مقنع
لتلقي العزاء ..

• • •

شاركت أُمي وخالتي أم وجيه حزنها وبدوري قدمت صينية الشاي على
الجالسين في سرادق العزاء خارج الشق، مرت الأيام ومثل أُمي ارتدت أم
وجيه الجلباب الأسود، انشغل وقتها في حياكة جلابيب السيدات ومن حين
لآخر أراها ساهمة وهي تتأمل صورة عم صدقان الكبيرة أعلى الجدار أما أنا
فلم أفارق مقنع طوال الوقت حتى كان أول يوم في الدراسة أمرنا مدرس
اللغة العربية أن نكتب التاريخين الهجري والميلادي وكتبنا رأس موضوع
تعبير عن ذكريات الإجازة الصيفية وبداية العام الدراسي الجديد، طلب منا
أن نكتبه في البيت على أن يراه في الأسبوع القادم ..

عدتُ بعد انتهاء اليوم الدراسي بحصص الحساب والتاريخ والجغرافيا
والعربي فلم أجد أُمي أو خالتي وأخبرتني عفاف أنها في مشوار، وضعت

أمامي طبق الفول، جلست تأكل معي وتسالني عن المدرسة فسرحت بصري إلى الأمام وأنا لا أعرف ما الذي أكتبه من ذكريات في موضوع التعبير الذي طلبه الأستاذ ...

هل أكتب له أنني طوال الوقت أساعدُ أُمي في بيع الملح والحلوى أو أكتب أنني أعيش مع خالتي وبناتها التي أتشاجر معها معظم الوقت وأصفها بالغباء وهي تتحمل تلك السخافات وإهاناتي اليومية لأنه ليس لها ولا لأُمها بيت آخر لهما أو أقول له أنني أسرح مع أُمي في مواسم مولد الشيخ حسن وأحمد الطوابي بالفول السوداني واللب والحمص ولكني أمسكت القلم، شعرت بشيء داخلي يرج رأسني ويدفعني، سرحت بخيالي وظللت أكتب حتى ملأت صفحتين ..

الأستاذ جمال له طريقة طريفة في حصة التعبير وهي أن نقرأ ما نكتبه أمام بعضنا في الفصل ثم يعلق على كل موضوع بل ويسمح لنا أن نبدي الرأي فيما كتب زملاؤنا، سألت مقنن لكنه اعتذر عن كتابة الموضوع ووعد أن يأتي به فيما بعد، وجاء دوري وقرأت ما كتبت عن ذكريات إجازة الصيف في ممارسة الرياضة والقراءة والذهاب إلى المصيف ثم الاستعداد للعام الجديد من شراء الملابس الجديدة والأدوات ومقابلة أصحابنا أول يوم بالأحضان وما إن انتهيت من قراءة موضوعي الطويل حتى صفق لي زملائي وأثنى الأستاذ على الموضوع وعند خروجنا من المدرسة مالت ماري نحوي وقالت لي وهي تهذر :

- سافرت إلى الإسكندرية وسبحت في البحر يا كذاب، على العموم الكذاب في النار ..

ابتسمت وأنا أسير جوارها وأتأمل قامتها الطويلة التي أصبحت أطول مني، طوال الطريق أقترب منها ومن حين لآخر يلامس كتفي كتفها حتى تجرأت وحاولت أن أضع يدي على ظهرها فابتعدت وهي تبتسم وعند أول دوران قابلها ابن عمها الذي يكبرنا بعامين فتركتني بسرعة وسلمت عليه، سارت معه وأصابهما متشابكة فقطع قلبي وعدت إلى البيت حزينا؛ لم أتناول كسرة خبز مما وضعته أمامي عفاف التي ابتسمت وسألتني عن سبب غضبي فهممت أن أزق فيها لكنني سكنت ونظرت إلى وجهها الطويل .. لمت نفسي أنني وبرغم اجتهادها في إرضائي لم أعط لها ريقا حلوا، تماكنت نفسي وابتسمت لها وبدأنا نأكل معا ..

• • •

حان موسم مولد الشيخ حسن فتركت أمي خالتي رزقين في البيت لرعاية ما على المنضدة وبيع الملح واصطحبني لنبيع الفول والحمص والحلوى في أرض المولد القريبة من مقام وجامع الشيخ حسن، نصبنا خيمة صغيرة جوار بائع بسوسة ويوما قرب المغرب اشترى شاب كيس سوداني وأعطى أمي جنيها فهممت أن تعطيه الباقي لكنه وضع يده على كتفها وهو يضحك فأبعدت أمي يده في عنف وألقت الجنيه في وجهه، سحبت كيس الفول لكنه ترك الجنيه على الأرض وغمز بعينه وسمعته يقول :

- في الليل لما الدنيا تهدأ وولدك ينام ..

يتركنا فأغافل أمي وأضع الجنيه في جيبتي، بغيط أرمق ظهره المبتعد وأنوي الانتقام منه لتعديده على أمي التي توقف كل من يحاول معاكستها ..

في خيّة أربط الفلق الصغير أعلى عامود النور بحيث إذا سحبت الحبل اللين الطويل يقع على الواقف تحته وانتظرت حتى أنهى الناس صلاة العشاء وخرجوا من جامع الشيخ حسن عندها بدأ عرض التياترو فتسللت من جوار أمي، دخلت الخيمة الكبيرة التي تزدهم بالمتفرجين من الشباب والرجال الذين لا همّ لهم سوى الصياح والرقص والمسح على شواربهم الطويلة ..

دقت الدربكّة وما إن خرجت الراقصة شلبية حتى ضج المطرح المعبق بأدخنة غريبة بالتصفيق وأصوات التشجيع وشلبية بجسمها المائل للسمنة وجلباها الوردي الفاقع تتلوى كالحية وهي تتحرّج بشالٍ أخضر، رأيت الشاب الذي عاكس أمي يصعد المسرح ويرقص مع الغازية وهو يتطوّح بالعصا الغليظة، نزل بعد أن بعثر على رأسها عدة جنيهاً، انتهت الرقصة وعلت الأصوات تطلبها مرة أخرى، خفتُ أن تستأخرنني أمي فعدت إليها سريعاً ..

ظللنا نبيع حتى أوشكت الأكياس أن تفرغ قرب الساعة الواحدة للممت أمي بقية الأكياس والميزان الصغير وهممنا أن نعود إلى البيت، أعطتني كيس فول وطلبت مني أن أذهب به إلى الخالة بهية بائعة البليلة كأجرها لطبقين بليلة بالعسل أكلتهما أنا وأمي .

وأنا عائداً يتناهى لمسامعي صوتُ أنينٍ خافت ينبعث من الغرفة القماشية خلف التياترو المظلم، يدفعني الفضول إلى هناك، اقتربت، دقت النظر في فتق بين القماش السميك وعلى ضوء المصباح الباهت أرى شلبية تنحني على

ولد ممدد وهي تقرب من فمه زجاجة دواء وما إن تفرد قامتها حتى تفحصت وجه الراقصة التي تخطت الأربعين بسنوات ولفت نظري الوشم الزاهي أسفل ذقنها المدبب وكأنه مرسوم لتوه، مرة أخرى تنحني نحوه وتفرد كفها على جبين الولد، صوت ينبعث من الباب فأرى نفس الشاب يدخل غرفة شلبية وهو يرم شاربه ..

في جراحة يخطو نحوها، يقف قبالتها، يحاول أن يضمها لكنها تبعده مشيرة إلى ولدها الراقد على الأرض، يعيد المحاولة فيميل الصبي المريض رأسه نحو أمه، يعلو صوته بالبكاء فتبعد شلبية ذلك الخبيث في عنف وأراها تحضن ولدها مستحسنة بجسمه الضئيل حتى همّ هذا الفاجر بالخروج من الغرفة فتراجعت مبتعدة، جريت حتى وقفت لاهثاً أمام أمي التي صوبت نحوني نظرات العتاب لتأخري ...

سألته عن عدم عودتنا إلى البيت فأخبرتني أنها تنتظر عم مبروك ليحمل كيس البضاعة والميزان على حماره، استطال الوقت ولم يأت مبروك فسألته عن ابن شلبية فأجابتنني أنه وحيدها وعبيط و دائماً مريض؛ انقبض قلبي لمعرفتي بحالة شلبية المؤسفة وأدركت سر حزن عينيها برغم أنها ترقص لتسعد الجميع وازدادت كراهيتي لذلك الطائش الذي لم يعتق واحدة في المولد ويستهن بطفل مريض يريد بكل وضاعة أن يحضن أمه أمام عيني ..

يئست أمي من وصول مبروك وحماره فهتّت بحمل الكيس على رأسها لكن قدوم أبو الشنب المبروم الذي رأيته في حجرة شلبية يجعلها تقف غاضبة، يقترب من أمي، يمد يده بجنيه آخر، يغمز لها وهو يقول :

- البيت فاضي الليلة ..

اجتاحني الغضب من هذا السفیه الذی یفرض نفسه علینا، تمنیت أن یتزحزح قلیلاً حتی یقف أسفل الفلق وكأن الله استجاب فخطا خطوة ولم أتردد فأمسکت بطرف الحبل وشدته فی قوة؛ یقع الفلق على رأسه فیطلق صرخة ألم حتی أثار انتباه الباعة وباقي زوار المولد من حولنا، یضع یده على رأسه، یفرد کفه ویحدق فی الدم النازف الذی سال على جلبابه، یسحبه رجل آخر وهو یأمره بالذهاب إلى المستشفی فیستدیر وهو یسب ویلعن مبتعداً معه .

تضع أمی الساکتة طوال الوقت یدها على کتفی وأسمعها تصب اللعنات علیه، برغم تعبها إلا أنها تحاملت على نفسها وساعدتها فی رفع المیزان على رأسها، قبل مغادرتنا المطرح، انحنیت فالتقطت الجنيه الآخر الذی انفلت من ید الشاب قلیل الأدب ووضعتہ جوار صاحبه، فی قوة حملت الكیس وعدنا إلى البیت وأنا أشعر بالانتصار على ذلك المعتوه وبلاستیلاء على جنیهین عزمتم أن أزید بهما بضاعة أمی، أسیر جوارها والبلدة تتدثر بعباءة اللیل الصامت حتی مررنا أمام بیت ماری فتمنیت أن تلقی لی نظرة من شرفتها لكن البیت الساکن ودعنا ونحن ندلف الشق المظلم، تستقبلنا خالتي بالعشاء وبعده سمعت أمی تؤكد أنها لن تذهب إلى الموالد مرة أخرى ویکفی البیع هنا فی البیت حتی ألترم أنا فی المدرسة التي تغیبت عنها أكثر من أسبوع وفاتنی الكثير من الدروس .

الصباح كان الجمعة، جلست على عتبة بيت أم وجيه، قدمت لي جارتنا الطيبة طبق بليلة بالعسل، جواري جلس مقنع وأقبل مينا بشاي علينا فجاءت له خالتي بنصيبة من البليلة، أكلنا ونحن نشاهد برنامج سينا الأطفال يعرض فيلما عن أولاد في مثل سني في غابة ينصبون خيمة بين الأشجار ويعتمدون على أنفسهم في الحياة، تمنيت أن أكون معهم، أعيش حياتي منطلقا بلا قيود، بعيدا عن أمي وخالتي وبنيتها واعتمادهم علي في كل شيء، توقفت عن أكل البليلة والضيق ينهش روحي المسجونة، تابعت الفيلم حتى أنهت ماما عفاف الهلاوي البرنامج بفيلم كارتون لعائلة الدبة، أكملت إفطاري وأنا أردد الأغنية : سينا الأطفال سنيا، فيها حقيقة وفيها خيال ..

ترص أمي البضاعة على المنضدة وخالتي تكنس أمام البيت، من ميكروفون جامع السوق علا صوت قرآن الجمعة فاستحييت واستعديت للصلاة في جامع السوق، ابتسمت لي عفاف وهي تقول :

- صل يا غريب ودعواتك لنا ..

ابتسمت لها وذهبت إلى الجامع والإمام يخطب في حماسة، جلستُ جوار رجل أسمر، كدتُ أضحك لوجهه الذي يشبه السحلية لكن لمت نفسي

لدموعه التي ذرفت عند دعاء الإمام في نهاية الخطبة وتعجبت لأسنانه
شديدة الصفرة التي انكشفت وهو يردد : آمين ..

بعد خروجنا من الجامع عدتُ إلى البيت، جلست جوار عفاف أمام
منضدة البضاعة، سألتها عن أمي وأمها فأخبرتني أنها في غرفة الفرن تخبزان،
يقبل عليّ الرجل السحلية الذي رأيته في الجامع؛ يسأل عن أمي فأخبرته أنها
غير موجودة فيأخذ علبة كبيرت والمحه من بعيد يقعي أمام المزين حربي أول
الشق .

تتحامل عفاف على عكازيها، تصعد السلالم حتى السطح، أطلُّ أبيع إلى
قرب المغرب فتتزل أمي وخالتي وبين أيديهما مشنة كبيرة وخلفهما عفاف
تسير متمايلة حتى تجلس على الحصير، تمد أمي يدها بكوز وربيع جنيه؛ تطلب
أن أشتري عسلا أسود من علام البقال حتى نتعشى .

حين تناهى لمسامعي صوت موسيقى برنامج عالم البحار وقفت أمام باب
أم وجيه المفتوح دائما، أشاهد مقدّم البرنامج بلحيته البيضاء وصوته العميق
وأنظر عرض فيلمه القصير لكن صوت أمي ينهرني فجريت مبتعدا إلى
أن خرجت من الشق وأنا معتاظ من حلقة البرنامج الجميل التي ستفوتني
وأنظرها كل أسبوع ..

أقربُ من محل البقالة فأرى السحلية يتكئ على بنك الدكان لكن هذه
المرّة رأيته جيدا بقامته المتوسطة وجليبابه ضيق الأكمام يلبس عليه جاكيت بذلة
قديم ويلف رأسه بشملة كلحت فانمحي أي أثر للونها الأصلي، أصابعه
تحرك حبات السُّبحة باستمرار ..

مددت يدي بالكوز، ظللتُ أرقب عم علام وهو يصفّي العسل من
البلاص الكبير وقبل أن يزن يمد زجاجة مغلقة للسحلية وهو يقول له :

- امسك يا مخيمر، السيرتو بخمسين قرشا ..

- أحمر؟

- لا، أبيض ..

- على العموم، السيرتو الأبيض ينفع في اليوم الأسود ..

بأسنانه يسحب مخيمر السحلية الغطاء، يرفع الزجاجة ويشرب السائل
الذي شممت رائحته النفاذة، يظهر انقباض على قسّات وجهه ثم ينتشي
بعدها، تتسع ابتسامته ويغلق الزجاجة، يضعها داخل جيب الجلّباب، يدخل
سجّارة وينفث دخانها في وجهي وما تزال أصابعه تحرك حبات المسبّحة في
سرعة وأنا أتعجب من خشوعه وبكائه في الصلاة وشربه للسيرتو الذي
أعرف أنه يمسح المخ كما قال لنا يوما مدرس العلوم ..

يرتفع فجأة صياح من بيت مهاود العتّال المقابل لدكان البقال، تتبادل
زوجته التي تسكن بأعلى الشّتائم مع أخته التي تسكن بالأسفل وبغلة
مهاود أمام العربة الكارو تحمحم بصوت ممطوط عندها زعق مهاود فيهما
فانسحبت زوجته من أمام الشباك ودخلت أخته البيت وأغلقت الباب ولا
تزال أصوات زعاقهما يعلو مختلطا بصوت البغلة، يقبل مهاود على محل البقالة
؛ يطلب علبة سجائر يسحب إحداها ويشعلها في عصبية، ينفث الدخان في
غضب وهو يوجه كلامه للسحلية :

- ادع يا شيخ مخيمر ربنا يهدئ النفوس ..

يفتح نخيمر السحلية عينيه الحمرابين وتفتّر شفتاه عن ابتسامة ساخرة،
يميل على مهاود فأسمعه يتكلم بصوته الذي يسحبه من جوف بئر :
- البغلة محتاجة بغل يا مهاود، هات لها بغل تهدأ على طوووول ..
يهز مهاود رأسه وهو يواصل سحب الدخان ..
- أقول له ادع ربنا يهدئ نفس أم العيال وأختي يقول لي بغل وبغلة، الله
يلعنك ويلعن الخمرة..
- اسمع الكلام يا مهاود ... زوّج البغلة واخلص ... و ..
يقاطعه علام وهو يمد لي كوز العسل ..
- ارجع لأمك يا غريب يا ولدي ولا تسمع كلام المساطيل ..
أمسك الكوز المغطى بورقة من كتاب وأبتعد عن الدكان، قبل أن أدخل
الشق رأيتها تقعي على جانب الشارع العمومي أمامها القفة، لأول وهلة
خفق قلبي لكنني تماسكت مقررا المغامرة والاقتراب منها متناسيا تحذير أم
وجيه الذي رن صداه البعيد في ذاكرتي، أكدت لنفسي أنني كبرت وأستطيع
أن أواجهها، أحلق في القفة فألمح يدها السوداء المعروقة تنش الذباب الحائم
حول أقدام العسل، رأني أحرق نحوها فالتقطت قمعا حوافه مهتمة وقدمته
لي، أخذته منها، في رفق وضعته في جيبي، أخرجت لها خمسة قروش فأخذتها
وهي تدعولي بالصحة والسلامة وطول العمر، أبتسم ساخرا من نفسي التي
خافت من سيده طيبة تقنع برزقها القليل من بيع أقدام العسل، ابتعدت
وروحي تودع الخوف من حكايات أم وجهه القديمة .
دخلت الشق لكنني انزعجت للجمل المبارك بطول الشارع الضيق وجارنا

علي الجمال هو ورفاقه كالعادة يحملون أطنان البوص إلى داخل البيت وما إن رأي عم علي حتى وقف أمام رقبة جملة الكبيرة وابتسم لي إشارة أن أسير فتقدمت وظهري يلامس الجدار حتى تخطيت الجمل المكمم فمه بشبكة من حبال الليف الرفيعة والزبد يتساقط من بين مشفرية الكبيرين، أسرعت عائداً إلى البيت فصبت أمي كلمات اللوم لتأخري، سحبت العلبة بعصبية وسكبت العسل في الصحن، تحلقنا نتعشى بالبتا والطري وأنا أفكر في كل كلمة قالها مخيمر السحلية وعندما ذكرت اسمه أمام أمي تغير وجهها وأمرتني في عنف بالأقف في مكان يقف فيه لأنه رجل شعنون سكير وسيرته وسخة... أنهينا العشاء، تمددت على سريري ونامت أمي كعادتها على الأرض أما خالتي فقد احتلت هي وابتتها عفاف ركن أبي .

مرّ الوقت بطيئاً وفجأة نهضتُ منتتراً، هممتُ أن أخرج من البيت إلى استوديو التصوير لأحضر صور استمارة التقديم لامتحان الصف السادس الابتدائي كما أمر رائد الفصل، حمدتُ الله أني تذكرت ذلك ودعوته أن يكون الاستوديو مفتوحاً إلى هذه الساعة، أوقفني صوت عفاف السائل وهي تجلس على حافة السرير الخشبي فأخبرتها في سرعة بمشواري الذي يجب أن أقضيه الآن، خرجتُ من البيت، علي الجمال أنهى إدخال البوص، أسرعت دون أن ألقي تحية المساء على أم حسين زوجة الجمال التي تكنس الشارع، جريت نحو الاستوديو فرقص قلبي لأنواره المضاءة، طلبت الصور فأخرجها المصور مع كارت كبير هدية، أخذتهم والفرحة تغمر صدري للصور التي أول مرة تلتقط لي في حياتي .

مشيت في الشارع على مهل وأنا أراقب الدكاكين المغلقة معظمها حتى وصلت إلى دكان علام البقال فتذكرت حوار مخيمر السحلية، وددت أن أخالف أمي وأراه مرة أخرى وأستمع لكلامه الغامض ، ألتفتُ إلى بيت مهاود فأجده يتمدد على العربة الكارو أمام الباب وشخيره الممطوط يعلو من حين لآخر، جواره البغلة مستلقية في استكانة، لمحت الباب يُفتح وعينان تمسحان الشارع ثم رأيت مخيمر يخرج من البيت تسبقه عصاه السوداء وفي هدوء يُغلق خلفه الباب، يقترب مني فأبتعد قليلا لكنه يسير جوارى وهو يمسح شاربه الرفيع ويتحدّث ساهما :

- البغلة سكنت ولا صوت لها؛ أصلي دخلت عليها الليلة ..

أقف برهة فيخرج زجاجته ويترع ما تبقى فيها مرة واحدة، بكم جلبابه يمسح فمه، يمسك يدي ويهم أن يكلمني، خفت منه وجريت من أمامه حتى وصلت البيت فأفتح الباب وأغلقه في سرعة، أستلقي وأنا أحضن صور التقديم ولا يزال كلام السحلية السخيف يرن في أذني .

• • •

كما أوصاني الأستاذ رمزي أنصتُ للمدرس الذي يقوم بإملاء بيانات استمارة التقديم فأكتب الاسم وتاريخ الميلاد والمدرسة ومع ذلك فقد زعق في المدرس الآخر وهو يمر علينا مشيرا إلى خطأ ارتكبته حيث كتبت أمام المحافظة : أنبوب بدلا من أسبوط فدمعت عيناى وارتعشت أصابعى تاركا القلم لكن الأستاذ جمال ربّت على كتفى وعدّل الخطأ وطلب منى الاستمرار في كتابة البيانات فأكملت ولم أكرر أي خطأ آخر إلى أن أنهيت مع باقى الفصل بيانات الاستمارة ..

لم تهتم أمي بترقب نتيجة امتحان القبول مثلما كانت تسأل أم ماري والتي عرفت من فرحان أنها في غاية القلق لحرصها على أن تكون ابنتها من الأوائل حتى ظهرت النتيجة في المدرسة ومع أني حصلت على مجموع ٥٠٪ أي ناجح على (الحركك) كما يسميه أهل الشق إلا أن أمي فرحت جدا بنجاحي؛ وأحيا فيها الأمل أن أواصل تعليمي بعد أن استهانت في الفترة الأخيرة بذلك بل رأت أنه لا فائدة من ذهابي إلى المدرسة بعد أن توسّع البيع والشراء وأصبح مدخل البيت أشبه بدكان صغير وأشد ما أفرحني حضور جدتي معزوزة مع ماري ومعها زجاجتان من شربات الورد ولعلعت زغاريد أمي وسط البيت وباركت لماري التي أخبرتني أنها ستقدم في الإعدادية بنات أما أنا فمصري إلى مدرسة البنين، ضيق يغزو صدري لفكرة ابتعادي عن ماري فقد اعتدت أن تكون معي في الفصل، أوصتني ماري وأنا أسير جانبها بأن أذاكر جيدا فالإعدادي صعب ..

بعد ابتعدهما وقف قليلا مع مينا بشاي ومقنع اللذين سيرا ففاني في الإعدادية بنين عدتُ إلى البيت فوجدت أمي تملأ جردلا من الشربات وتوزع هي وخالتي على كل بيوت الشق، سألت عن عفاف فوجدتها تجلس على السطح، سلمت عليها فردت علي ووجهها مكتوم وصوتها تحبسه الدموع؛

عابتني على اهتمامي بباري وإهمالها مؤكدة أنها كانت تدعو ربنا في كل صلاة أن أنجح، أحسست بصدقها فاقتربت منها، ساعدتها على الوقوف أمامي فثبتت عينيها في عيني ومالت نحوي، شعرت بأنفاسها الساخنة على خدي وهي تقبلني، أمسكت يدها ونزلنا من السطح فشاركنا أمي وأمها في شرب آخر ما تبقى من الجردل ..

أشعر بالزهو لامتلاكي خمسين قرشا بأكملها أهدتها لي خالتي رزقين مكافأة نجاحي، أمام الزير الكبير أقف، أضحي بعشرة قروش كاملة فيرفع البائع الفوطة الصفراء ويغترف من بطن الزير قعبا كبيرا ويقدمه لي، إنها البوظة التي أجرب طعمها لأول مرة فأشعر بلسعة في حلقي لكنني استمررت حتى شربت القعب كله فشعرت بدوار خفيف وعندما دخلت البيت انقلب بطني وتقلصت معدتي في ألم ولم تهدأ إلا بعد أن تقيأت كل ما في جوفي وأمي تضرب صدرها وهي تقوِّس ذراعها حول كتفي وخالتي تناولني كوب ماء؛ أمضمض فمي وأتمدّد على سريري، أثناء غياب أمي تجهز لي عفاف كوب من الكراوية، بعد تناول أول رشفة، أشعر بعيني تقفزان من محجريها لانقباض معدتي وأخرج ما في جوفي، أعود فأتمدّد على السرير حتى تقبل أمي خلفها عم فنجري، يتفحصني ويسألني عما تناولت، في صوت مكتوم أخبره :
- شربت بوظة ..

ترزعق أمي وتضرب خالتي رزقين كفا بكف، يخرج فنجري من جيبه زجاجة صغيرة وكالعادة يرجها بشدة ثم يسحب سائلها في سرنجة بيلاستيك، يطهر فخذي ثم يعطيني الحقنة وهو يردد :
- بالشفأ إن شاء الله ..

يهم بمغادرة البيت، تحاول أُمِّي أن تعطيه نقودا لكنه يرفض بشدة ويحذرنِي وهو أمام الباب من شُرْب البوظة مرة أخرى ..

شهر مرّ من إجازة الصيف حتى جاء يوم الخميس، ذهبنا جميعا لحضور زواج منصورة بنت إبراهيم الفرّان وأنا على يقين من أن أُمِّي التي تقوم بأي عمل ستقوم بالواجب مع العروس لتجهيزها لليلة جلوتها بينما خالتي جلست طوال الوقت تطبل أما عفاف ففضلت مراقبة الفرح ورقص البنات وهي ساكنة كالعادة وجاء العريس لأخذ عروسه، كبس هو وأهله على بيت إبراهيم وفوجئت في الزحام بمديحة بنت جارتنا تلتصق بي ووجهها قبالة وجهي ولا أدري لماذا دق قلبي لها في شدة، وددت أن تطول زحمة المطرح حتى يبقى كتفي في كتفها، نظرت إلي وضحكت وهي تمضغ اللبان، رفعت صوتها حتى تسمعني أنها نجحت فأخبرتها أنني أيضا نجحت ولم تتحدث معي في شيء لكنها استدارت فجأة وأعطتني ظهرها فشعرت بكيفي يهتز من التصاقي بها وتحولّ تمنّي الزحمة إلى رغبة جامحة لكنها ابتعدت قليلا ثم زاغت وسط البنات، فخلا المطرح قليلا بعد أن أخذ العريس عروسه وانفضّ الفرح فعدنا إلى البيت ..

بت ليلتها وأنا أثقلب على سريرِي الجريدي وقد تملكنتني رغبة لا أدري ما هي، نمّتُ فرأيت نفسي ملتصقا بمديحة وكل جسمي معها، ظللت طوال الليلة أقارن بينها وبين عفاف التي تعيش معي ولا أشعر تجاهها بشيء فأشعلت داخلي جمر من نار لم تنطفئ إلا بعد أن صحت في الصباح وقلبي يكاد ينخلع من صدري، لمست بللا قليلا في سروالي؛ لمت نفسي أنني أفعلها

في هذا السن ولكن عدت أفكر أن تلك البقعة على السروال ليست مثل ما أفعله في الحمام أو جوار الجدار أو على السطح .

بمرور الأيام زاد تأملي في جسم عفاف فأصوّب نظراتي نحو نهديها حين تميل وأتفرّس في مناطق جسدها وهي تغسل المواعين حتى حانت ساعة مغربية فصعدتُ إلى السطح ورأيتها مائلة نحو الزيار الواطئ وهي تتسند على عكازيها وقد تحررت من الجهاز الذي تركبه في ساقها، لا أدري لم تخيلتها ماري بقوامها المعتدل وجسمها الممتلئ، اقتربتُ منها حتى وقفت خلفها، التفتت إليّ وابتسمت فشجعني سكوتها على الالتصاق بها وشعرت بملامسة تكوير مؤخرتها الضامرة فخفق قلبي في قوة وشعرت بالدماء تصعد إلى وجهي لعدم ممانعتها، انفلت عكازها فجأة فوقعت على الأرض، تصنّعت الوقوع جوارها ونحن نضحك في خبث فلمحت رغبة الاشتياق في عينيها لكن ساقها المعوجة التي تعرت أمامي جعلتني أستحي من النظر إليها ولحظت عفاف نظرة الوجوم الممزوج بالشفقة في عيني فبادرت بلملمة جلبابها لتداري عجزها وإذا أضيف صوتُ أمها المنادي عليها من أسفل فكل ذلك أوقف أي رغبة يمكن أن تستمر وجعلها تهم بالنهوض فساعدتها على الإمساك بالعكاز فوضعت ساقها في الجهاز المنتهي بحذاء صغير ونزولت من السطح، جلستُ مع نفسي أستعيد أحداث اللحظات الفائتة فندمت لإفصاحي عن رغبتني فيها وخشيت أن تحكي لأمي أو أمها عما حدث لكنني تأكدت أنها لن تفعل، ليلا تقلبت على السرير أقباسي الهيجان داخلي الذي لم يهدأ حتى تفجّر ينبوع من الماء برّد جسمي الساخن ..

• • •

ارتعبت نفسي من منظر المدرسة التي كلها أولاد يجرون وراء بعضهم ويزقون أجسادهم في عنف أما أنا فقد وقفت بجانب مقنع ومينا حتى نادوا على أسائنا في فصل أولى رابع، انتظمت مع مقنع في طابور الصباح ثم الفصل وفي نفس اليوم استلمنا الكتب ..

رجعت إلى البيت والضيق يملكني، تمنيت أن أعود إلى سادسة ابتدائي حيث البنات والأولاد معا في الفصل، فضفضت إلى خالتي بما أريد فضحكت هي وعفاف التي قالت أن الإنسان يتقدم ولا يتأخر فألقيت برزمة الكتب المربوطة بخيط دوبارة على السرير في الوقت الذي دخلت أُمي البيت وفي يدها شنطة زرقاء من الجلد خففت عني ضيق اليوم الذي كان لا يريد أن يمر من تعاقب الأساتذة وطلباتهم من كراسات وكشاكيل حتى الفسحة لم تتعد ربع الساعة لم أتمكن إلا من أكل ساندويتش طعمية جاهدت للحصول عليه من كشك البيع المجاور للسلم ..

انشغلتُ في ترتيب جدول اليوم التالي وعفاف تجلس جوارِي وهي تقلب في كتاب اللغة الإنجليزية، تعجب من الحروف الجديدة وأنا أقول لها أن هذا هو A، B، C، D .. فلم نأخذ اليوم غيرهم وتُكتب من الشال إلى اليمين والمدرسة أمرتنا أن نكتب الحروف الأربعة في صفوف وستسمّعهم غدا، تصفحتُ كتاب العلوم، تعجبتُ من صورهِ الكثيرة أما الجبر والهندسة فلم أفهم من المدرس كلمة واحدة مما قال وأجلت فهمي لحين مقابلة زميلي مقنع الذي يحب الحساب من أيام ابتدائي، رتبت الشنطة ولم أنس صورة من شهادة وفاة أبي كما طلب الأستاذ الذي لا أراه في الفصل إلا عند جمع المصروفات المدرسية حتى أعفى منها ..

مرت نهايات الصيف وأوغل الشتاء ببرده القارس، قلّ خروجي من البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي فحاولت أن أقرأ في الكتب الكبيرة التي استلمتها، أحببتُ التاريخ والقراءة عن الملك مينا موحد القطرين الذي أخذنا عنه شيئاً في رابعة ابتدائي ولكن في أولى إعدادي كان بتوشّع، تعرفت في القراءة على العقاد، تعجبت من أنه لم يحصل إلا على الابتدائية لكنه علم نفسه بنفسه وحرّم روحه من شراء الحلوى وفضّل الكتب أما الجبر فلم أنجح في اختبارات أعمال السنة فيه ونجحت في بقية المواد وبخاصة اللغة الإنجليزية التي أحببتها حتى كان يوم عدت فيه لأخبر أُمّي في حماسة عن إعلان سمعته في الإذاعة المدرسية اليوم عن رحلة إلى تونا الجبل بالمنيا وقيمة الاشتراك جنيهان والأسبقية لمن يدفع أولاً لكنني فوجئت بأُمّي تضرب على صدرها وتزعق في بأن الجنيهين نشري بهما خبزاً للشهر كامل فنمت مغموما والدمعة لم تفارق خدّي وفي الصباح وحين وضعت عفاف إصبع الفينو في حقيتي دسّت جانبه كيساً صغيراً، همست في أذني بأن فيه اشتراك الرحلة ففتحت الكيس بسرعة وعددت أرباع الجنيه الورقية والبرايز الفضية حتى أتموا الجنيهين ففرحت بهم وشكرتها فابتسمت لي وهي تحثني على الذهاب إلى المدرسة ..

طلبتُ تسجيل اسمي لدى المشرف الاجتماعي الذي استهزأ بي عند عد الفلوس هو ومدرس الألعاب قائلين أنني أبيع ترمس ولب حتى آتيهم بالقروش لا بجنيهين ورق كاملين لكني لا أهتم بتندرهما فلمهم عندي هو دفع الاشتراك وانتظار يوم الرحلة الذي تحدّد بأول جمعة في الشهر القادم وكالعادة لم تهتم أُمّي بذلك بل اعتبرته تفاهة عيال وضياع للوقت فخير لي

بدل قضاء يوم بعيدا عن البلد أن أذاكر أو أساعد عفاف في البيع والشراء في البيت أو حتى اللعب مع أولاد الشارع لكن خالتي رزقين كان لها موقف معارض لأمي وهي تمسح على رأسي قائلة :

- ما عندنا أعلى من غريب، اتركه يتمتع ويشوف الدنيا ..

خالتي رزقين دائما كلامها يخفف قسوة أُمي التي تحملني مسؤولية البيت، جلست جوار عفاف وهي تلف بعض الأوراق كقراطيس لتعبئتها باللب، فوجئت بعدة مجلات كالتي أراها في مكتبة المدرسة، سألت عفاف عنها فأخبرتني أن أُمي اشترت خمسة كيلو كتب قديمة من ولد لا نعرفه والمجلات من ضمنهم، قلبت في مجلة حواء ثم تركتها أما ميكى وسمير فقد استهوئتي الصور الملونة وانبهرت بما تحوي من قصص قصيرة مصورة، أعجبت بميكى و بطوط وأبناء أخيه الذين لا يكفون عن الهذار معه أما مجلة سمير فاندعشت بمعلوماتها القيمة وبقصة من قصص راهاوان ذلك الرجل القديم الذي يعيش وسط أشجار الغابات وصخور الجبال ويجد حلا لكل مشكلة تصادفه ولا يكرر الخطأ بعد أن يتعلم من أخطائه وأخطاء الآخرين ويساعد إخوانه البشر في تيسير حياتهم ...

أخذت باقي مجلات ميكى وسمير من بين الكتب التي اشترتها أُمي ووضعتها على سريري الجريدي المفروش عليه مفرش صوف أتت به أُمي من دكان عم بشاي، فبحثُ بالمجلات وقصصها الملونة، أعيدُ كل يوم قراءة قصصهم الممتعة وأخيرا قرأت ميكى جيب وفي نهاية المجلة وجدت مسابقة مكتوب عليها :

الحلقة الأولى وهي عبارة عن تجميع دول الوطن العربي في آسيا مع كتابة اسم كل دولة وأسفل المسابقة خبر عن متابعة الحلقة الثانية في العدد القادم،

قرأت على الغلاف أن المجلة لهذا الشهر الذي بقي على انتهائه يومان وعند مطلع الشهر الجديد هرولت إلى سعد الذي يفرش الجرائد والمجلات أمام كنيسة مار فام، سألته عن مجلة ميكى جيب فأخبرني أن ثمنها خمسة عشر قرشا فدفعتها له وفي البيت أكملت خريطة الوطن العربي للجناح الإفريقي وكتبت اسم كل دولة، كتعليمات المسابقة نزلت الخريطة بالمقص ولصقتها على ورقة كبيرة ولم أنس إرفاق كوبون المسابقة، بقي كتابة عنوان المجلة فذهبت إلى بيت عصام خارج الشق، فرح لاشتراكى في المسابقة وكتب بنفسه عنوان المجلة على المظروف ثم تمسينا إلى البوستة فنصحتني أن أبعث الخطاب مسجلا لا بالبريد العادي حتى أضمن وصوله فتركت له الأمر وفي أثناء عودتنا عرفت أنه يحب القراءة والاشتراك في المسابقات وقد فاز يوما بمجلد لمغامرات الشياطين الـ ١٣ فجعلني كلامه على يقين بفوزي في تلك المسابقة الشيقة ..

لا تتعدى علاقتي بعصام سوى إلقاء السلام عليه وهو جالس أمام دكان أبيه بائع الخردوات يقرأ أحيانا لكن وقفتي القصيرة معه جعلتني أكتشف حبه للقراءة واقتناء القصص والمجلات والاشتراك في المسابقات فتوثقت علاقتي به بعد أن ابتعدت قليلا عن مقنع كثير السفر مع أخيه للعمل وأيضا مينا بشاي الملتزم بالعودة مع أبيه في دكان نسج المفارش الصوف ..

عدتُ إلى البيت، جلستُ على السرير، أكمل قراءة قصص المجلة الممتعة وأشعر في كل قصة أن شيئا ما تغير في حياتي التي لم تعد تقتصر فقط على الذهاب إلى المدرسة أو التفكير في ماري أو حتى ممارسة البيع أمام البيت مع عفاف .

جاء يوم الجمعة فلم تهتم أمي بإيقاظي مبكرا ولم تسألني عن مصدر الاشتراك بل أخبرتني أنها وخالتي رزقين وعفاف سيذهبن لزيارة خالتي حكيمة التي تسكن في كوم الترمس لأنها علمت بمرضها، فوجئت بعفاف قد جهزت لي كيسا به بيض مسلوق وثلاثة مثلثات من الجبن وأربعة أرغفة أما خالتي رزقين فقد أخرجت صرة صغيرة من صدرها ففكتها أعطتني خمسين قراشا وابتسامتها الرائقة تكبح نظرات أمي الغاضبة، طارت قدماي إلى المدرسة فوجدت الأوتوبيس الكبير ينتظر ..

ركبنا حسب كشف المنادة، تحرك الأوتوبيس ليغادر البلد للمرة الأولى إلى الشمال ونحن نغني ونرقص على أنغام أغنية - في السكة - لمحمد فؤاد، ظل الأوتوبيس يقطع الطريق حتى دخلنا مدينة عرفت أنها ملوي، ركن في شارع جانبي وصوت المشرف يعلو بأمر النزول والوقوف في صفين، اقتربنا من باب كبير أمامه حارسان مسلحان وآخر يقوم يعد الداخلين، بهرت بالمتحف وما به من آثار وحين وقفت أمام صندوق زجاجي ضخم رأيت أنا ومقنع جثة طويلة لأحد الفراعين عرفنا أنها مومياء وأنها تحتفظ بوجهها أسفل لفائف الكتان كما هو منذ آلاف السنين، وقتها تمنيت لو عرفت سر تخييط الجسم

كل هذه الأعوام حتى أحتفظ بأبي داخل صندوق وكل يوم أصبح عليه ثم أذهب إلى المدرسة فضحك مقنع عندما عرضت عليه هذه الفكرة الغريبة، فوجئت جوارىي بكتف عار، رفعت عيني فرأيت سائحة أجنبية تكاد تلامس رأسي، ابتسمتُ لها فضحكت، مسحت على شعري وانضمت إلى رفاقها، دهشتُ للشورت القصير الذي تلبسه، سألت المشرف عن ملابسهم فقال أنهم لا يشعرون بالبرد لأن بلادهم ثلج وأبرد من مصر..

استمر تجوالنا داخل أروقة المتحف وشيخ نحيف - أنحف من المومياء - يشرح في سرعة محتويات كل صندوق حتى حان الانصراف فتجمعنا وانطلق بنا الأوتوبيس ليستقبل طريقا صحراويا طويلا انتهى إلى استراحة كبيرة تعج بالسائحين حولهم أفراد من الشرطة وعلى طول الطريق المؤدية إلى سرايب المقابر رُصّت المناضد التي عليها الهدايا من تماثيل وتحف ومفارش صغيرة كالتي ينسجها عم بشاي عليها رسومٌ فرعونية، أصوات الباعة ترتفع وعندما اقتربت من إحداها سمعت الشاب الأسمر يفاوض السائحة ويقول لها وهو يرفع تمثالا لتوت عنخ آمون :

- تن باوندز ..

لكنها رفضت ومشت من أمامه فرفعت أنا يدي بربع الجنيه فجحظت عيناه وهو يقول :

- امش يا فقري ..

في غيظ مكتوم ابتعدت؛ أنضمُ إلى زملائي ومدرس التاريخ المشرف يصطحبنا إلى السرايب في بطن الجبل التي تضم جثثا لقروود وطيور وثيران

وتماسيح، خرجنا من السرداب الكبير إلى الاستراحة وتم توزيع الغداء الذي تناولناه في مرح وبعد الراحة سرنا إلى غرفة صغيرة وفتح الحارس بابها فكنْتُ أول المستطلعين للجسد الممدد، لا أزال أتذكر صوت الحارس ذي الجلباب الأزرق وهو يروي لنا قصتها :

- اسمها ايزادورا ... بنت رومانية أحببت جنديا مصرية اسمه حابي فرفض أبوها حاكم الإقليم هذا الحب وأمر جنوده بمنعها من مقابلة حبيبها فانتحرت بأن ألقت نفسها في نهر النيل فسحب الحراس جثتها لكن أباه الحاكم ندم ندما شديدا على موت بنته وقرر أن يبني لها مقبرة تحفظ جسمها وتخلد قصتها وعرفت باسم : شهيدة الحب ..

وقفت قبالة الصندوق الزجاجي أتطلع إلى جسد الفتاة الطويل اليباس، تخيلت قصتها بل وطال بي التفكير إلى أنني هذا الشاب الذي أحبته وأني نجحت في إنقاذها قبل أن تغرق فيكافئني أبوها الروماني بزواجها لكن عدت أفكر بأنه لو حدث هذا لما كان لتلك الفتاة قصة يرويها الحارس لزوار المكان من أجانب ومصريين وكالعادة ألقيت ما سمعت خلف أذني ما عدا وجه الفتاة الممصوص ظل عالقا بذاكرتي لفترة طويلة جدا من السنين ..

قبل أن ننزل من غرفة إيزادورا دخل سائح وجهه أحمر يلبس قبعة من الغاب ويضع في فمه سيجارة طويلة، حملت في المرشد بجلبابه الأزرق وهو يتحدث الإنجليزية في طلاقة و يشرح للسائح بنفس حركات يديه ما كان يرويه لنا وبعد ابتعادنا عن مقبرة ايزادورا سألت مشرفنا عن ذلك فضحك وأخبرني أن مثل هذا الفلاح قد يتحدث لغة واثنين وثلاث لغات للسائح ..

• • •

سالمة يا سلامة ..

ظل بعضنا يردد تلك الأغنية حتى دخلنا أبواب فنزلت قرب شارع السوق لأعود إلى البيت وأنا في غاية التعب والإثارة مما رأيت في هذا اليوم الذي يصعب تكراره، نحو حارتنا سرت جوار مقنع في ظلام الشتاء الذي بدأ يشتد، مررنا أمام محل علام البقال، أرى مخيمر السحلية يتراخى على الدكة الصغيرة جوار الدكان ومن حين لآخر يرفع زجاجة السبيرتو إلى فمه، أسمعه يدندن :

- قل للزمان ارجع يا زمان ..

أمرُّ أمامه تستدير عيناه نحوي، تبرقان إليّ، أراه يشبه المومياء العجفاء التي رأيته في متحف ملوي، أمشي مسرعا يلاحقني مقنع، أحن لأمي وخالتي وعفاف فلم أفترق عنهن يوما بطوله هكذا من قبل وأيضاً تشتاق مئنتي للحمام لأريحها مما بها، ودّعت مقنع، دخلت البيت فرأيت أمي وخالتي رزقين نائمتين ولم أجد عفاف لكنني سمعت صوت نزع الماء من داخل الحمام، اتجهت مباشرة إليها، تلصصتُ عليها من فتحة بكيس الخيش الذي يستر الكنيف فجذبني جسمها العاري لأشاهده وهي تجلس على كرسي خشب صغير وتعطيني ظهرها لكن إغوجاج ساقها جعلني أستحي من الاستمرار في الفرجة عليها فتراجعت حتى سريري ..

خلعتُ ملابسِي ولبست بلوفر قديم، انتظرتها حتى خرجت فتسندت على عكازيها المركونين أمام الحمام والفوطة على رأسها، قابلتني بابتسامة طيبة وهي تسألني عن الرحلة فأخبرتها وهي تمشط شعرها بكل ما شاهدتُ،

فرحت بالسلسلة التي بها رأس نفرتيتي التي اشتريتها لها مخصوص ولبستها في الحال، سعد قلبي وأنا أرى في عينيها الفرحة وتمنيت أن تكون سليمة حتى أرقص معها مثلما فعل زميلنا الطويل مع إحدى السائحات التي رقصت معه في أثناء تناولنا للغذاء على أنغام الكاسيت العالية ..

تنهض برغم البرد لتحضر لي العشاء لكنني اعتذرت لها فقد أكلت باقي الطعام في الأوتوبيس قرب دخولنا البلد ..

عدت من الكنيف فوجدتها تدفع أعواد البوص والخطب بين فخذي الكانون وتضع عليه صفيحة مياه لأستحم، بخرة قماش حملت الماعون الساخن وأهلت الماء على جسدي، خرجت فقدمت لي ساندوتش حلاوة طحينية، شعرت بالدفء يسري في جسدي المنتعش بعد الحمام الساخن وبما أن أمي وخالتي نامتا معا فلن أجد بديلا مع قلة الغطاء في أن أتمدد جوار عفاف فسحبت الحرام الثقيل علينا ولا مست رجلي رجلها فابتسمت لي وشعرت بأنفاسها تداعب وجهي لكن التعب كان قد ملك جسدي المنهك فهاجم النوم عيني ساحبا رموشي التي تشابكت في قوة ونمت وأنا أحلم بإيزادورا التي تنام جوارتي ..

أيقظني صياح الديكة، أشعر بالدفء اللذيذ وأنا ألتصق بعفاف النائمة جوارتي وجسمها الذي بدأ يكبر ويطول أكثر مني ولولا عجزها لأصبحت أطول حتى من أمي وأميها، قاومت الاسترخاء ونهضت بالرغم من البرد، على ضوء المصباح سحبت كراسة الرسم وألوان الشمع وفي آخر صفحة بدأت أرسم بالقلم الرصاص كل ما رأيته في المتحف ومقابر تونا الجبل أما

صندوق إيزادورا الزجاجي رسمته بمهارة كبيرة في صفحة كاملة وأيضا لونت جلباب المرشد باللون الأزرق ومرة أخرى تعجبت من معرفته اللغات الأجنبية التي يرطن بها لكل سائح ..

توقفت عن التلويح للأصوات العالية في الشق، وارتب الباب فرأيت فلاحا ينيخ ناقته أمام بيت علي الجمال، حافيا خرجت من البيت وما إن وصلت حتى شاهدته يخرج بجسمه الضخم ولسانه الغليظ بين شفثيه اللتين يسيل منهما الزبد، خفت أول الأمر لكنني وقفت مبتعدا أشاهده وهو يبعد بين ساقيه الأماميتين ويتدلى على الناقة التي يرتفع رغاؤها وصاحبها يشد لجامها، اقشعرّ شعر رأسي للمنظر وتملكتني رغبة أن أكون الجمل والسائحة الأجنبية التي مسحت شعر رأسي أمام الأوتوبيس هي الناقة، أفقت على صوت علي الجمال يزعق في جملة فعدت إلى البيت ولا تزال تلك الرغبة تشعل جسدي، تمنيت أن تكون ماري هي الناقة وعندما تململت عفاف في رقدتها تخيلتها ناقتي على الأقل هي معي الآن، تأرجح تفكيري بين عفاف الساكنة معي وطيف ماري، أيهما تكون ناقتي وأخيرا فضلت ماري البعيدة على عفاف فأكملت نومي ولم يفارقني مشهد فحل عم علي وهو يتدلى مرة أخرى على الناقة المسكينة .

• • •

لأول مرة أرى البوسطجي يدخل الشق، يتسم لأمي التي تعبئ الملح في أكياس صغيرة، يسأل عني فتناديني خالتي رزقين، أنزل من فوق السطح، نظرات ساعي البريد تطوقني من أعلى لأسفل ثم قدّم لي مظروفا أصفر كبيرا

وطلب مني أن أكتب اسمي في كشف عنده ففعلت، فتحت المظروف لأفاجأ
بخطاب من مؤسسة دار الهلال تهنئي بالفوز في مسابقة خريطة الوطن
العربي وتقدم لي هديتها وهي عبارة عن مجلد كبير لميكي جيب يومها رقص
قلبي من الفرح ورمحت بالمجلد إلى جاري عصام فهنأني على الفوز وحصولي
على المجلد القيم الذي أعدت قراءته عشرات المرات طوال إجازة الصيف
ورويت لعفاف الكثير من قصصه الطريفة ..

من أول يوم في الثالثة إعدادي اصطحبني أمي إلى الأستاذ فايق مستر الإنجليزي بالرغم من أني أكدت لها أنني لا أريد درسا خصوصيا لكنها أصرت على ذلك بحجة أن الأستاذ كان على صلة بأبي منذ شبابهما فهما أولاد حارة واحدة واتفقت مع المستر العجوز وتركتني وسط مجموعة من الأولاد منهم تلاميذ في المدرسة لكنهم من غير فصلي، أجلسني مستر فايق جانبه فلفحتني أنفاسه المعبقة برائحة الدخان التي كنت أشمها من أبي؛ نفرت من وجه الأستاذ بعينه الغائرتين وصلعته الصفراء أما أسنانه فلم يتبق منها سوى الأنياب المخيفة التي تظهر مدببة كلما تحدّث أو ضحك .

زاد تصميمي على أن أنهي الموقف بألا أستمّر في هذه الحصة التي انتهت سريعا كما بدأت، نزل الأولاد وطلب مني مستر فايق أن أبقى، غاب داخل غرفة جانبية ثم عاد ومعه كيس به كتاب أخبرني أنه ملخص (نيو تيتشر) عليه ختم دائري مكتوب عليه - هدية غير مخصص للبيع - قدّمه وهو يضحك ويخبرني أنه وأبي كانا يلعبان معا وهما في الصغر في شارع أم حليم ولكن أبي كان لا يهوى التعليم بل ويمشي بدماغه فعاش طول عمره بالطول والعرض لا يحمل للندى هما، تحدّث مستر فايق كثيرا عن ذكريات أخرى مع أبي وأنا

من حين لآخر أبعد وجهي اتقاء لرائحة فمه المقرزة حتى أنقذني منه ظهور زوجته ماتيلدا التي أعطتني كيسا به فول سوداني وهي تذكر أُمِّي وخبيزها بكل خير ..

هممت أن أخبر المستر بأنني لن أستمِر في الحصة لكن خجلت منه وفضّلت أن أقنع أُمِّي بأن تعيد الكتاب للمستر وتشكر زوجته الطيبة على هديتها التي أخذتها ونزلت السلم المظلم وما أن أقترَب من المجازز إلا وأفجأ بماري تقف أمامي تزم كتبها على صدرها الكبير، دارت عيني على طولها المتوسط ووجهها الذي لا يزال يحتفظ باستدارته لكن النظارة الخفيفة كانت تخفي زرقة عينيها الواسعتين أما فمها فلم يتوقف عن مضغ اللبان ..

ابتسمت لي فاقتربت منها، رائحة البارفان القوية محت أي أثر لرائحة فم مستر فايق العفنة فاجأتني بسؤالها عن أُمِّي فأجبته أنها بخير، توقعت منها أن تقف معي أكثر وتتحدث في كل شيء عن حياتها إلا أنها انسحبت من أمامي مستئذنة بحجة أن زميلاتِها سيأتين الآن، وضعت كفي على كتفها لكنها تراجعت بخفة وسارت مبتعدة، اختفت من أمامي وسمعت صوت صندلها الصاعد على السلم فاستدرت وأنا أشعر بخيبة الأمل، فتحت الباب وفوجئت ببنات يقفن أمامه، دخلت الفتيات وعدت إلى البيت وأنا حزين من مقابلة ماري الجافة، أخبرت أُمِّي بعد أن أعطيتها كيس الفول السوداني فضحكت ورنّت كلمتها في أذني :

- البنات تكبر بسرعة وأكيد ماري خجلت منك بعد أن شنبك خط فوق

شفتك ..

وقفت أمام شرخة مرآة مثبتة على الجدار بجوار الحمام، تعجبت من وجهي الذي استطال والشعيرات تناثرت على خدي وكثرت على ذقني، ذلك الشعر لاحظته تحت إبطي وأسفل سرتي، نبهني كلام أمي إلى أشياء كثيرة لم أكن أهتم بها ومنها التحذير من خلع ملابسني أمام عفاف وأن أسدل كيس الخيش على باب الحمام عند استحمامي بعد أن هجرت الطست الكبير أما تلك الجمرة التي أحس بها وأنا نائمٌ فقد تكرر حدوثها بقوة فأنهض من النوم واللباس به تلك المادة اللزجة التي عرفت ما هي عندما شرح مدرس العلوم الجهاز التناسلي في الإنسان وظل الأولاد طوال الحصة يتغامزون فور رسم المدرس للعضو أما أنا فقد تضايقت من الأنابيب الكثيرة التي رسمها أستاذ العلوم ولا أعلم مكانها ولم أتخيل أن تلك الخراطيم يمكن أن تكون داخل جسمي أو جسم عفاف ..

• • •

استلمنا أرقام الجلوس وبدأت الامتحانات، جمعنا مستر فايق ليلة امتحان الإنجليزي ووزع علينا ورق المراجعة، انشغل الأولاد والبنات بحل الأسئلة ولم تنزل عيني عن ماري التي تجلس بالقرب مني حتى أن القلم وقع من بين أصابعي فنزلت تحت المنضدة الطويلة لأحضره ففوجئت بكيس صور صغير جوار القلم والمفاجأة الأكثر إدهاشاً أنها صور ماري فلم أتردد وسحبت صورة من الكيس ونهضت في سرعة وأنا أمسك بالقلم وقلبي يدق لماري التي خبأتها في جيب القميص جوار قلبي .

انتهت حصة المراجعة وطوال الطريق ألفت إلى ماري وهي مع صاحباتها، عدتُ إلى البيت ورأيت أن أفضل مكان لأخفي فيه صورة ماري هو مجلد ميكى جيب فإن أحدا لا يقلب فيه من البيت ومن حين لآخر أفتح الصفحة على الصورة وأتأمل وجهها الملائكي البرئ وأتذكر أيام القرب التي كانت بيننا ونحن نلعب معا داخل أكياس القطن ..

بستر ربنا مرّت الامتحانات، انشغلت طوال الوقت قبل ظهور النتيجة بقراءة ألباز المغامرين الخمسة تلك القصص الجميلة التي استعرتها من جاري عصام، أعجبت بشخصية تختخ السمين وأصدقائه الأذكاء وتمنيت أن أنضم إليهم وأشاركهم مغامراتهم مع الشاويش فرقع، قدّم لي عصام كتب رجل المستحيل التي انخرطت في قراءتها مع قصص ملف المستقبل الخيالية .

انقضت الأسابيع وظهرت نتيجة الإعدادية، نجحت فوق (الحركك) بعدة درجات لكن أُمي الله يكرمها عملت فرح في الشق ووزعت الشربات على كل بيت وأول مرة أشعر بحنين خالتي رزقن الطيبة حين ضمنتني إلى صدرها وهي تبكي أما عفاف فقد استغلت فرصة انشغال أُمي وأمها في توزيع شربات الفراولة وحضنتني في قوة ولأول مرة أشعر بحرارة جسمها الذي بدا لي كبيرا وبت ليلتها وشعلة النار في داخلي ازداد لهيها حتى أطفأها انهار الماء الغزير فنهضت في الصباح واستحممت فور استيقاظي كما نبهنا مدرس الدين ذات يوم .

في اليوم التالي، أتت الجدة معزوزة كعادتها بزجاجة شربات الورد الكبيرة، سألتها عن ماري فأخبرتني أنها حققت مجموعا كبيرا وستدخل

الثانوية العامة إن شاء الله، بعد انتهاء زيارتها القصيرة، صعدتُ إلى السطح وأخرجت صورة ماري، باركت لها بنفسي وقبلت وجهها الهادئ ثم أعدت الصورة إلى مجلد ميكى ووضعتة في صندوق خشبي صغير مع المجلات الأخرى التي أحتفظ بها.

أعتذر ..

فقد أوشك حبر القلم الفرنسي على النضوب ولا أريد أن أواصل الكتابة بخط باهت؛ فغيرت القلم بآخر مكتوب عليه - بيك - خطه سميك وحظي الحسن أن القلم لم يُكتب به إلا القليل واستكان بين أصابعي فابتسمت له وأنا أتمياً لمواصلة الكتابة ..

• • •

مرت أيام الإجازة بسرعة ولم أنشغل إلا بقراءة مجلات ماجد والعربي الصغير وميكي وسمير ومساعدة عصام الذي أنهى الدبلوم في حل أسئلة المسابقات التي يعشقها وعندما علم أنني قبلت في الثانوية الصناعية نصحني بقسم الزخرفة بعيداً عن ضوضاء الورش وبالفعل انقضت الشهور بهدوء بعيداً عن شلل الأولاد واحتكاكاتهم الكثيرة ومشاجراتهم والاحتفاء بالعائلة الكبيرة وأبناء العم ولا يمكن أن أنسى يوماً أن ولداً من عائلة كبيرة دائماً يتباهى بنسبه وكثرة أبناء أعمامه ومعروف عنه أنه يسأل من حوله عن عائلاتهم ويوما سألني عن اسمي فأجبته : غريب ضيف العريان، فضحك وقال في تعالٍ اعتاد عليه : العريان ؟ استر نفسك وبعدها نتكلم ..

ضحك في استهزاء فهمتُ أن أتشاجر معه لكن احتماءه بأولاد عمه المشاكسين جعلني أراجع وأنهى الموقف بالابتعاد عنهم فليس لي أبناء عم أو عائلة أتقوى بها ففضلتُ الانزواء والمشى جوار الحيطان ولا همّ لي سوى رعاية أمي وخالتي وابنتها الطيبة واتجهت إلى استعارة بعض الكتب من مكتبة المدرسة فاتخذتهم رفقاء وأصدقاء خلوتي أتحدّث معهم ويتحدّثون معي فظللت كذلك حتى كان ذلك اليوم الذي قرأت فيه إعلاناً عن مسابقة أدبية في الشعر والقصة القصيرة ينظمها قصر ثقافة أبنوب وآخر موعد لتلقي الأعمال بقي عليه أربعة أيام، دقّ قلبي في قوة ولم أنم ليلتها وأنا أفكر في تلك المسابقة، صعدتُ إلى السطح لألوذ بفراغه بعيداً عن مدخل البيت الذي يشبه الدكان وملح أمي وخالتي وعفاف الجالسة طوال الوقت، أمسكت بقلم وورقة ولكني لم أكتب شيئاً، مرّ الوقت وعجزت عن الكتابة برغم إحساسي القوي بأنني أستطيع ..

في اليوم التالي تغيبت عن المدرسة أشعر أن صدري به شيء يريد أن يخرج، انقضى النهار ولم أخط حرفاً واحداً حتى أنني اعتذرت لمقنع الذي التحق بمدرسة الزراعة بعرب العوامر عن مقابلته، الضيق يغزو صدري وقررت أن ألغي كتابة الشيء الذي أشعر به يهزني من الداخل، جلستُ صامتاً طوال الوقت وعند أذان المغرب أقبلت خالتي رزقين التي لم أتنبّه لغيابها، ركنت ماعون الجبن الكبير، تنهمك في تنظيف البلاص وترص فيه الجبن وهي تحكي لأمي عن مولودٍ وجدوه عند مقام الشيخ رمضان ولا أحد يعرفه ..

رَنّ اسم الشيخ رمضان في أذني فهو المقام الذي اعتاد الناس أن يدفنوا الموتى الصغار الرُّضّع في الأرض البراح حول مقامه ذي القبة الكبيرة أما أن يجدوا مولودا حيا هناك فإنه يحمل عار أمه التي تركته ليموت ثم يدفنه أهل الخير عند المقام ..

انشغلت في إدخال منضدة البضاعة داخل البيت ولم أشعر بالعشاء الذي تناولته مع أمي وخالتي وعفاف بعد أن ملكت حكاية المولود بجوار المقام كل تفكيري، تمددت والحر يخنقني، أغمضت عيني لكن مواء القطط خارج البيت جعلني أنهض من سريري الجريدي وأبحث عن الورقة والقلم الذي قرّبت سنّته من السطر ...

تخيلتها وهي تضم بين يديها المولود الساكن وتسير به مختبئة في سواد الليلة التي أحرق قمرها حتى سارت به في الطل المؤدي إلى مقام الشيخ رمضان وترجو ألا يموء الرضيع فيفتضح أمرها وعندما وصلت إلى براح المقام دارت حول قبته الكبيرة بعيدا عما تبقى من عيش الغرباء فوضعت مولودها في الخلف تحت شباك المقام المغلق وهربت وهي تحبى وجهها بشقّة سوداء كليلتها، يصرخ الطفل ولا أحد يشعر به إلا الشيخ رمضان الذي يخرج من مقامه ويحمل الولد بين يديه ويقبله في فمه الصغير فيشبع الصغير وينام في المهده الذي جهّزه له الشيخ رمضان جوار أقرانه حول المقام ..

كتبت - تمت - في نهاية القصة ثم فوجئت بأنها بدون عنوان فكتبت في أولها : الشيخ رمضان .. قصة قصيرة ..

لم أنتظر الصباح فطويت الورقة وذهبت إلى عصام، ارتحت لوجوده ساهرا أمام دكان أبيه، عرضت عليه القصة، قرأتها أمامه فأعجب بها وعندما أخبرته أنني سأشارك بها في مسابقة، عرض عليّ أن تكتب على الآلة الكاتبة.. ذهلت للفكرة التي لم تخطر لي على بال، ذهبنا معا لمكتبة رشوان، وجدناه بهم بإغلاقها لكنني استوقفتهم ورجوته أن يكتب لي القصة فقبل ووضع ورقة فارغة في الآلة الكاتبة، أمليته ما كتبت وفرحت أكثر عندما وجدته يكتب أسفل كلمة (تمت) اسمي بالكامل والمدرسة والصف الدراسي وزاد على ذلك أنه تطوّع فصوّر منها نسختين بآلة تصوير المستندات وأهداني مطروفا أصفر ضم أصل القصة والصورتين ولم يأخذ رشوان إلا ربع جنيه ثمن كتابة القصة فقط .

عدتُ إلى الشق والفرح يغمر قلبي، بتُ ليلتها والمظروف أمامي على الشباك ومن حين لآخر أسحبه وأخرج القصة لأقرأها ويزداد إعجابي بكتابتها المسقة حتى أغمضت عيني وأن أتخيل نفسي أم هذا المولود فعدت وأنقذته من الهلاك، أو أن واحدا من أهل الخير التقط الرضيع ورباه مع أولاده أو أعطاه لزوجين من الأغنياء لم ينعم الله عليهما بأولاد فتنياه وربياه أحسن تربية وأصبح في حال أفضل مما لو بقي مع أمه المجرمة كما شاهدت تلك الأحداث في فيلم يوسف وهبي القديم (أولاد الشوارع) لكنني وكالعادة نفضت هذه الفكرة فلو حدث كل ما فكرت فيه لما أخبرتنا خالتي رزقين عنه ولما كانت القصة أصلا .

لأول مرة أذهب إلى بيت الثقافة، بُهرت بالمكتبة الكبيرة ورفوفها الكثيرة والكتب مرصوفة بعناية، قدّم لي أحد الموظفين استمارة بيانات للمسابقة فكتبتها كلها ولكن عند رقم الهاتف كتبت رقم تليفون عم عبده والد عصام، أخذ مني المسئول عن المسابقة نسختين فقط واحتفظت بالأصل، انصرفت وآخر ما سمعته من الموظف أنه سيخبرني بنتيجة المسابقة في وقتها، أثناء عودتي لاحظت الناس في فرح لصعود منتخب مصر إلى نهائيات كأس العالم لكرة القدم بعد فوزنا على منتخب الجزائر، ضحكت لعم علام البقال الذي يضرب كفا بكف على خفة عقول الناس الذين لن يجنوا من هذا كله شيئاً سواء فوزنا أم انهزمنا ويقف واحد من الأفندية بنظارته السميكة يتحدث وهو يرفع صوته :

- شعب مخه فاضي، لا يكسب من الكرة إلا شركات الإعلانات التي بدأت تعرض مسابقاتها والفائز فيها جائزته رحلة مجانية إلى إيطاليا ليشجع الفريق القومي ..

يتشاءب مخيمر السحلية وتفتر شفته عن ابتسامة هزيلة وكلماته تخرج مقطعة :

- آه على حسن شحاته ورجله الكريمة ولا حمادة إمام ويا عيني على الخطيب ..

- يا رجل ... شحاته وإمام وغيرهم اعتزلوا من زمان، اليوم فيه حسام حسن وأخوه إبراهيم، فيه مجدي عبد الغني وهاني رمزي ..

يهوم السحلية بوجهه ولم يلبث أن يخرج الزجاجاة ويترع منها السيرتو في سرعة ثم يغلقها ويعيدها إلى جيبه، يقترب مني ..

- أنت ابن حسنة، الله يرحم أمك كانت صبية زين ..

- أنا ابن ضيف العريان ..

- أعرف ضيف، كلنا ضيوف في دنيا الرحمن لكن قل لي : أبوك تغطى ولا كما هو عريان هاهاهاها ...

ابتعدت عنه متجها إلى الشق وأنا ألعنه وألعن لسانه البذئ، ألحظ الفرحة تعلو وجوه الشباب وهم يرددون في كل مكان خبر صعود المنتخب ليلعب في أوروبا، مع أنني اعتدت عدم الاهتمام بمثل هذه الأخبار إلا أنني شعرت بالفخر لصعود مصر ومشاركتها في الدورات العالمية الكبيرة، عدتُ إلى الشق مارا بحربي المزين وهو يلعب السيجة مع أحد زبائنه، ألحظ دكان عم بشاي مغلقا طوال الوقت، سألت مينا المظل من الشباك فيخبرني أن أباه مريض، تركته ودخلت الشق، أرى عم علي الجمال يراقب العمال وهم يهدون بيته ذي الطابق الواحد والمبني كبيتنا بالطوب والطين ..

أدخلت أُمي منضدة البضاعة والملح حتى لا يغطيها تراب الهدد، واصلت عفاف البيع من داخل البيت حتى المساء والعمال لم يتوقفوا عن

العمل ويحملوا الأنقاض بالففف إلى مقطورة خارج الشق وما هي إلا أيام
وبدأ العمال في حفر الأساسات وتم صب القواعد بالحديد وارتفعت أعمدة
البيت وأمي تضرب كفا بكف وهي تحدث خالتي رزقين :

- يا سلام على العراق وفلوس العراق، أولاد علي الجمال سافروا من أربع
سنين والفلوس جرت معهم ..

أعرف أبناء علي الجمال، أصغرهم أنهى الدبلوم منذ عامين فقط ولحق
بإخوته في العراق بعد أن حصل على معافاة نهائي من التجنيد في الجيش لقصر
قامته، أخبرت أُمِّي بأني أريد أن أسافر إلى العراق وأشتغل هناك وأبعث لهم
الفلوس لهد الخرابة التي نعيش فيها ونبني بيتا متينا واسعا ونظيفا لكن تهكم
أُمِّي ما يزال يرن في تلايف ذاكرتي :

- لا تسافر ولا تعود يا فقري يا ابن الفقري ..

أما خالتي رزقين فقد لطمتني كعادتها بواحد من أمثالها المتينة :

- تطلع من دارك يقل مقدارك وكله مع الصبر يهون يا غريب .

سالت دموعي غزيرة ولم يهتم بتطبيب خاطري سوى عفاف التي لفت
ذراعها حول كتفي وأكدت لي أني أمل أُمِّي وخالتي في الحياة وليس لهم أحد
سواي فيجب أن أنهى الدبلوم أولا ثم يكون ما يكون من أمر السفر ..

انطوت الأيام سريعا وأنا أراقب كل يوم عم علي وهو يسقف الدور
الثالث بالمسلح وقد جعل حوش البيت الكبير للجمل الذي يتقاسم معه
قسوة الحياة ويعامله كواحد من أبنائه حتى كان اليوم الذي رأيت جميع
الناس في شارع السوق يتراحمون أمام تلفزيون قهوة أبو شنب وسمعت أن

الجيش العراقي هجم على الكويت واعتبرها أرضه والناس أكثرهم معارض لغزو العراق للكويت الصغيرة الغنية ..

لم أهتم أول الأمر بما يحدث لكن فوجئت وأنا بالبيت بصراخ فخرجت أمي وخالتي وعادت عفاف بخبر موت حسين بن علي الجمال ودفنه إخوته في العراق وعندما خرجت رأيت الجمال وزوجته يهيلان التراب على رأسيهما والجيران يهدثون من هلع عم علي، لم أتحمّل الموقف فعدت إلى البيت، جلست قبالة عفاف التي قالت لي دون أن تبسم كعادتها :

- الناس ماتت في العراق وما قادرين على العودة ..

تخيلت نفسي هناك وحدث الغزو وعجزت عن الرجوع، حمدت الله أني بين أمي وخالتي وعفاف، تأكد لدي إحساس قوي بأن أفضل مكان في العالم هو بلدي، لكن خبر ابن الجمال دفعني إلى الاهتمام بمتابعة أخبار حرب العراق ونداءات الرؤساء لصدام حسين أن ينسحب بجيشه من الكويت حتى لا يعرّض المنطقة كلها لغزو أجنبي تقوده أمريكا، رويدا قلّ اهتمامي بمتابعة أخبار الحرب وأخبار المصريين العائدين من هناك وراودني شعورٌ بأنني أستطيع أن أحسن من حالي وأنا في مكاني ..

لم يستطع علي الجمال بعد أسابيع من الحزن إلا أن يجهز الدور الأرضي ليستتر به مع زوجته تاركا الأدوار العليا على الطوب الأحمر وعاد مرة أخرى يحمّل جملة بالبوص والتبن وتوافدت الأخبار المهولة عن العراق التي استعدت دول الغرب وأمريكا بقيادة جورج بوش لضربها وتحرير الكويت ..

رأيت مقنع في تلك الليلة مهموما، أخبرني أن أخاه وجيه سيسافر ضمن مشاة البحرية المصرية للاشتراك في حرب تحرير الكويت لكنني طمأنته بأنه واجب قومي وأكدته له أنني كنت أتمنى لو أنني جنديا في الجيش وأشارك في تحرير الكويت لكن مقنع مفزوع من الخطر الذي قد يتعرض له أخوه في صحراء السعودية ..

يومها سكّت وتمنيت وأنا عائد من القهوة إلى البيت أن أتابع أخبار الحرب أولا بأول وما إن دخلت حتى فوجئت بتليفزيون صغير ١٤ بوصة أبيض وأسود يستقر على الطبلية وأمي وخالتي وعفاف أمامه، تستقبلني أمي بابتسامتها الهادئة، تخبرني أنها اشترت التليفزيون بالتقسيط، فرحت به، جلست أمام القناة الأولى لأتابع الأخبار ثم قلبت الثانية لأجد نفس أخبار حرب العراق والكويت والأغاني الوطنية التي حفظت بداياتها من كثرة تكرارها كأغنية هاني شاكر : يا ابن عمي يا ابن عمي .. دمك هو دمي .. ليه تجيني الطعنة منك وفي عروقي يجري دمك ..

أما عبد الله الرويشد في : اللهم لا اعتراض، قد أبكى كل من يستمع له وكان الجميع يرددونها حتى عفاف سمعتها تغني وهي تجهز الأكل : مسجد الله بنيته ويقول مسجدي ..

• • •

بدأت الدراسة، أصبحت في الدبلوم .. استخرجت مع زملائي البطاقة الشخصية من السجل المدني وعندما أمسكتها شعرت لأول مرة أنني كبرت عشرات الأعوام دفعة واحدة ..

صورت البطاقة صورتين، غلفت إحداها حتى أحتفظ أكثر بالبطاقة الأصل والتي عرفت أنني لن أدخل امتحان الدبلوم إلا بها .

أوغل الشتاء ومكثت أغلب الوقت أتابع حرب عاصفة الصحراء التي انتهت سريعاً بانتصار قوات التحالف على الجيش العراقي فتابعته أحداثها لحظة بلحظة وذات ليلة تناهى لمسامعي صراخ وصياح، خرجت أنا وأمي التي لفت الطريحة على رأسها، عم شوقي السماك وسيد الجزار والمزين حربي وغيرهم أمام بيت علي الجمال، يهتونه تارة وأخرى يطيبون خاطره والرجل يزعق في ولديه اللذين حضرا لتوهما من العراق فقد عاد صديق وسيد عن طريق البر عبر السعودية ولا يملكون من حطام الدنيا إلا جلابيبهم التي تستر أبدانهم، بعد انصراف الجيران أقبل عم بشاي يتسند على كتف ميناء، سأل سيد عن ابنه كيرلس فأخبره أنه بخير ومستمر في العمل بالعراق، عاد عم بشاي إلى بيته وهو يدعو الرب والعذراء مريم أن يحفظا ابنه ويراه قبل أن يموت، أغلق الجمال بيته على ولديه فجلست أُمي مع خالتي تستعيدان الموقف وأنا منتظر بين لحظة وأخرى مثل خالتي رزقين التي لم تحرمني إياه فأنتت كلامها ب :

- رجعوا وكأنك يا أبو زيد ما غزيت ..

عاد صديق وسيد يساعدان في تحميل الجمال بأطنان البوص وأكياس العلف كما كانوا قبل سفرهم للعراق ولم تخيب خالتي رزقين ظني فيها عندما نثرت واحدة من حكمها المأثورة :

- رجعت ريمة لعادتها القديمة ...

جاءني عصام في سرعة ليخبرني بأن قصر الثقافة اتصل بي ويجب أن أكلمهم فرجعنا إلى بيته أول الشق؛ اتصلت بهم فكلمني الموظف وأخبرني بأنه علي التواجد إلى مقر القصر ليلة الخميس لحضور الاحتفال بالفائزين في المسابقة الأدبية وأخبرني أنه تم تأجيل تكريم الفائزين أكثر من مرة بسبب ظروف حرب الخليج، هممت أن أسأله عن فوزي لكن سماع التليفون كانت أسرع لإنهاء المكالمة المقتضبة ..

جاءت ليلة الخميس، ارتديت القميص الكاروهات والبنطلون الأسود وهما أفضل ما أذكرهما للمناسبات الهامة، مررت على عصام، عرضت عليه أن يأتي معي فأبدي استعداداه لمرافقتي ..

اقتربنا من بيت الثقافة فرأيت عددا ليس بالقليل في حديقة الطفل المقابلة، جلست في الخلف وبدأ الاحتفال بقراءة ما تيسر من آيات الذكر الحكيم ثم بدأ مقدّم الحفل في الحديث عن المسابقة وتهيأت لسماع أسماء الفائزين لكنني وجدته يقدم أحد الشعراء لإلقاء قصيدة شعرية، استغربت للكلمات التي يرددوها الشاعر فليست كما درست في المدرسة ولكنني فهمت أنها قصيدة كما يدعي عن الغزو العراقي للكويت ..

توالت القصائد التي يلقيها الشعراء وجميعها تتعرض لما يواجه الأمة العربية من خطر نتيجة الحرب .. وقف أحدهم يخطب ومن خلال خطبته يعرض لأبيات شعر عن أجداد العرب الماضية ثم تحدث عن سيرة زعيم الأمة جمال عبد الناصر وعن انتصارات السادات والاستقرار الذي نعيشه هذه الأيام حتى كانت تلك الحرب التي ستذهب بالأخضر واليابس على حد قوله ..

لا أخفي أنني شعرت بالملل وهمت أن أنصرف لكنني مسرور من كلام هؤلاء البشر الذين لم أقابل معهم إلا اليوم فهم مختلفون عن أهل الشق بحياتهم العادية وحكاياتهم المكرورة، يمرّ علينا العامل بصندوق الكوكاكولا وبعدها مباشرة بدأ المقدّم في عرض أسماء الفائزين الثلاثة في الشعر الفصيح وخرج الشعراء الواحد تلو الآخر لتسلم المظروف الكبير ولفّة صغيرة في كيس وسط تصفيق الحاضرين ثم خرج الفائزون في الشعر العامي وتسلموا جوائزهم وعندها ملت برأسي على عصام لأسأله عن العامي وقبل أن يتكلم أتاني صوتٌ من الخلف يجب أنه الشعر الذي يكتب بلغتنا التي نتحدث بها في حياتنا اليومية ثم سألني : هل سمعت الليلة الكبيرة ؟ فأجبتة على الفور: نعم وأحفظ الكثير من أغانيها فقال : إنها من الشعر العامي للشاعر الكبير صلاح جاهين .

التفت إليه فوجدته شيخا من شيوخ الأزهر وعرفني بنفسه أن اسمه الشيخ فتحي، هممت أن أسأله عن شيء لكن المقدّم بدأ في إعلان الفائزين في فرع القصة القصيرة، أعلن اسم الفائز الأول الذي رأيته يصعد المنصة في

ثقة وهو يرتدي قميصاً أسود وكرافتة رمادية، دق قلبي لاسم الفائز الثاني، رجل كبير السن، هز رأسه في لا مبالاة وهو يغادر المنصة، أيقنت أني لست ممن حالفهم الحظ وسط كل هؤلاء المحترمين الذين لا أعرف منهم أحداً إلا موظف القصر الذي سلمته المظروف منذ شهور ..

أخيراً أعلن المقدم اسم الفائز الثالث فجحظت عيناى وسقط قلبي بين ضلوعي والمنادي يكرر الاسم وعصام يرفع ذراعى فنهضت وقدمائى لا تكادان تحملانى، صعدت المنصة؛ سلمت على أول الواقفين الذي عرفت بعدها أنه رئيس مجلس المدينة ثم الثانى والثالث الذي سلمنى المظروف الكبير واللفة الصغيرة ..

نزلت والدماء تكاد تبك من وجهى، عدت مكاني جوار عصام الذي هنأني بالفوز هو والشيخ فتحي وأنا أجيبهم والدموع تسيل على خدي فأمسحها في سرعة، فتحت المظروف الأصفر فأخرجت ورقة كبيرة مكتوب في وسطها بخط سميك مذهب (شهادة تقدير) ثم اسمي في الوسط والمركز الثالث وعنوان القصة، المظروف الصغير الذي سحبتة أخرجت منه مبلغ ثلاثين جنيهاً دق قلبي لرؤيتها ..

أنهى المقدم الحفل بشكر كل من شارك في المسابقة من محكمين وفائزين وحاضرين وقرب انصرافي أوقفني أفندي مربتا على كتفي وهو يقول لي :

- قصتك : الشيخ رمضان - قصة جميلة وإنسانية وبها خيال فني ولكن لولا بعض الأخطاء النحوية وزيادات في القليل من التعبيرات لفازت بالمركز الأول، أصدقكم القول أنني لم أفهم معنى الخيال الفني ولكني هزرت رأسي فأكمل كلامه :

- اقرأ كثيرا لكتاب القصة في مصر وستكتسب خبرة كبيرة في الكتابة..

- حاضر يا أستاذ ..

- زكريا ..

يأتيني صوت الشيخ فتحي الشاعر والأديب الذي انضم للحوار ..

- الأستاذ زكريا .. قاص وأديب من أسويط وهو الذي حكّم المسابقة

يا غريب ..

سلمت على الأستاذ المهيب وشكرته على نصائحه، اصطحبنا جمع الضيوف إلى موقف السيارات فركبوا جميعا الميكروباص وآخر ما وقعت عليه عيناى وجه الأستاذ زكريا وهو يشير بيده مودعا..

عدتُ مع عصام إلى الشق، أكاد أظير من شدة الفرحه، دخلت البيت، خالتي وأمي وعفاف أنفاسهن تعزف على أوتار النوم الهادئ، جلستُ على سريري، فضضت اللفة الصغير، عددت خمسة كتب : الأول قرأت عنوانه الغريب : بيت من لحم ليوسف إدريس، قنديل أم هاشم ليحيى حقى، مختارات لمحمد البساطي .. استغربت كلمة مختارات وقلبت في الكتاب فوجدت فيه أكثر من ثلاثين قصة قصيرة لهذا الكاتب ثم رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ .. كررت الاسم وتذكرت أنى شاهدت الفيلم أكثر من مرة في التلفزيون وأخيرا الحرام ليوسف إدريس وأيضا شاهدت فيلم الحرام وسعدت أننى سأقرأ القصة، قلبت في صفحات الكتب وأنا أهين نفسي لقراءتها من الغد ثم عددت الفلوس مرة أخرى وصممت في قرارة نفسي أن أشتري بها قصصا وكتبا كالتي أأامي أما شهادة التقدير فقد ثبتها على الجدار بقليل من الصمغ

وظللت طوال الليل أتأملها هي والكتب التي فردتها جوارى على المرتبة وأنا
أشعر بأنني أصبح لدي أصدقاء سيعيشون معي دائماً غير الذين أستعيرهم
من مكتبة المدرسة وأعيدهم مرة أخرى ..

صحوتُ وأنا أشعر أني في حلم لكن جائزتي من الكتب جعلتني أصدق أن كل ما حدث حقيقة، أول من أخبرتها كانت عفاف التي استيقظت مبكراً فأبدت إعجابها لشهادة التقدير وطلبت مني أن أحكي القصة التي فازت فرويتها وهي تستمع في اهتمام وتوقفني إن لم تفهم كلمة فأعيد قراءتها بالعامية فتهمز رأسها إشارة الفهم .. أفاجأ بعد انتهائي من القراءة بأمي التي وقفت أمامنا وهي تهز رأسها :

- أبقى غطي نفسك بالليل ... بلا هلوسة ..

طيّبت عفاف خاطري بكلمتين وساعدتها على الوقوف لتشارك مع أمها في تحضير الإفطار قبل رص البضاعة، أجلس أغلب الوقت وأنا أقرأ، مازلت أتذكر كلمة خالتي عندما سألتني عن الكتاب الذي أقرأ فيه فأخبرتها أنها قصة : الحرام .. فقالت بطيبتها المعهودة :

- الحلال يا ولدي أحسن لك بدل الحرام، ربنا يبعدنا عنه ..

ضحكت في قرارة نفسي من تعليق خالتي الساذج واستأنفت قراءة الرواية بعد ظهر الجمعة حتى أظلمت علي الدنيا وأنا غارق في الحرام حتى انتهيت منها قرب النوم .

• • •

أمام دكان عم بشاي المفتوح أقف مع مينا نتحدّث ونخبرني أن أخاه اتصل بهم وأنه بخير، يغلق مينا الدكان على كرات القماش وبالات الصوف الشحيحة ويدخل البيت، شاب لا أعرفه يلقي عليّ السلام ويقترّب مني، أدقّق في وجهه الأسمر ولحيته الخفيفة، ألاحظ أصابعه لا تكفّ عن دوران حبات المسبحة حتى وهو يتكلّم معي، يسألني عن سبب وقوفي مع مينا بشاي فأخبره بحماس أنه جاري وتربينا معا في الشق، يطلب مني وهو يتصنّع الخوف عليّ أن أقاطعه وعندما سألته عن السبب يجيب ببلاهة لأنه نصراني..

أمعنت النظر إلى وجهه ورفض أن يخبرني عن اسمه عندما سألته لكنني أكدت عليه أنني لم أر من مينا بشاي أو أبناء الأستاذ رمزي غير الخير والعشرة الطيبة وعندما هممت أن أحدثه عن علاقة أهل الشق ببعضهم قاطعني مغيرا نبرة كلامه وهمّ أن يجادلني لولا خروج مينا من البيت بيده صينية الشاي فأنهي كلامه في سرعة وانصرف، سألني مينا عنه فأخبرته أنه شخص تائه ويسأل عن عنوان خاطئ، شربت الشاي واستأذنت مينا في الانصراف، قعدتُ أمام عتبة البيت وأنا أفكر في كلام ذلك الشاب وأستعيد أحداث حياتي السابقة فلم أجد ما يجعلني أقتنع بوجهة نظره فلم أر من جيراننا جميعا غير الخير فطردتُ كل كلمة قالها لي بها فيها عرضه لحضور لقاءات في أحد المساجد خاصة بهم واستخففت بما قال ولم أجد له مبررا لمقاطعة إنسان هادئ مثل مينا بشاي وأمّه هي التي سقت الشق كله من براميلها أيام انقطاع المياه غير عم فنجري الذي لم يفرّقه عن أبي إلا الموت ويأتينا مهرولا ولو في منتصف ليل الشتاء تقديرا لصداقة أبي ولا أحد يقدر ما تفعله الجدة معزوزة معنا

وابنها الأستاذ رمزي لا يرفض طلبا تطلبه منه أمي، كل ما فكرت فيه جعلني أعرض شفتي غيظا من قليل العقل الذي يريد أن يهد علاقات ممزوجة كالماء باللبن فمارست هوايتي القديمة في أن ألقى بها لا أريده في هاوية النسيان .

• • •

كيس البضاعة الذي أحمله منذ أن غادرت تاجر الجملة بشارع يسري راغب يكاد يقصم ظهري، أنزلته من على كتفي حتى ألتقط أنفاسي، اتسعت عيناى للكتب المرصوفة على الرصيف .. سألت أحد الواقفين عن البائع فأخبرني أن اسمه : عم جمعة ..

اقتربت بالكيس من الكهل الذي ينهمك في إخراج الكتب القديمة من قفص صغير، ألقى عليه السلام، دون أن يلتفت إلى يتمتم في هدوء، ركنت كيس البضاعة جوار الجدار، قلبت في الكتب مثل الآخرين، أمسكت باللص والكلاب لنجيب محفوظ وجذبتني الصورة المرسومة على الغلاف القديم ثم كتاب بلا غلاف اسمه شيء من الخوف، هممتُ أن أتركه لأنني أعشق الكتب ذات الأغلفة لكن شيئا جعلني أقلب في أوراقه الصفراء ثم أبقيه معي أما الثالث فكان الزيني بركات لجمال الغيطاني، قدمت الكتب إلى عم جمعة الذي قلب فيهم وهز رأسه وهو يقول في تصميم : جنيه ونصف ..

أعطيته الفلوس فسحب كيسا ووضع الكتب فيه، اتجهت مباشرة بكيس البضاعة إلى موقف الميكروباص تحت كوبري الهلالي، شرعت في تصفّح ما اقتنيته من كتب، أفاجأ بأصابع يد الراكب جوارى تقبض على اللص والكلاب؛ ألتفتُ إليه فيسألني إن كنت شاهدت الفيلم فأجبته : بكل تأكيد .. يسألني :

- ما الفرق بين القصة والفيلم ؟

- لما أقرأ الرواية أقول لك ..

لمحت في عينيه نظرة إعجاب من الرد وصمت ليتيح لي الفرصة كي أتفرّس في وجهه الممتلئ ونظارته السميكة، قصير القامة مثلي لكنني أنحف منه، يمسك بين يديه أوراقا كثيرة وعندما رأي أنظر إليها أخبرني أنها دروس في اللغة الفرنسية .. عرفت منه أنه في الصف الثالث الثانوي وأنه مهتم بقراءة القصص في أوقات فراغه، وأحيانا يكتب، أخبرته بكل فخر أي كنت من الفائزين في مسابقة بيت الثقافة، فوجئت أنه لم يعرف بأمر المسابقة بسبب الدراسة ومذاكرته لكنه هنأني على الفوز وصمت، تجرأت وسألته عن اسمه فأخبرني أنه أيمن .. فاه باسمه فقط دون أن يكمل بقية الاسم ولكنني تجرأت وقدمت نفسي له قائلا : غريب ضيف عوض العريان ..

هزّ رأسه وعاد مرة أخرى إلى الصمت فاحترمتُ صمته حتى اقتربت العربية من بني مر فالتفت إليه وأنا أخبره أنها بلد الزعيم جمال عبد الناصر لكن استمرار صمته جعلني أتشجع وأتمادى في إخباره أن أبي كان يحب عبد الناصر لأنه عمل في بناء السد العالي وهو صغير ولديه صورة أبيض وأسود قديمة له وسط العمال في موقع السد والكثير من صور عبد الناصر معلقة على الجدار إلى الآن ..

انتظرت تعليقه على كل ما استعرضته من معلومات حسبت أنه سيندهش بها لكنه تحدّث بصوت خفيض معبرا عن إعجابه بمنجزات الثورة لكنه أردف بعبارة لم أفهم مغزاها :

- كل إنسان له أخطاء .

ثانية يحيط نفسه بأسوار من صمت غامض لكنني استرجعت كلمته الأخيرة وترددت أصدااء حكايات أبي عن عصر عبد الناصر ونهوضه البلد وكان دائما يقول : لولا عبد الناصر لبقينا طول عمرنا نشعل لمبات الجاز ولما نورنا البيت بالنيون أو نطبخ على الكانون ولما بقي عندنا بوتاجاز، ولولا عبد الناصر لما تعلم أولاد الشعب في مدارس حكومية انتشرت في كل بلد وقرية، أندھش من رأي ذلك الشاب لكنني أجد نفسي منجذبا إليه وأحب الحديث معه مرة أخرى ..

تقترب الميكروباس من تشابُك الطرق المؤدية إلى البلد وقرى بني زيد والأكراد والطوايبة، يهدئ السائق من سرعة السيارة إلى أن توقفت خلف صف طويل، أخرجت رأسي من النافذة لألمح سيارات الشرطة ..
- أكيد، لجنة تفتيش ..

قالها أيمن دون أن يحرك رأسه فأكدت على كلامه وتهيا كل منا للموقف فأخرجت بطاقتي وعندما اقتربت الميكروباس من اللجنة فتح صبي العربية بابها، يطل أمين الشرطة على كل من بالداخل، لم يلبث أن تنحى جانبا للضابط المتقدم نحونا ..
- انزلوا ..

ما إن أمر حتى صدع الجميع ولم أفطن أنه ليس بالعربة بنات أو سيدات إلا الآن فقد نزل الجميع وجرى التفتيش السريع بعد تفحص بيانات البطاقة الشخصية، ارتجفت روحي عندما دقق الضابط النظر في بطاقة الشاب المجاور لي ثم حدجة بنظرة شك، التفت إلى العريف وأمره بأن يقود الشاب إلى عربة

البوكس الزرقاء والولد لم يجرؤ على الاعتراض أما أنا فقد قلبوا كيس البضاعة وعبثوا بعلب البسكوت والبنبوني الكثيرة ثم وقف أحد المفتشين يهز رأسه إشارة النفي وبهزة رأس مماثلة من أمين الشرطة جمعت بضاعتي في سرعة، بعين قلقة رمقت أيمن والضابط يتفرّس في بطاقته ثم أعطاها له مشيراً بيده إلى الأمين بأن نتحرك فركبنا السيارة في سرعة، أغلق الصبي بابها في قوة فتحرّكت مبتعدة وأنا ألمح الشاب في سيارة البوكس يتقطر الأسى من عينيه القلقتين ..

الميكروباص يقترب من قرية الحّمّام والراكبون يزداد لغطهم حول ما حدث، أسمعهم يرددون أن اللجنة من شرطة تنفيذ الأحكام وآخر يؤكد أنهم يبحثون عن إرهابيين وثالث يقر أن الشاب الذي أخذه في البوكس من الجماعة الإسلامية، لكنني اقتديت بأيمن ولزمت الصمت حتى توقفت الميكروباص في الموقف، نزلت من العربة ساعدني في حمل كيس البضاعة، بعبارات مبتورة انتهت مقابلتنا، خطأ أمامي وابتعد ثم غاب عن عيني في زحمة السوق ..

• • •

ركنت الكيس جوار باب البيت، بسرعة نهضت أمي وخالتي رزقين لترصا العلب على المنضدة التي ضاقت بما عليها أما عفاف فقد انشغلت في غسيل الملابس وعصرها، ارتيمت على السرير الجريدي وأنا أسترجع أحداث ساعاتي الفائتة وأتخيل أن الضابط أمر بأن أركب البوكس فأغيب عن البيت مدة لا يعلمها إلا الله فضلاً عن ضياع البضاعة التي دفعنا فيها ما استطعنا

من مال، غير قلق أُمي وخالتي وجنونهما على غيابي، بصعوبة طردت كل ذلك من رأسي لكنني قررت أن أُنَجِّب الاحتكاك مع الشرطة لأي سبب من الأسباب وحمدت الله أني الآن بين أسرتي الصغيرة لا في إحدى حجرات الحجز والتعرُّض لسين وجيم لمدى لا يعلمه إلا الله ..

أنهت عفاف عصر الملابس وكانت مهمتي التالية أن أصعد بطبق الغسيل لأنشره على السطح، حملته بين يدي مارا بالجدار المثبت عليه صور عبد الناصر فأتأملها في افتخار وقد غطى حديث أبي عنه على أي كلام آخر، على الحبال الرفيعة نشرت الغسيل ثم نزلت على الفور وبدأت أفتح كتبي وأذاكر لإنهاء امتحان الدبلوم الذي يقترب يوما بعد يوم .

بحلوها ومرها انتهت الامتحانات، عشت أياما أختبئ مع اللص والكلاب وأياما أخرى أشارك أهل الدهاشنة في شيء من الخوف، أما الزيني بركات فقد أخذت مني أسابيع في قراءتها حتى أنني كنت أعيد قراءة الفصل حتى أفهم أحداثه، تمنيت في قرارة نفسي أن تتحول الزيني بركات إلى فيلم أو مسلسل لأرى الشخصيات تتجسد أمامي وأستمتع بها كالعادة ..

زاد التصاقي بعصام الذي لم يتوقف عن إمدادي بما أحب أن أقرأ من قصص وزدتُ على ذلك اشتراك الاستعارة بمكتبة بيت الثقافة التي أمدتني هي الأخرى بنهر من الروايات والقصص حتى ضاقت أُمي من البقاء على السرير أو فوق السطح ممسكا بكتاب وترك حمل البيع لعفاف ..

ومضت لي فكرة أحببتُ أن أرضي بها أُمي وهي خلع الشباك الجانبي وبناء محل مكانه، دكان ككل الدكاكين بدلا من المنضدة التي نرص عليها البضاعة ونخرجها في الصباح ثم ندخلها آخر النهار، أول الأمر استخفت أُمي بالفكرة لكن حماسة خالتي رزقين لَين قلبها، لم أتردد وذهبت مع عصام إلى أحد البنائين واتفقت معه على العمل فقاس من داخل البيت ثلاثة أمتار

في مترين أي مكان سريري الجريد، حفرت أساسا للجدار الجديد وأخذت أمي الطوب من هدد بيت علي الجمال وعندما أرادت أن تعطيه ثمنه رفض وسمعتة يقول لنا :

- عيب يا أم غريب، الجيران لبعضها، والنبي وصّى على سابع جار ..
يومان من العمل وتم بناء الدكان الصغير بعد أن حوّل الشباك إلى فتحة كبيرة ثبت عليها بابا خشبيا قديما وجاء دور عصام ليصل سلك الكهرباء إلى الدكان الذي أناره بمصباح صغير، اجتهدتُ في تثبيت الأرفف ولم تستغن أمي عن المنضدة وجعلتها بنك الدكان ..

شعرت عفاف بالفخر لامتلاكنا دكانا كأبي بقال آخر لكن عصام حذرني بأنه يجب استخراج رخصة فذهبت مع أمي إلى الأستاذ رمزي وعرضنا عليه فكرة أن يكون الدكان باسمي لكنه وضح أن ذلك سيحرمني من الوظيفة فيما بعد واقترح أن تستخرج الرخصة باسم أمي أو خالتي رزقين، فهمت أمي قصد الأستاذ رمزي لأنها وخالتي لا تنتظر أي واحدة منهما وظيفة حكومية أما أنا فيمكن الالتحاق بعمل في الحكومة فيما بعد، شكرت أمي الأستاذ رمزي واستأذنته في زيارة أمه الست معزوزة، تركتني أمي بمفردي مع الأستاذ الذي أصبح وكيل الإدارة التعليمية فسألته عن فرحان فأخبرني أنه يسعى للسفر وقدم طلب هجرة إلى أمريكا أما وحيد فقد سافر إلى ميلانو بإيطاليا ويعمل في المطاعم، هممت أن أسأله عن كيفية السفر إلى إيطاليا لكن أمي نادت علي فاستأذنت لأعود معها إلى البيت .

اجتمع شملنا على طبلية العشاء وأثناء تناوله تبادلنا الآراء واقترحتُ عليهم أن تكون الرخصة باسم عفاف، تبادلنا أمي وخالتي النظرات، لاحظت لأول مرة الفرحة في عيني عفاف لاهتمامي بها وعلى الفور بدأت صباح اليوم التالي في إجراءات استخراج رخصة الدكان وعلى لوحة من خشب الحبيبي كتبت :

بقالة عفاف

شعرت وأنا جالسٌ في الدكان باحترام نفسي وب نظرة التقدير من الناس الذين يقفون أمام الدكان لا أمام بضاعة مرصوفة على قفص وكيس خيش أو منضدة قديمة وتبادلنا أمي وخالتي الوقوف في الدكان في حال تغيبني أو انشغال عفاف بنظافة البيت والمواعين أو تجهيز الطعام ..

• • •

انقضت أيامٌ ما قبل ظهور نتيجة الدبلوم وأنا لا أفكر إلا في السفر إلى إيطاليا؛ تلك الفكرة التي شعشت في نفسي وملكت كل تفكيري وهممت أن أذهب إلى الأستاذ رمزي لأسأله عن طريقة للسفر لكنني عرفت أن واحداً من أبناء علي الجمال سافر إلى إيطاليا ليعوض ما فقدته في العراق وانتظرت حتى رأيت الجمال ينيخ فحلته ويدخل ما عليه من أطنان البوص في بيته ثم يجلس على العتبة يدخل الشيشة فسلمت عليه، دعاني إلى الجلوس ولم تلبث أن جاءت خالتي وديدة زوجته بصينية الشاي، ترحمت على ابنه حسين الذي مات في العراق ودفن بها وسألته عن صديق فيجيني من بين انقباضات وجهه الجهممة أنه يعمل الآن كهربائي سيارات وجاء الدور للسؤال عن

سيد الأوسط فأخبرني أنه اتصل من بلد اسمها زوارة في ليبيا وأنه سيركب السفينة إلى إيطاليا قريباً ..

تعجبت من هذه الأخبار التي لم تخطر على بالي وزاد تصميمي على السفر بعد أن تملكنتني روح المغامرة، صحراء ليبيا وركوب البحر إلى سواحل إيطاليا وبعدها العمل والفلوس، عدت إلى البيت وأنا أنتظر اليوم الذي تظهر فيه نتيجة الدبلوم وأغير البطاقة بدل طالب إلى حاصل على دبلوم الثانوية الصناعية ثم أستخرج جواز السفر وأدبر الفلوس اللازمة للرحيل حتى لو بيعت الدكان نفسه ..

لم أفتح أمني في الأمر وفضلت الانتظار إلى ما بعد ظهور النتيجة بالنجاح وهنا يكون طلب السفر لا مانع فيه إذا كان للبحث عن شغل ..

مرّت الأيام بطيئة حتى ظهرت النتيجة، عدت إلى البيت وقدمائي لا تلمسان الأرض من الفرحه لكنني لم أجد إلا عفاف تجلس على كرسيها داخل الدكان وهي واجمة، تخبرني فور حضوري بخبر وفاة جدي معزوزة، كالصاعقة وقع الخبر عليّ، دخلت البيت وبكيت على السيدة الطيبة التي لم نر منها إلا كل خير، بسرعة استخرجت من صندوقي القديم عروسة قد صنعتها لي وأنا صغير من العجين ولا يزال كلامها الجميل يرن في ذاكرتي :

- من هذه يا غريب ؟

أجبت في سرعة ..

- ثني معذودة ..

يومها ضحكت أمني وضحكت أم وحيد وفرحان وماري وحضنتني جدي معزوزة وأعطتني قرص فطير محلى بالعسل الأسود ... من خلف

القلب المضفور من سعف النخيل أخرجت العروسة اليابسة لكنها تهتكت بين أصابعي بعد أن نخر النمل جسدها المتشقق، تمنيت أن أكون جوار ماري وقت حزنها فأنا أعرف مدى ارتباطها بجدها الحنون، خرجت متجها إلى بيت الأستاذ رمزي لكن فوجئت بأمي تشير إليّ بأن ألق الجنازة في كنيسة مارفام، دخلت الكنيسة الكبيرة، جلست في آخر صف وبعد أن أنهى القسيس صلواته، اشتركت في حمل الصندوق المرسوم عليه صليب كبير بطول الغطاء حتى السيارة ودخلت بها، جلست جوار الأستاذ رمزي وابن أخيه بطرس. انطلقت السيارة خلفها العديد من الجرارات وعربات الميكروباس، انقضى قرابة نصف الساعة قبل الوصول إلى قرية الدير الجبراوي حيث مدافن المسيحيين وتم إنزال الصندوق من العربة التي توقفت أمام الحوش الكبير، بسرعة أدخلوه المقبرة وأغلقوا بابها الحديدي، مرّ طابور كبير من المعزين فقرأت نظرات الاستغراب من بعضهم لوقوف جوار الأستاذ رمزي لأخذ العزاء حتى انتهى المجاملون وعدنا إلى البلد والغصة تكاد تخنقني، لاحظتُ حزن أُمي الشديد على السيدة معزوزة ولأول مرة أراها تبكي على أحدٍ بعد أبي ...

بعد المغرب جهزت براد شاي كبير وصينية عليها عشرون كوبا حملتهم إلى سراق العزاء، صببت الشاي وفرقته على القاعدين وساعدني بطرس في التوزيع، جلستُ جوار الأستاذ رمزي، بقيت حتى فرغ البراد ثم جمعت الأكواب وعدت إلى البيت ..

أخيرا سألتني أمي عن النتيجة وعندما أخبرتها أنني نجحت هزّت رأسها
في لا مبالة وسكتت، سألتها عن ماري فأخبرتني أنها مفطورة من الحزن على
جدتها التي كانت روحها فيها وأنها أيضا تنتظر نتيجة الثانوية العامة ..

بعد تغيير بيانات البطاقة أفضيت لعصام بما في نفسي من رغبة في السفر لكنه أكد لي أن الأمر يحتاج إلى مبلغ كبير والانتظار في ليبيا بل والسفينة لا أمان بها وإن وصلت إلى إيطاليا وضبطتُ هناك فالترحيل هو المصير المنتظر لأنهم يعتبرونني مهاجر غير شرعي؛ أوجمني كلام عصام وحسبته يهول الأمر لي حتى لا أغادر وأترك أُمي وحدها فقررت أن أتأكد من كل هذه المعلومات من الأستاذ رمزي ولكن بعد عودته من السفر إلى القاهرة لقضاء بعض المصالح كما عرفت من أُمي ..

أستيقظ على صوتِ صراخٍ يدوي من بيت علي الجمال؛ تجمّع كل الجيران وانتشر الخبر الذي جعل قلبي يرتجف وعندما خرجت نحو بيت الجمال رأيت عم شوقي السماك يخرج من البيت وهو يضرب كفا بكف وتخرج كلماته مبعدة :

- السفينة غرقت ..

كصواعق السماء انصبَّ عليّ الخبرُ المفجّع لغرق السفينة التي كان يركبها سيد بن علي الجمال أمام سواحل إيطاليا ولم ينج إلا القليل وسيد من الشباب

الذين انتشلت جثثهم فوق الصليب الأحمر، عم علي يهذي وزوجته خالتي
وديدة تهيل التراب على ناصيتها والجيران يحاولون تهدئتهم أما صديق المتبقي
من أبناء الجمال فلم يره أحد منذ جاءه خبر غرق أخيه، هذه المصيبة كانت
كفيلة بأن تدمر أية رغبة عندي في السفر وحمدت الله أني لم أفتح الموضوع مع
أمي ..

كرهت الدكان وبيوت الشق كلها، سئمت جلسة حربي المزين في زاوية
بين بيتين، كرهت انحناء المقدس بشاي على أوتار النول القديم، أغمضت
عيني حتى لا تقع على زنبيل شوقي السماء المملوء نصفه بالبطني والذباب
يحوم حوله أما الوشرة التي يقطع عليها سيد الجزار اللحم فتمنيت أن أحرقها
حتى أم وجهه التي أحبها لم أطق النظر إلى وجهها الطيب وشعرت بصوت
ماكيتها يصم أذني، كرزت أسناني لمخيمر السحلية الذي رأيته يترنح أمام
الشق فهممت أن أختطف زجاجة السبیرتو من يده وأكسرهما على رأسه،
ضاق صدري، عدتُ إلى البيت، تمددت على السرير ساكتا وبمجرد أن
عرضت عليّ عفاف تجهيز العشاء زعقت في وجهها ونهضت خارجا من
البيت ولا أعلم إلى أين أسير ..

قادتني قدماي إلى أول البلد، جلست على مقعد بحديقة الطفل، أرى
نوافذ مكتبة بيت الثقافة مفتوحة ولكني لم أصعد وفضلت الجلوس في
الحديقة، إلى الورااء أرحت رأسي، أغمضت عيني وتوقف عقلي عن التفكير،
برغم السيارات التي تمرق جوار سور الحديقة إلا أنني استرحت للحظات
حتى أخرجني منها سعال قريب ففتحت عيني لأرى الجالس بمفرده داخل

المظلة الخشبية الكبيرة التي تحيطها النباتات المتسلقة من كل جانب، لم أتبين ملاحظه، أدقق النظر لكن وجهه تخفيه الأغصان المتشابكة، مال برأسه فتذكرته ولا أدري سبب راحتي لرؤيته، نهضت من جلستي .. ذهبت إليه، ألقيت السلام فرد مبتسماً ثم دعاني للجلوس، ذكرته بنفسني وبأني ركبت معه يوماً في طريق العودة من أسبوط، تذكرني أيمن وسألني عن أحوالي ولا أدري لماذا انفتح له قلبي فتحدثت معه عن حياتي ورغبتني في السفر ثم خبر المركب الذي غرق قبالة سواحل إيطاليا فأكد معرفته بهذا الخبر الذي هزّ أنبوب كلها، سكت فاحترمت صمته الذي لم يطل ثم حدثني عن محاولة تحسين حالتي بقدر الإمكان وأنا هنا وسط أهلي ولن يحدث هذا إلا بتقبُّل الإنسان لنفسه ثم لظروفه أولاً ويجب من حوله وما حوله ويعمل جاهداً في الإصلاح ولا ييأس من فشل أول مرّة أو البطء في جني ثمار هذا الإصلاح والبدء ولو بشيء بسيط المهم أن يبدأ ..

ملكنتني أفكاره التي رأيتها معقولة بل وأكدت لنفسني وأنا جالسٌ معه بأنني بدأت في ذلك بالفعل يوم أن اقترحت بناء الدكان وعادت بي الذاكرة إلى عهود الطفولة عندما كنت أبتكر شاعات لأعلق عليها ملاسني بدل من إلقائها على السرير وأيضاً صناعة لعبي بنفسني وعندما أخبرته بما فكرت فيه تهلل وجهه فرحاً مؤكداً أن بداخلي بذور تغيير الحياة للأفضل وعليّ أن أواصل، أراحني كلامه بشكل لم أتخيله ثم غيرت اتجاه الحديث بسؤاله عن نفسه فأخبرني أنه حصل على مجموع كبير في الثانوية العامة وتهيأً للالتحاق بكلية التربية قسم اللغة العربية أما عن الأوراق الكثيرة التي يفردها على

المنضدة الخشبية أمامه فأخبرني أنه يكتب رواية طويلة، أخبرته أنني قرأت رواية الحرام ليوסף إدريس وقصص بيت من لحم وقنديل أم هاشم ثم الزيني بركات التي رآها معي ونحن عائدان في الميكروباص، سألتني عنها فقلت له أن الغيطاني يصف حال الممالك والبصاين ومؤامراتهم بشكل جديد فأعجب برأيي ووصفني بأني ناقد، ابتسمت للكلمة الغريبة التي لم أفهم معناها فأوضح أن النقد هو إبداء الرأي في العمل بما فيه من إيجابيات وسلبيات، كانت مقابلته التي جاءت صدفة ممتعة وشفافة لضيق صدري، وددت ألا أتركه لكنه وضع أوراقه في مظروف أصفر كبير ونهض فتمشينا إلى أول الشارع ثم استأذن مني ومضى في طريقه ..

عدتُ إلى الشق مارا ببيت علي الجمال فرأيت نسوة الشارع لا يزلن في البيت حول أم حسين، مشيت ومن حين لآخر تتناهى لمسامعي أصوات البكاء والعديد المتواصل، دخلت البيت الخالي من أُمِّي وخالتي فعرفت أنهما يواسيان خالتي وديدة، جلستُ على السرير وعلى السرير المقابل عفاف منكفئة على نفسها، ذهبت إليها، جلست جوارها، رفعت وجهها، اقشعر قلبي لدموعها التي تبلل خديها، رأيت في عينيها انكسارا لم أره من قبل؛ أملتُ رأسها على صدري ومسحت شعرها، ضممتها إليّ في قوة فانخرطت في بكاء مكتوم، تركتها تكمل بكاءها حتى هدأت فمسحت خدها المبتل وابتسمت لها فبادلتني النظرات المعاتبة؛ قبلت رأسها معتذرا، عدتُ إلى سريري فجاءت لي بصينية عليها طبق فول وجبن وأرغفة، تناولنا العشاء صامتين ومن حين لآخر أربت على كتفها فاتسعت ابتسامتها البريئة وهزت رأسها علامة قبولها

الاعتذار، ساعة ودخلت أمي وخالتي رزقين فنمت منتظرا الصباح الجديد
لأفكر في إصلاحات يحتاجها البيت الذي نعيش فيه .

• • •

لا سلوى لي سوى الذهاب إلى عصام، فأجلس معه إلى قرب الظهر
حتى أقبل عليّ يوما وليد الصغير ابن السّاك ليخبرني أن أمي تريدني على
الفور فعدت أنا وعصام إلى الشق وعند اقترابنا قابلتني أمي وخالتي رزقين
في منتصف الطريق وأخبرتني أن الصندوق الذي يضم جثة سيد بن علي
وصل لتوه وذهبوا به على الفور إلى جامع البحر، أسرعنا إلى هناك، شاهدتُ
الرجال أمام الجامع والصندوق يخرج منه إلى سيارة الإسعاف التي أطلقت
السارينة ليفسح لها الطريق، ركب عصام المقطورة وساعدني على الصعود
جواره، انطلق الجرار ليستقبل الطريق الزراعي في طريقه إلى المقابر المجاورة
لقرية عرب القداديح ..

هناك، أخذ عم شوقي يدي، قادني إلى مقام الشيخ منصور .. تذكرت
شجرة السنط المائلة نحو منامة الصدقة، رفع كفيه ؛ قرأنا الفاتحة ثم استدارنا
لنلحق بالعزاء ..

• • •

جلست أمي صامئة ولا يزال أثر الدموع على خدها، أسمعها تردد :
- مسكينة يا وديدة؛ بقي لها ولد وحيد، دنيا فانية والله ..
تركتها وجلستُ على السرير، انطويت على نفسي، استغرقت في قراءة
- هارب من الأيام - لثروت أباطة التي شاهدت المسلسل منذ شهور في

برنامج (أبيض وأسود) لكن الرواية ممتعة، جعلتني أنشغل بقراءتها طوال الوقت حتى وأنا مع عفاف في الدكان وما إن انتهيت منها حتى بدأت في قراءة الرواية الأخرى وهي - السقامات - ليوسف السباعي فرأيتها أمتع كثيرا من الفيلم، ذهبت إلى بيت الثقافة لأعيدهما وأستعير غيرهما وهكذا أمضيت الشهور التالية في القراءة .

نظرت إلى البيت فاقترحتُ على أمي أن نهده ونبنيه من جديد بالمسّيح،
نقيم أعمدة خرسانية أو حامل ومحمول أفضل فضحكت هي وخالتي رزقين
التي أَلقت بمثلها :

- كفي على كتفك، العين بصيرة والـ ..

لم أدعها تكمل فانصرفت مغموما من أمامها، قابلت عصام القادم من
بعيد فيخبرني أنه قدّم على وحدة سكنية في عمارات مجلس المدينة التي ستبنى
أول البلد فرحت واقترحت عليه أن أقدم أنا الآخر و لكنه يصعقني بأن
اليوم كان آخر موعد للتقديم، عدت إلى البيت وأنا لا أطيق القعود فيه،
رائحة الكنيف لا تطاق، فراخ خالتي رزقين تمرح على سريري وتزيد عفونة
الملاءة أكثر مما هي عليه أما بلاليص تعتيق الجبن فسئمت منظرها القمئ
وعافت نفسي رائحة المش، الجدران تتسابق السحالي عليها أما الفئران فقد
اتخذت من السطح أوكارا لها بعد أن تتسحب وتتناول طعامها من المشنة
المركونة أسفل السلم ..

جلستُ أمام البيت والغصّة تكاد تخنقني، لاحظت غياب أمي وخالتي، بصوت مهزوم سألت عنهما عفاف لكنها لا تعلم شيئاً، انقضى النهار وأنا على حالي من القلق الممزوج بالانكسار حتى جاءت أمي وخالتي وخلفهما جرار يرجع بالمقطورة إلى الخلف بحرص شديد ولم يلبث أن يفرغ حملتها فغَبَر التراب المطرح من حولنا، ببطء يخرج الجرار من الشق الضيق وتجبب أمي على عيني المستفهمتين بأن هذه أول مقطورة والثانية في صباح الغد أما الطوب الذي اشترته من أنقاض بيت مهديم فسيأتي بعد الظهر وهذا كله للبدء في بناء غرفة كبيرة بسطح البيت ..

حاولت أن أقنعها أن البيت لا ينفع فيه أي بناء أو إصلاح ويمكن بيعه وشراء شقة سكنية نظيفة نعيش فيها جميعاً لكنها أصرت على بناء الغرفة العلوية واستخفت برأيي وتهكمت خالتي رزقين بما عرضتُ مؤكدة أن الشقق ضيقة وسقفها واطئ ولا تستطيع أن تبني فرناً بها بالإضافة أنه سيضايقك من يسكن فوقك أو تحتك أو جوارك ولن تستطيع أن تربي فرخة فيها وكعادتها ختمت كلامها بواحد من مخزن أمثالها ..

- قيراط ملك ولا فدان مشاركة ..

لم تفلح أي محاولة في إلغاء فكرة البيع وأصرت أمي على بناء الغرفة وفاجأتني بدموعها تسح مبللة خدها وخرجت كلماتها في صوت مرتعش :
- أبوك بنى البيت وتزوج فيه، وخرجت منه أختك نفيسة ولما ماتت أمها تزوجني وولدتك فيه وأنت على آخر الزمن تبيعه يا غريب ..

رأفتُ لحال أُمي البسيطة التي نشأت على المكوث في بيت أبيها ثم أبي وهي من النوع الإنساني الذي يشعر بحنين لكل قالب في البيت ولمست هذا في إبقائها لكل ما هو موجود من رائحة أبي حتى الشيشة لفت خرطومها ووضعتها في الحاصل ولولا العوز والحاجة ما ذهبنا إلى الموالد في كل بلاد الله، مسحت أُمي دموعها وخرجت فاختلت بي خالتي رزقين وفيها يشبه الهمس سمعتها تخبرني بأشياء أول مرة أعرفها ..

- أبوك يا غريب كان صاحب جدك ولما طلب أُمك الصغيرة من جدك كان عمرها عشرين سنة وأبوك في الخمسين ولكن جدك فوزي زوجها له ولما حضرتك شرفت الدنيا كان المرض ودخان الشيشة هدوا صحته ..

سكنت خالتي ثم لحقت بأُمي على سطح البيت، جلست مع نفسي بعد أن أجابت خالتي على تساؤل كان يلح عليّ منذ الطفولة : لماذا أُمي صغيرة وأبي دائماً يستلقي على سريره ولا يعرف سوى الدخان وحقن عم فنجري؟؟!

آه على أُمي التي لم تبلغ الأربعين؛ تحمل من سنوات الهم والصبر جبالا، شعرت يومها بتفاهتي أمام تلك السيدة العظيمة التي رفضت أن تتزوج خلف الطرشجي مع أنه أكد لها أنه سيعاملني كابنه وصدت أي محاولة لعابثين حاولوا معها وأنا نفسي شاهدٌ على تلك المواقف وأقواها في ذاكرتي عندما نصبت كمينا لواحد من المهووسين بالحريم وشججتُ رأسه بالفلق في مولد الشيخ حسن، قررت أن أساعدها؛ أنفذ رغبتها في بناء غرفة في الدور العلوي، بثُ الليلة وأنا أتعجل الصباح لأبدأ في العمل ..

• • •

جاءني عصام والعصر يؤذن ليخبرني أنه ستقام ندوة أدبية في قصر الثقافة الليلة لكنه رأي في وسط بركة كبيرة من الطين المخلوط بالتبن وعفاف تمسك بخرطوم المياه الرفيع وأمي تخرج من البيت بكيس آخر مملوء بالتبن، خرجت من الطين، نظفت نفسي وأخبرت عصام بعزم أمني على بناء الغرفة، أشرت له إلى القوالب المكوّمة في الشارع والبناء سيأتي باكرا في صباح الغد فعرض عليّ أن يساعدني ولا يأتي البناء بأحد من العمال ..

فرحت أمني لأنها ضمنت أنها لن تتحمل إلا أجر برقي البناء وغذائه فقط ..

أهلت صفيحة من الماء الساخن على جسمي، ارتديتُ جلبابا نظيفا وبعد العشاء رافقني عصام إلى بيت الثقافة الذي رأيته يزدحم بالرواد، شاهدنا معرضا لفنانين من أبنوب، لفت نظري لوحة لمنظر ريفي مكتوب تحتها اسم الفنان الذي رسمها .. فرددت اسمه بصوت مسموع :

- صابر فتحي ..

- أنا ..

التفت إليه فرأيت؛ بينت له إعجابي باللوحة فأجابني بابتسامته الطفولية الهادئة أن اللوحة فازت في مسابقة للثقافة بأسويط وعرفت منه أنه يدرس في كلية التربية الفنية بالزمالك ..

- أجهل شيء في صابر أنه يكافح في المجال الذي يحبه ..

التفتُ لأستطلع المتحدثُ فرأيت الشيخ فتحي الأزهري الذي قابلته من قبل أثناء تكريم المسابقة التي فزت بمركزها الثالث، سلمت عليه، سألني

عن أحوالي وحمدت الله على كل شيء، قادني إلى معرض خاص به يطلق عليه - معرض العدد الأول - وهو يضم الإصدار الأول لعشرات من الجرائد والمجلات المصرية والعربية، تعجبت لتلك الفكرة الطريفة التي لم تخطر على بال أحد وأعجبت أكثر بشخصية الشيخ فتحي ذلك الأزهري الشاعر المثقف وإيمانه بدور الفن في تربية ذوق الناس ..

اتجهنا بعد انتهاء المعرض إلى المكتبة العامة لبدء الندوة، جلست جوار عصام لأستمع إلى قصائد الشعراء التي ظننت أنها لا تنتهي وفوجئت بمدير الندوة يقدم في آخرها القاص الوحيد الذي بدأ في إلقاء قصته القصيرة وكان الأستاذ أيمن، عشتُ مع القصة التي تروي موقف رجل يعود من السفر فيصعد إلى شقتهم المنزوية أعلى سطح العمارة ويفاجأ ببقايا عظام أمه الراقدة على سريرها وتمسك أصابعها ببقايا خطابه الأخير ..

تأثرت بالقصة أيما تأثر فصفقت للأستاذ فور انتهائه وفوجئت بأحد الحاضرين يطلب منه أن يعيد قراءة القصة القصيرة التي لم تزد عن نصف صفحة فلوسكاب فيعيد قراءتها بصوته الهادئ ويبيدي الحاضرون إعجابهم بالقصة ولأول مرة أسمع أحدهم يتحدث عن مهارة التقاط اللحظة القصصية والسر والحدث ثم ينهي تعليقه بلحظة التنوير والتي لم أفهم مغزاها فسألت الشيخ فتحي فأخبرني أنها نهاية القصة التي تدهشك بمفاجأة لم تتوقعها ..

ختمت الندوة بالتصفيق وانفضّ المجلس، كنت في غاية الإرهاق والرغبة في النوم للاستيقاظ مبكراً، قبل أن أعود إلى الشق استوقفني أيمن وسألني

بدوره عن إبداعاتي وعجبت من هذا اللفظ الذي اعتبرته في غير محله بالنسبة لي فأخبرته أنني منشغل ببناء في البيت وسررت أيضا أنه معجب بفكرة البناء وذكرني بأني أخطو خطوات جادة في تحسين حالتي وأنا في مكاني، سألتها عن الرواية التي كان يكتبها في الحديقة فيخبرني أنها لم تنته بعد، برغم كلامه الهادئ الذي لا تشبع منه إلا أنني استأذنت منه وقبل انصرافي سألتها عن كليته فأخبرني أنه يدرس في كلية التربية قسم اللغة العربية التي يحبها ..

عدت إلى البيت بعد أن أكدي عصام أنه سيأتي باكرا وما إن أقترُبُ إلا وأفاجأ بخالتي تملأ قفة كبيرة بالقوالب وتحملها أُمي على رأسها وتصعد لأعلى، وقفت مذهولا مما تفعله أُمي وخالتي، عادت أُمي والعرق يتصبب من جبينها وكعادتها لم تنتظر سؤالي عما تفعل فأخبرتني أنه يجب أن ننقل الطوب؛ ضربت كفا بكف وحلفت عليها ألا تحمل قالبا واحدا، أُلقت بالقفة جوار القوالب ودخلنا جميعا البيت لتتعشى من المسقعة التي أعدتها عفاف، بعد العشاء استلقيت مستحقرا نفسي لتغيبي عن البيت وترك أُمي وخالتي تكدحان في حمل الطوب إلى السطح.

استيقظت قبل شروق الشمس وبدون أن أفطر ملأت القفة وبمشقة حملتها بمفردي، صعدت السلم، أُلقيت همولتي وأنا أُلتقط أنفاسي، مسحت بعيني الأكوام هنا وهناك فتملكني الغضب من نفسي التي تركت أُمي وخالتي تنقلان كل هذا الطوب إلى السطح وعجبت من صبرهما على تحمُّل ما لم أطق تحمله من مرة واحدة، نزلت لأجدها استيقظت وأمرتني بأن أكف عن حمل القوالب وأن أوفر جهدي في حمل قفف الطين للبناء وهو يعمل ..

لم تكد الشمس تشرق إلا ويقبل المعلم برقي راكبا حمارته التي لف حبل مربطها في ماسورة الماء جوار الدكان، يحمل كيسا يخرج منه ميزان الخيط والمسطرين وعددا أخرى لم أعرف أهميتها إلا بعد بدء العمل ..

قلقت من منظر عم برقي الذي يخوض في سنوات الكهولة وشككت من قدرته على العمل الشاق لكنه فاجأني بخلع جلبابه الأزرق وبدأ ينظف مكان القوالب التي رشها بالماء وملاً المسطرين بالطين وعند أول قالب ترغرد أُمي لأول مرة بعد موت أبي ، ضحكتُ وضحكت عفاف التي انشغلت بسلق نصف كيلو اللحم وجاء عصام وبدأ العمل الجاد ليرتفع أول مدماك عن سطح البيت .

طلب برقي حجر معسل فجريت إلى الحاصل لأستخرج شيشة أبي، بسرعة وضعت المعسل على الحجر ومن الكانون أخذت جمرة من عظام الذرة الشامية وشددت النفس الأول كما كان يفعل أبي وأعطيتها لعم برقي الذي أثار إعجابي لصبره وقوته في العمل فبالكاد ألاحقه أنا وعصام بقفف الطين وقوالب الطوب التي يرصها بيد عركتها الدربة المتوارثة عن آبائه وأجداده البنائين كما عرفت منه وهو يواصل البناء ولم تفارق الشيشة فمه طوال أيام العمل ..

انتصف النهار فمدت أُمي صينية كبيرة عليها ثلاثة أطباق خضار ولحم وجبن وخبز، تغذيت أنا وعصام مع البناء الذي أكل في سرعة وجلس يدخن مع كوب الشاي ..

انقضى النهار وقد ارتفع المدماك العاشر وحدد عم برقي مكان الشباكين، أنهى عمله وغسل يديه، أعطته أُمي خمسين جنيها دفعة واحدة، تمنع أول

الأمر لكنه وضع الفلوس في الجوزلان الجلد وركب حمارته ومشى، بعد أن ذهب عصام أفاعاً بأمي وخالتي وعفاف يأكلن ما تبقى من التقلية دون لحم، غضبت مؤكداً لأمي أنه من الغد أشتري كيلو لحم بدلا من النصف لكنها هومت برأسها وابتسمت وقالت : ولا يهملك يا غريب، المهم نكرم المعلم برتي لأجل يكرمنا في صنعته ..

نهاية اليوم الثالث من العمل غابت أمي قرابة الساعة ثم عادت بعد المغرب خلفها عربة كارو وبدأ العربجي ينزل عدة عروق وألواح خشبية قديمة ويرصها على الأرض حتى أنزلها جميعا فقالت له أمي : كمّل جميلك يا برعي وساعد غريب في رفع العروق والألواح فوق السطح ..

لم يعقب الشاب القوي وحمل عدة ألواح على كتفه إلى السطح وتبعته وأنا أحمل عرقاً كبيراً وحملت أمي آخر وشاركتنا خالتي رزقين فنقلت عدة ألواح لكن عم شوقي حلف بالطلاق ألا تحمل أمي لوحاً آخر وقام هو برفع بقية الألواح والعروق لأعلى ثم نفّض جلبابه ودخل بيته بعد أن حلف مرة أخرى أن يعطي هو أجرة العربجي ..

ظهرت معالم الغرفة الكبيرة بعد أن أنهى برقي رص الألواح على العروق ودقها بالمسامير الصلب الكبيرة وبنى حولها زياراً بارتفاع شبرين، زاد على ذلك أنه ملط الألواح بطبقة من الطين وبذلك يكون قد أنهى عمله تماماً وقبض آخر أجره ومشى مبسوطاً بعد البقشيش الذي أعطته له أمي وقد اعترضت عليه فقالت لي :

- يا ولدي، يمشي مبسوط وبارك لك خير من أن يمشي ويقول : الله لا يسعدهم ولا يبارك لهم..

وقفت وسط الغرفة الكبيرة أتأملها بعد أن نظفتها تماما من بقايا الطين وأنصاف القوالب المبعثرة، الغرفة واسعة ولها شباكان على الشارع وباب أمام السلم يجاوره شباك مما جعل تهويتها جيدة، لا تصعد أُمي وخالتي إلا يوم الخبز في غرفة الفرن المقابلة لغرفتي، أحسست لأول مرة بهدوء البيت وبالخصوصية التي أحلم بها طوال عمري فنقلت فيها سريري الجريدي وصندوق الخشب الذي أحفظ فيه بالكتب وأشياء أخرى كثيرة، ثبت على الحائط عددا من الأرفف الخشبية وفرشت عليها أوراق من جرنال قديم؛ وضعت عليها الكتب ومجلد ميكي جيب الذي أعزُّ به، أعلاها علقْتُ شهادة التقدير، بقي أن يُركب الباب وثلاثة شبابيك ويكتمل تزيين عروستي، عرضتُ على أُمي تركيب الباب والشبابيك ففتحت جوزلان أبي عن آخره إشارة على انتهاء الفلوس، قنعت بما وصلت إليه من الحياة في غرفة منفصلة حتى لو كانت بلا باب أو شباك ..

جاء دور عصام ليعرض عليّ مواهبه التي لم أتوقعها فقام بتوصيل سلك كهرباء من أسفل للغرفة وركّب في العرق السابع وسط الغرفة تماما حدوة لمروحة سقف ولمبة فلورسنت جعلت الإضاءة أكثر من رائعة الأمر الذي شجّع أُمي وخالتي على الصعود إلى الغرفة بالليل وكذلك عفاف برغم صعوبة صعودها للسلم فقد صممت على رؤية الغرفة وأصرّت على كنسها ورشها بالماء .

التحفت الدنيا بشتاء قارس الأمر الذي جعل مبيتني في الغرفة ضرباً من المستحيل في عدم وجود باب وشبابيك فباعث خالتي رزقن خلخالها الفضي وشاركت عفاف بحلق صغير وأكملت أُمي على ثمنه واشترت أنا وعصام باباً وثلاثة شبابيك من تاجر للأخشاب القديمة فأصبحت الغرفة أكثر دفئاً.

تمددتُ على السرير وحلمت بها وهي مدهونة بالزيت، يتدلى من حلقة الحديد المروحة وبها غرفة نوم كاملة ومكتب أجلس أمامه وأقرأ ويمكن أكتب قصة قصيرة غير التي فازت في المسابقة .. فتحت عيني على البُرص الذي هرب عندما شعر أنني أنظر إليه، خرج عبر خصائص النافذة فصممت أن أركب الزجاج ليحميني من تلك الزواحف المزعجة لكنني أجلت الفكرة إلى ما بعد تغطية قوالب الغرفة بالمحارة .

مرت أيام الشتاء ولا عمل لي غير الوقوف في الدكان طوال النهار والسهرة لبعض الوقت مع عصام وأحياناً نتناول أنا وهو العشاء في الغرفة أما عفاف فلم تبخل بجهدهما في نظافة البيت كله بل والغرفة كلما تمكنت من الصعود إليها بمساعدة أُمي أو أمها ..

اقترحتُ إنشاء حمام جوار الباب بين السلم والغرفة لكن أُمي أصرت على البدء بأولوية بياضها أولاً وما إن أقبلت أيام الصيف إلا وتأتي أُمي بنقلة رمل كبيرة وكان عصام له الفضل في تدبير الاتفاق مع عمال المحارة الذين طلبوا طن أسمنت وشكائر من الجبس وبدأ العمل وقد ساعد الجو الحار في تشييف البياض بسرعة مما جعلني أشعر لأول مرة بحرارة الغرفة .

فوجئت بعربة صغيرة يجرها حمار تقبل وعليها بلاط قديم، أخبرني أمي أنه بلاط تم خلعه من بيت الأستاذ رمزي وأنه في غير حاجة إليه فأخذته ليُركب في الغرفة، أعجبت بأمي ذات النفس الوثابة والعزيمة الكبيرة، لا تبدأ عملاً إلا وتتمه ولو بعد حين، أصبح شكل الغرفة أكثر من رائع بعد تركيب البلاط وما زاد لصقه المبلط أمام الغرفة إلى السلم مما جعلني في ليالي الصيف أخرج الكرسي والمنضدة الصغيرة والكتاب وأقرأ بعد أن ركب لي عصام لمبة صغيرة أعلى الباب ..

لم تبق إلا فتاتي التي أحلم بأن تعيش معي وتشاركني حياتي القادمة، إنها مثل ماري حلوة ومتعلمة، تحب القراءة مثلي، طوال الوقت أتكلم معها وتقرأ معي القصص وربما أصطحبها لتحضر معي ندوات قصر الثقافة وأخذها لأسبوط نجلس على شاطئ النيل في حديقة الفردوس و ...

- بقيت العروسة ...

فاجأتني خالتي بجملتها وأنا أشرع في قراءة رواية (أم العروسة) فنهضتُ من مكاني وتكلمت أمي الواقعة جوارها ..

- اخترت لك عروسة زين يا غريب ..

لم أنطق وتركت لأمي وخالتي الكلام منتظرا ترشيحهما فبادرت أمي ..

- ما رأيك في .. في .. عفاف ..

في سرعة نظرت إلى خالتي الطيبة التي التزمت الصمت بل واستدارت نازلة بسرعة لتتيح لأمي الفرصة الكاملة للكلام ..

- عفاف لحمنا ودمنا يا غريب ويصبح زيتنا في دقيقنا وخالتك رزقين فقيرة وتستحق كل خير ..

كالمسوع انترت من جلستي، حملت في عيني أُمي ورأيت بؤبؤهما الصخري يشع تصميمًا فاحتبس الاعتراض في حلقي فلم أنطق بعد أن أحاطتني أُمي بأسوار المعروف الذي فعلته هي وخالتي من أجل أن يكون لي غرفة كبيرة ومريحة فلم أستطع الفكاك منها، أطرقت رأسي ولم أنطق فواصلت أُمي إحكام حصارها ..

- وإن كان على عجزها فمن غيرك يسترها ويتحملها بعد موتي أنا وخالتك لا قدر الله ..

كأنصال الخناجر انغرزت كلمة أُمي الأخيرة وقضت على أي رغبة في المقاومة أو الرفض وحين طال سكوتي نهضت وحضنتني بقوة وهي تدق على رأسي بمطارق الرجاء ..

- أنا عارفة أنك عاقل وغير ناكر لجميل عفاف وخالتك لنا، عفاف شاطرة والشاطرة تغزل برجل حمار ..

تركتني ونزلت وأنا مبهوت من هذا الجميل الذي فعلته عفاف وأُمها لنا وبيتنا هو الذي آواهما بعد أن طردتا من العشة بجوار الشيخ رمضان منذ سنوات طويلة، بت ليلتي مغموما تكاد الغصة تخنقني على حظي الذي بدأ يتعثر وأنا الذي حلمت بفتاة تشاركني الحياة وهي ترمح معي في رحابها لا مع إنسانة ساذجة لا تفك الخط وكسيحة تتحرك بحساب وأخرج معها نادرا أما شطارتها التي تغريني بها أُمي فلا تتخطى سوى الغسل والطبخ وتكرار أخبار جيران الشق وأحداث مسلسلات التلفزيون ..

فكرتُ في الرفض وإن تمسكت أُمي بموقفها سأهرب؛ أسافر إلى أي مكان، أسيوط، لا القاهرة أو الإسكندرية ويمكن أسافر إلى ليبيا أو الأردن كما سافر مينا بشاي، أشتغل وأكوّن ثروة تغنيني عن الحياة مع عفاف التي ارتبط وجودي في البيت بزواجي منها لكن المرأة لم تملكني كي أنفذ ما فكرت فيه وخاصة أن الأمر يتعلق بهجر أُمي وهذا ما لا أحتمله فتراخت روحي أمام انهيار إرادتي الممزوج بضياح أحلامي، ظلمت حائرا أتقلب وجافاني النوم، تملكني همٌ شديد وانقباضات صدري تتزايد، مع اهتلال الفجر هدأت نفسي قليلا وأنا أسمع ارتجاعات صوت الأذان وأخيرا ينهي المؤذن كلماته بـ : الصلاة خير من النوم .. فنهضت من فوري نازلا لأتوضأ ومع صعودي للغرفة أشيخُ وجهي عن جسد عفاف الممدد وساقها المعوجة والعكازان مكدان جوار السرير يرافقها الجهاز بحدائه الصغير..

صعدتُ وأديت صلاتي وما إن جلست أمام المكتب إلا ويطفر وجه ماري لكن وجه عفاف يحل محله وتراودني مواقفها المساندة دائما لي وحين أتذكر عجزها وقلة حيلتها أكر على أسناني فيأتيني وجه ماري الجميل فيضئ نفسي المغمومة وهكذا إلى أن طارد النور فلول العتمة فنهضت مستلقيا على السرير ونفسي تميل إلى الرفض لكنني شعرت بالعطف على عفاف مما نبهتني إليه أُمي أثناء كلامها من أنه لا أحد سيتزوجها ويسترها على حالتها غيري فأنا ابن خالتها الذي عاش معها تحت سقف واحد ويجب عليّ أن ألتمز بواجبي نحو أُمي وخالتي التي تحبني كابنها ونحو بنتها الطيبة التي أصبحت لا أحد لها غيري في الحياة .

بارك لي الأستاذ رمزي الدبلة الفضية التي تزين إصبع كفي اليمين وتمنّى أن تنتقل بسرعة إلى الشمال فضحكت أُمّي وقالت له : البركة فيك يا أستاذ رمزي تدبّر له وظيفة بالدبلوم وغريب ابنكم واعتبره كوحيد وفرحان ربنا يحفظهم في غربتهم ..

رد الأستاذ رمزي على نظرات أُمّي المستعطفة بهزات من رأسه وهو الذي أصبح مديراً للإدارة التعليمية وصمت واحترمنا سكوته، قطع الصمت دخولها بصينية عليها أكواب الليمون، دق قلبي لما ري التي أصبحت شابة وافرة الجسم وجهها ينضح بنضارة فاتنة، يحتفظ باستدارته وبقايا من ملامح الطفولة التي أتذكرها من أيام لعبي معها في حوش بيتهم والجري خلفها وسط الغيطان أثناء جمع طلع دودة القطن والنط فوق الأكياس الكبيرة ومرافقتي لها طوال ست سنوات في مدرسة الثورة، تناولت الكوب وسألتها عن تعليمها فأخبرتني وهي تجلس جوار أُمّي أنها مقبلة على العام الثاني من كلية الآداب قسم تاريخ ..

نكست رأسي على الفارق الذي بدأت أشعر به من سماع الآخرين يذكرون لي اسم كلياتهم وأقسامها وحياتهم الجامعية التي تغير من أساليبهم في الكلام والمعيشة والحياة، نهضتُ مستأذنا وعند الباب أكدت أم وحيد بأن الأستاذ سيهتم بتوظيفي في أقرب فرصة وربنا يدبرها من عنده، شكرتها أُمي لكن السيدة الكريمة قالت في أدب :
- النبي وصّى على سابع جار ..

• • •

الشهور التي تلت خطبتي أصبحت ألزم مرافقة عصام في أي مكان يتواجد فيه بل وأعمل معه في تركيب الكهرباء والأدوات الصحية ولصق السيراميك بحجة توفير النقود اللازمة للزواج وأعود إلى البيت متأخرا حتى لا أقابل عفاف التي لم أعد أطيقها برغم تفاني أُمي وخالتي في العمل لتوفير ما يلزم زواجنا، تجنبت الكلام معها متعللا بانشغالي حتى جاءت ليلة فاصلة عندما كنتُ جالسا أمام الغرفة أتصفح مجلة قديمة فوجدتها تصعد السلم بصعوبة ثم تجلس أمامي، ثبتت عينها في عيني وكالفحيح نثرت كلماتها :

- لو غرضك تفسخ الخطوبة يا غريب خذ الدبلة، العيش وحيدة مع نفسي أفضل من واحد مفروضة عليه ولا يطيقني .. أنا عارفة حظي من الدنيا ولي رب اسمه الكريم ..

كما جاءت في صمت، نهضت متثاقلة، مددت يدي لمساعدتها لكنها توكأت على عكازيها ونزلت، حدقت في الدبلة الملقاة على المكتب، خلعت دبلي جوارها، ها قد أتت الفرصة لأتخلص من كابوس الحياة مع عفاف

وأحيا مستقلا لكن وقعت بين مطرقة أمي وسندان خالتي وتذكرت كلمة
قديمة قالها عم علام : تخالف أمك تخالفك السعادة، تطيع أمك الدنيا كلها
ملكك..

وضعت الدبلة في إصبعي، ثانية تراودني مواقف عفاف معي وهي التي
لم تخذلني يوما منذ أن شاركتنا هي وأمها الحياة؛ علبة الألوان الفلوماستر
القديمة شاهدة على أنها أول إنسانة أهدتني ألوان لأرسم بها، الرسوم التي
تحويها كراسة الرسم تشهد أنها دفعت لي اشتراك رحلة تونا الجبل، نومي
جوارها هو الذي أشعري بالدفء في ليالي الشتاء الطويلة، حتى جسدها،
برغم عدم تناسقه من أثر إعوجاج ساقها إلا أنها لم تبخل بإتاحته لي يوما على
السطح لترضييني ..

أعلم أنها ليست الفتاة الحلم بالنسبة لي وعلى يقين أيضا أنه بمجرد معرفة
خالتي بفسخ الخطوبة ستأخذ عفاف وتغادر البيت إلى غير رجعة وهذا
وحده كفيل بأن يصيب أمي بالشلل .. أمي .. التي أتفنّسها ويدق قلبي مع
قلبها ويسري في عروقي دمها ...

نزلت فرأيتها منكفئة على السرير، ربتُ على كتفها، رفعت وجهها،
مسحت خدها المبلل بالدموع، رفعتُ كفها، أعدت الدبلة لإصبعها، أرادت
أن تبتعد لكنني قربتها فدفنت وجهها الممتقع في صدري، ظللنا على حالتنا
من الاستكانة فشعرت براحة وهي تنفث أنفاسها في صدري فرضيت نفسي
ومحوت أية اعتراضات تسربت إلى تفكيري .. أفاجأ بأمي وخالتي داخلتين
علينا البيت فلعلعت زغرودة أمي، ابتعدت عفاف عني ووجهها تلون

بحمرة الخجل، مسحت خدها في سرعة، ضحكت خالتي وهي تميل على
أمي موسوسة لها فتبادلنا الابتسام ثم رفعت أمي رأسها قائلة :
- اتفقت مع عمك موسى على أودة نوم محترمة، إن شاء الله أسبوع
وننقلها والفرح أول الشهر ..

• • •

تأملتُها بعد أن نصب النجار خشبها القديم إلا أنها متينة والدولاب
بمراثه العريضة أعطاها أبة، غرفة النوم برغم ضخامتها إلا أنه يوجد فراغ
في الغرفة أتاح لي الفرصة لأنقل رفوف الكتب والمكتب القديم الذي اشتريته
في ذلك الركن جوار الباب، لم أستطع أن أنام على مرتبة السرير وفضلت أن
أصبر حتى تشاركني عفاف فيه فنقلت سرير الجريد خارج الغرفة ونمت
عليه ما تبقى من ليالٍ قبل الزفاف .

قبل الفرح بيوم وصلت أختي نفيسة، رأيتها بعد انقطاع دام سنوات،
كبرت وترهل جسمها السمين، زادت خصلات الشعر البيضاء في رأسها،
حضنتني بقوة ودموعها تعبر عن أسفها لعدم سؤالها عني ثم عاتبني على
قلة سؤالها عنها وانتهى الموقف بفيض من كرمها، أهدتني مفرش سرير لونه
موف جعل السرير يضحك فرحاً به، اشترت ستارة كبيرة للشباكين اللذين
يطلان على الشارع والسجادة بألوانها الزاهية فرشتها وسط الغرفة أما
الثلاجة فقد كانت أروع ما أهدتني إياه أختي نفيسة وعندما شكرتها ردت
والدموع في عينيها :

- أنت لحمي ودمي يا غريب، ربنا يحفظكم لبعض ويبارك لك في عفاف
ويرزقك منها بالخلف الصالح يا رب ..

دعوة أختي نفيسة ثبتت أركان الرضا في حنايا نفسي و محت أي أثر
للاعتراض على حياتي المقبلة مع عفاف التي بدت أمامي جميلة وهي ترتدي
قميصا لونه مشمشي وتتأهب لليلة الحناء التي أوشكت أن تبدأ بعد تجهيز
أمي لماعون حناء كبير وغرزت الشمع بها وبدأ الطبل يدق في وسط البيت .

مع كلمة البيت، انتهت الأوراق الصفراء التي أكتب عليها وأيضاً أوشك
نضوب الحبر من أنبوب قلم البيك وبرغم وجود القليل من الحبر إلا أنني
وضعته مع رفاقه في علبة السمن القديمة وسحبت قلماً آخر حبره زاهي،
فردت أول الأوراق البيضاء ذات السطور الواضحة وسأستأنف الكتابة
لكن بعد صلاة الفجر الذي سمعته يؤذن لتوه من بعيد ..

لم أستطع مواصلة الكتابة لألم ظهري الذي شعرت به فور نهوضي فقررت
أن أنام لأصحو الساعة التاسعة، الحماَم الساخن نشط ذاكرتي أما الإفطار
فقد أعاد لي حيوية المواصلة، قلّبت فيما كتبته فخفق قلبي لكل الأسطر التي
استطعت أن أخطها طوال الليلة الفائتة وأيضاً دهشت لاكتشافي أن تلافيف
ذاكرتي تحوي كل هذه الذكريات وغيرها التي ترفّعت عن كتابتها لأنها تكرر
لإيقاع الحياة اليومية التي أعيشها بين حشود من بشر يولدون ويموتون ولا
يتبقى بين الكلمتين إلا ذكرى حياة يحتفظ بمتفٍ منها من حولهم ثم لا تلبث
أن تتلاشى بين رحي الأيام التي لا يتوقف دورانها السرمدي ..

أمامي كوب الشاي الساخن ومع تصاعد البخار منه بدأت أتذكر
وأكتب ..

ليلة الحناء

تلك الليلة التي لم أنم إلا بعد أن ملطت لي خالتي يديّ وقدميّ بالعجينة الغامقة ثم لفت أطرافي بقماش قديم، نمت وما زال دق الطبله يرن في أذني ومشهد عفاف وسط بنات الشارع هو آخر ما التقت عليه رموشي ..

فور استيقاظي نزع القماش فتساقطت فتافيت الحناء اليابسة، تخضبت يداي وقدماي بلون أحمر قاني، زغردت أُمي فور رؤيتي وصلت على النبي، سألت عن خالتي رزقين وعفاف فأخبرتني أُمي وهي تغمز بعينها أنها ذهبنا إلى أم يوسف زوجة حربي المزيّن، جاءني عصام وانشغلنا في بعض الترتيبات أما أُمي وأختي نفيسة وسعاد ابنتها التي وصلت قبل أن أصحو فقد بدأنا في ترتيب البيت لاستقبال السيدات أصحاب أُمي وخالتي، قست البذلة التي استأجرتها أنا وعصام، تحتاج بعض التضييق، ذهبنا إلى الترزي وقام باللازم ..

انقضى النهار، ارتديت البذلة وربط لي عصام الكرافت، عطرتني أختي نفيسة واثالثت دموع أُمي وهي تزغرد .. اتجهنا فوراً إلى محل الكوافير، انتظرت دقائق وخرجت عفاف تتسند على ذراع ابنة أختي سعاد وواحدة من بنات الجيران، لن أبالغ لو قلت أنني استغربت منظرها الرائع وهي بالفستان الأبيض وشعرها مصفوف بشكل لم أره من قبل ..

ما بين محل الكوافير وباب السيارة خطوات مشتها عفاف وساعدتها البنات على دخول السيارة المزينة بالبالونات والتي جاملني بها الأستاذ رمزي كهدية لزواجي، لفت السيارة الوحيدة في الشوارع ودارت حول

النافورة أول البلد والبنات لم تكف أيديهن عن التصفيق حتى وصلنا إلى استوديو وردة الذي اتفق عصام معه على تصويري وبالداخل جلست عفاف على الكرسي وأنا جوارها والتقط المصور عدة مناظر بعد أن غيّر خلفية كل مشهد واخترت الصورة التي سيكبرها .

أذن العشاء وأنا أنزلها أمام البيت وأمي وخالتي والمعايير في انتظارنا والجميع يطبل، وقفنا فرقصت إحدى الفتيات ثم دخلنا البيت وأمي ترش على الجميع من طبق الملح الذي بيدها، أرحتها على الكرسي وجلست جوارها..

ساعة وحضر الشيخ عبد الفتاح مأذون الناحية فاستقبله عم شوقي السماك في منظرة الكبيرة بعيدا عن لمة الفرح في بيتنا الضيق، صحبني عصام ولفيف من رجال الشق وهناك تم عقد القران وتكفل عم سيد الجزار بأجر المأذون الذي وضع النقود في جيبه دون أن يعترض ..

عدتُ إلى البيت والزغاريد تلعلع، استمر الطبل وتلقي التهنئات قرب الساعة العاشرة وكلما نظرت إلى عفاف رأيت الفرحه تطفر من وجهها الذي بدا في عيني جميلا، بإشارة من أختي نفيسة حملت عفاف بين يدي وصعدت إلى الغرفة تتقدمني أُمي وخالتي وسعاد التي أسرعت بإضاءة الغرفة، أجلستها على السرير، حضنت أُمي خالتي التي خرجت مغلقة خلفها الباب، بقيتُ وعفاف التي نظرت إليّ في خجل ولأول مرة أشعر أنها غريبة عني، لطالما قبل زواجنا جلست ملتصقا بها وفي ليالي الشتاء كنت أنام جوارها وأنا صغير لكنني أتهيب الآن لمس جسمها ..

كانت أشجع مني حين بدأت في خلع فستانها وتعليقه حين إعادته إلى محل التأجير، مشطت شعرها، تحملت وجلست أمام مكتبي، رفعت الملاء البيضاء الصغيرة عن صينية الطعام فجلست أمامها وبدأنا نتعشى ونحن نتبادل الابتسام .

صباحا ..

ضيق انتابني عندما احتاجت عفاف الحمام، ساعدتها على نزول السلم فاستقبلتني خالتي وأمي وأختي نفيسة بالتهنئات ورتت زغرودة سعاد بنت نفيسة وسط البيت، لكنني جلست وسطهم ساهما و نهشتني الحيرة في أمر عفاف، فهل كل ما تريد الحمام أساعدها على النزول أو تنادي على أمي أو أمها وربما لا تجد أحدا منا فتحاول النزول بمفردها وتتعثر على السلم .. لا.. لن أنتظر حتى تحدث مصيبة ثم أقول : يا ليت الذي جرى ما كان .. عادت أختي نفيسة وابنتها إلى أبوتيج وذكرتنا بموعد زفاف سعاد أول الشهر وتؤكد علينا ضرورة حضوره ..

أوصلتها إلى الموقف وعدت إلى البيت، لم نصعد في هذا اليوم إلى غرفتنا إلا قرب المغرب بسبب زيارات الجيران لي ولأمي وخالتي، جلست على السرير، عدت ما نزل علي من نقود وجدتها قرابة المائتي جنيه بالإضافة إلى خمسين جنيهًا من أختي نفيسة، المبلغ يغطي تكاليف إنشاء حمام جوار غرفتي فالمسافة بين الغرفة والسلم قرابة المترين أسفلها حمام الدور الأرضي، برغم معارضة أمي للفكرة وتفضيلها أن نملاً الدكان بمزيد من البضاعة بهذه النقود إلا أنني أصريت على رأيي الذي انحازت إليه عفاف بكل قوة لإحساسها أنني لا أريد من ذلك إلا راحتها ..

عرضتُ الأمر على عصام فشجعني بل أتت الرياح معي بما تشتهي سفن
أُملي في الإصلاح الذي أسعى إليه دائماً فأخبرني عصام أنه يعرف زبونا غير
أدوات الحمام الإفرنجي القديم ويريد أن يبيعه، ذهبنا إليه واشترت كل
محتويات الحمام وهي بحالة جيدة، قاس عصام ما يلزم لتوصيل المواسير
واشترينا كل ذلك بما تبقى من فلوس معي، عرض عليّ أن ألصق سيراميك
وعندما اعترضت متعللاً بانتهاء الفلوس صمم أن أشتري سيراميك فرز
ثالث وهو الأرخص، فردت كل هذه الحقائق أمام أُمي وخالتي التي
فوجئت بها تخرج من صدرها الكيس الأسود وتعطيني كل ما معها ..

لم أتردد فقام عم برقي في يوم واحد ببناء الحمام وجعل بابهُ وسطاً بين
السلم والغرفة .. أما عصام فقد اجتهد في إظهار مواهبه السباكية فقام
بتوصيل الماسورة البيلاستيك الكبيرة إلى بئر الصرف وعمل كل توصيلات
الساخن والبارد فلم يتبق إلا مبلط السيراميك الذي أنهى لصق الحوائط
والأرضية في يوم فقط وبعد تماسكها ركب عصام القاعدة والكومبليشن
والخوض فأصبح لدينا حمام كامل نظيف أراح عفاف من النزول بل وجذب
أُمي وخالتي إلى أن تصعدا لاستخدامه أما أنا فقد ازدادت ثقة في نفسي بأني
أستطيع مع الصبر والجهد تغيير حياتي للأفضل دائماً ..

- ٢٢ -

بالتقسيط اشترت أمي سخانا كهربائيا، ركه عصام بل واستحسنه لأنه أفضل من السخان الذي يُشغل بالبوتاجاز بسبب قلة الأنابيب التي نحصل على واحدة للبوتاجاز المسطح بطلوع الروح ..
التزمت الدكان أجلس فيه طوال النهار لا أغادره إلا لشراء البضاعة وطلبات البيت .

• • •

أقبل يوم الخميس موعد زواج سعاد بنت أختي نفيسة، جئت بعربة من الموقف لتأخذنا جميعا إلى موقف سيارات أبو تيج بأسيوط، الميكروباص أسرع من القطار فوصلنا بعد ساعة لبيت أختي التي استقبلتنا مرحبة وأعدت لنا مكان الراحة لكن أمي وخالتي غيرتا ملابسهما لمساعدة نفيسة في تجهيز العشاء، اصطحبنا محمود ابن أختي إلى مسجد الفرغل، سعدت عفاف بالفكرة، أجلستها على كرسي قبالة المقام، صلت الظهر ورفعت كفيها، أسمعها تدعو لي بالصحة والستر والرزق والذرية الصالحة، خرجنا من الجامع، بطرف عيني ألمح سيدة قاربت الستين تتكّوم جوار السور وتمد يدها

لزوَار المولد، توجهت إليها، رفعت رأسها فارتعبت للحروق التي شوهت جانب وجهها الأيسر، استغفرت الله وأعطيتها ما فيه النصيب، هممت أن أبتعد لولا وقوف الولد بطبق الفول النابت وهو يقول : الأكل يا خالتي شلبية، استوقفني اسم السيدة، دققت النظر في وجهها، الوشم المثلث أسفل ذقنها هزّ ذاكرتي بقوة وجعلني أرجع بها إلى الوراء أيام مولد الشيخ حسن .. هي التي كانت ترقص في تياترو المولد، لم أقنع بها أعطيته لها فأخرجت ورقة بخمسة جنيهات كاملة فوضعتها بين أصابعها المفرودة وأنا أقول :

- ربنا يطوّل عمرك يا خالة شلبية ..

رفعت وجهها وبعين منكسرة ردت ..

- العبرة بالخواتيم يا ولدي، ربنا يحسن ختامنا ..

- أخبار كريم ابنك ؟

رفعت السيدة رأسها فانقبض قلبي لوجهها المشوّه، فتحت عينيها وأغلقتها مرات ثم قالت في نبرة ممطوطة حزينة :

- ربنا كرمه وسكن جنته ..

تألّمت لحال شلبية التي شاخت قبل أن تصل إلى الستين لكنني أعلم أن أحجار الهم التي جثمت على كهولتها نحتت على سحتها الشائئة سنا أكبر من سنّها، وددت لو أخبرت أمي بوجودها لكنني تراجعت عن الفكرة وابتعدت لألحق بعفاف ومحمود المنتظرين على جانب الطريق ولم نلبث أن عدنا إلى البيت بعد أن اشتريت لعفاف الحمص والفول السوداني ..

بعد انتهاء الليلة صممت نفيسة على مبيتنا وفي الصباح أوصلنا محمود إلى الموقف وعدنا البلد سالمين وطوال الطريق تكرر أمي وخالتي الحكايات التي تحدثن بها طوال ساعات الفرح ..

• • •

انقضت الأسابيع وأنا أظن أنني أكملت كل ما أريده ... دكان، بيت، زواج لكن يراودني شعورٌ بأن شيئاً غامضاً يرفرف بين جنبات نفسي ويلح عليّ أن أخرج، ذلك الشيء الذي حسبت أنه تحقق بامتلاكي غرفة مستقلة ثم بزواجي من عفاف لكنه ما هو يعود بأقوى مما كان ويصيب أعصابي بتوتر مما يجعلني ألزم الصمت والمكوث بمفردي ..

فوجئت وأنا بالدكان بأمي تزغرد، في سرعة صعدت إلى الغرفة فاحتضنتي في قوة والزغردة الثانية رفر في سماء البيت ..

- مبروك يا غريب، عفاف حامل ..

لم تكد تكمل كلمتها حتى خرجت أم وجيه جارتنا خلفها خالتي رزقين وجهها مبسوط، هنأتني خالتي ونزلن جميعاً، دخلت الغرفة لأجد عفاف مستلقية ووجهها أصفر، مسحت على جبينها فابتسمت في وهن، أغمضت عينيها فنزلت مسرعا إلى أمي وأخبرتها عن خوفي على عفاف بسبب ضعفها لكنها أكدت أنها بمرور الوقت ستسترد عافيتها وتحقق كلام أمي فاهتمت هي وخالتي بطعام عفاف حتى عادت النضارة لوجهها ..

مع قرب ولادة عفاف تملكني ذلك الشعور بأن شيئاً سيحدث ويغير من حياتي فتيقنت أن مولودي المنتظر هو هذا الشيء وبخروجه إلى العالم

سينمحي ذلك الإحساس الذي يجعلني في كثير من الليالي أتقلب أرقا لا أفهم له سببا ..

• • •

صرخت عفاف ذات ليلة فهبت أمي وخالتي من نومهما، عرفت أن ولادتها حانت و بعد فحص أم وجيه أكدت وجوب نقلها إلى المستشفى وهناك أخبرنا الدكتور بأن الولادة قيصرية ولازم يفتح بطنها لأن حوضها ضيق، استسلمنا لرأيه القاطع ودخلت عفاف غرفة العمليات، قلبي يدق بعنف خوفا عليها، ساعة وخرجت الممرضة تحمل طفلي وتطلب حلاوة المولود، حملت أمي بنتي التي رأيته تفتح عينيها في جراحة وتخرج لسانها الذي يشبه لسان العصفور وتلحس شفيتها أما شعرها فقد غطى عينيها المفتوحين على الحياة، يدق قلبي بعنف للكائن الذي يرعص بين اللفة التي تحملها أمي ولم يفيقني إلا خروج النقالة المتحركة تحمل عفاف التي بدأت تستفيق، في العنبر نقلتها الممرضة على سريرها، ركبت إبرة المحلول وعندما استقرت وضعت أمي حفيدتها جوار عفاف التي مسحت جبينها وهنأتها بسلامة الولادة، بتنا جميعا في المستشفى وفي الصباح أحضرت عربة ونقلتها إلى البيت بعد أن صرفت من صيدلية المستشفى بعض الأدوية والمضاد الحيوي الناقص اشتريته من الخارج ..

طردت من الغرفة بعد أن احتلتها أمي وخالتي لرعاية عفاف ومع ظروف إعاقتهما أصبحت تعتمد عليهما في كل شيء أما النوم فقد حنّ علي سريري الجريدي القديم واستقبلني بحفاوة المشتاق فلزمته طوال الأيام التالية بعد

أن ورثت صغيرتي مكاني على السرير .. ابنتي، سأسميها ماري، نعم ماري،
إنها تشبهها بوجهها المستدير الرائق ...

فيما أفكر في كتابة الاسم بمكتب الصحة إذ بالأستاذ رمزي يقبل عليّ في
الدكان ويخبرني بوجوب تجهيز الأوراق المطلوبة في القائمة التي أعطاها لي،
فرح عندما أخبرته بالمولودة التي شرفت الدنيا أمس ووعد أن أمّ وحيد ستأتي
بنفسها لتبارك لوالدي وخالتي وعفاف وقبل أن ينصرف أكد عليّ ضرورة
تجهيز الأوراق المطلوبة من أجل التقديم لوظيفة بالإدارة التعليمية، هرولت
لأعلى فأخبرتهم بالأمر فزغردت أُمي وضحكت خالتي وهي تقول :

- الله يبارك لك يا غريب، رزق البنت برزقين ..

- طبعاً لأن جدتها رزقين ..

ساد جو من المرح رفرف في جنبات الغرفة وأحسست أني ملكت الدنيا
بوجود تلك الكائنة التي رزقني الله بها وعندما تأملت وجهها شعرت أني أنا
الذي حملتها في بطني وأنها أخذت من روحي عند أول نفس استنشقت من
الدنيا فزاد حنيني لحضنها فحملتها خالتي وفردت ذراعي لاستقبلها ولمست
شفتي خدها الناعم فشمت فيها رائحة ماري فزاد تصميمي على الاسم
الذي اخترته لها ..

جاءني عصام في الليل فأخبرته باسم مولودي لكنه اعترض عليه وهو
يؤكد أن اسم ماري خاص بإخواننا المسيحيين، اتفقت معه لكنني تمنيت بقوة
أن أسمي ابنتي على اسم الفتاة التي لم يدق قلبي إلا لها فاقترح أن أسميها
مريم وللأسف نفس معنى ماري وهو منتشر بين المسلمين والمسيحيين على
السواء .

لا يمكن أن أصف مدى سعادتي بمعلومة عصام التي لم أكن أعلمها
وفي الصباح بقيت خالتي في البيت لرعاية عفاف التي صعدت إليها وهنأتها
وقبلت خدها وأخبرتها أنني سأسمي البنت وإن شاء الله سأترك لها تسمية
الولد، من شدة تعبها وافقتني باهتزاز رأسها ولم تسأل عن الاسم الذي
اخترته لبنتنا .

اصطحبني أُمِّي إلى مكتب الصحة، بعد تطعيم مريم أُمليت الاسم على
الموظف الذي سجله في دفتر المواليد وأخبرني أن شهادة الميلاد بعد أسبوع،
عدنا إلى البيت، صعدت أُمِّي بمريم إلى الغرفة وقد راودني إحساس جارف
بأنني قد انتصرت أخيراً على ذلك الشيء الذي اختفى من نفسي بعد أن أصبح
لي بنت سأجتهد في تربيتها ورعايتها بأفضل كثيراً مما نشأت أنا عليه .

جهزت شهادة الميلاد وصورة من البطاقة الشخصية وشهادة المعافاة من التجنيد والفيش والتشبيه الذي استخرجته من مركز الشرطة وثاني صور ٦X٩ .. وضعت كل ذلك في مظروف أصفر وذهبت إلى بيت الأستاذ رمزي، الحجرة الواسعة كما هي، الباب الكبير مفتوح ليطل منه الحوش الواسع الذي كنت ألعب فيه أنا وماري وسط أكياس القطن وما زاد عليه الدهان الذي تم تجديده، راودني الحنين إلى تلك الأيام البريئة، هزرت رأسي متحسرا وجلست على كرسي في المجاز منتظرا الأستاذ لكنني فوجئت بها تقدم لي صينية الشاي بنفسها، نهضت مرتبكا وهي تسلم علي وتبارك لي مولودي .. تسألني عن اسمها فأجيبها :

- أسميتها على اسمك ..

رفعت حاجبها دهشة وقالت في عجب ..

- ماري؟؟؟

- لا مريم ..

- ربنا يحفظها لك يا غريب، أنت إنسان طيب وتستحق كل خير ..

هممت أن أتجاوز معها لكن صوت أقدام أبيها جعلها تنهض مستأذنة، خرجت ليدخل الأستاذ رمزي خلفه أم وحيد التي هنأتني بدورها على المولودة وسألت عن أمي وخالتي وصحة عفاف، مددت يدي بالمظروف ففرد الأستاذ الأوراق الكثيرة، هزّ رأسه في رضا ففهمت أن الأوراق مستوفاة، بشرني بالخير والانتظار لبضعة أيام حين استخراج جواب التعيين بعد أن أملاً استمارة الأمن فاستلم العمل ثم أستكمل الإجراءات من كشف طبي وغيره .. شكرت الأستاذ رمزي ونهضت مستأذنا فأعطتني أم وحيد لفة كبيرة ناموسية هدية منها لمريم ..

عدتُ إلى البيت فأخبرت أمي بما حدث ففرحت ودعت للأستاذ رمزي بطول العمر وأكدت أنه رجل يفي بوعدده كأمه المرحومة معزوزة قدّس الله روحها ..

على السرير أمام عفاف فردت أمي وخالتي الصرّة الكبيرة لتخرج منها ملائات قطنية وملابس شتوية صغيرة وأخيرا بطانية مربعة عليها رسوم لميمي وميكي وبطوط، فردت أمي الناموسية فانتصبت شبكتها لتصنع قبة تغطي كل جسم مريم وتمنع الناموس والذباب من أن يصل إلى خدها الناعم ..

جلست في الدكان ساهما وقد تملكني التفكير في ماري ولمت نفسي أن أخبرتها أنني أسميت البنت على اسمها فما الذي ستظنه بي لكنني رأيت الفرحة أطلت من عينيها عندما سمعت الاسم ..

عاد ذلك الشيء يتردد بين جنبات نفسي ويلح عليّ أن أخرجّه، عادت
تساؤلاني الأليمة : هل هذا الشيء هو حبي القديم الذي عجزت وأعجز أن
أعبر عنه ؟

لم ترأف بي الظنون فنهشتني من كل جانب ولا أخفي عليكم أنني
استحلّيت الاستسلام لها ما دام سيمس تفكيرى ذكريات طفولتي مع
ماري.

• • •

لطول الوقت الذي أمضيه في الدكان نقلت إليه التلفزيون الصغير
لأتابع الأفلام القديمة التي أعشقها ومسلسل رأفت الهجان وبرنامج العلم
والإيمان الذي لا تفوتني منه حلقة أما مباريات كرة القدم فلا أشاهد إلا
المباراة النهائية للدوري أو مباراة لمصر مع دولة أفريقية، كل ذلك تعطل ولا
يعرض التلفزيون سوى مراسم تسليم غزة وأريحا إلى الزعيم ياسر عرفات
والأغاني الوطنية بين لقطة وأخرى حتى إذا ما أطلت الساعة الثامنة إذا
بالقناة الثانية تعرض فيلم تسجيلي عن فلسطين منذ القدم حتى احتلها غزة
أوربا إلى أن حررها صلاح الدين ثم وقعت فريسة لأطماع اليهود وأقاموا
دولتهم علي تلك الأرض المغتصبة ثم حروبهم مع العرب حتى ٧٣ التي
نحتفل منذ الصغر بهذا النصر العظيم، جاءت مقاطع للسادات في معاهدات
السلام ..

أفاجأ بعصام يقف أمام الدكان ويضحك :

- لو سمعوا كلام السادات لحرّر القدس نفسها لا الفتات الذي رضوا
به الآن ..

أومأت برأسي لعصام، دهشتُ من اهتمامه بالحديث في السياسة، تركته في الدكان لحين شراء علبة بودرة التلك لمريم، أمام بيت عم بشاي يقف الشاب الطويل، اقتربت منه، ظهرت ملامحه التي نسيته، إنه مينا زميل دراستي المسافر إلى الأردن، سلمت عليه في حرارة، في جمل مقتضبة تبادلنا أخبار حياتنا وهنأني على زواجي وإنجابي البنت، أخبرني أنه باع النول بعد موت أبيه وسيلحق بأخيه كيرلس في إيطاليا، تمنيت له سلامة الوصول وكما تقابلنا بشكل عابر انتهى اللقاء..

عدت فرأيت فيلم الناصر صلاح الدين قد بدأ عرضه، وضعت البودرة في السلة فشدت عفاف الحبل وهي تنظر إليّ دهشة من بقائي هذه الساعة في الدكان أخبرتني أن العشاء جاهز، صعدت إليها فرأيت خالتي رزقين تغير لفم مريم وأمي تسكب بين فخذيها البودرة أما عفاف فقد جلست أمام البوتاجاز لتحضير العشاء.. حملت طبق الفول وبتاوتين جوار البيض المسلوق ونزلت إلى الدكان، تناولت أنا وعصام العشاء ونحن نتابع الفيلم حتى إذا ما انتهى مشهد محاكمة صلاح الدين لـخائن عكا استأذن عصام وانصرف على وعد بلقاء في الغد..

أرحت رأسي إلى الوراء، انتابني تساؤل غريب بعيدا عن الأحداث التي تشهدها العراق وما يسمى بالحصار الذي يعيشه شعبها وفلسطين التي تقاسي من أيام الانتفاضة وما فيها من ظلم اليهود والسودان التي علمت أن الجنوب يسعى للانفصال عن الشمال...

لماذا يهاجم الجميع بلادنا ؟ .. منذ قديم كان الهكسوس والرومان إلى حملة نابليون ثم الاحتلال الإنجليزي، كل ما كنت أدرسه هو احتلال الغزاة لمصر وهجوم الفرنج والتتار على مصر ولم أسمع أن مصر احتلت أو هاجمت دولة أخرى فإذا كنا لا نهاجم فلماذا نُهاجَم ؟!؟

شعرت بالتعب يدب في كل جسمي فمارست عادتي القديمة في أن أنفض ما أعجز عن الإجابة عنه وراء أذني حتى فيلم صلاح الدين لم أكمله فوقفت برهة أمام مشهد معالجة صلاح الدين لجرح ريتشارد ملك الإنجليز ثم أغلقت التلفزيون وحملته خارج الدكان الذي سحبت بابه، وضعته على المنضدة الواطئة ومن شدة الإرهاق نمت على سرير أُمي وتركتهم في الأعلى مع عفاف ومريم التي أسمع مواءها من حين لآخر ..

وظيفتي في الإدارة التعليمية عامل في الأرشيف، شرح لي عصام معنى الكلمة التي أسمعها لأول مرة في حياتي بأنه المكان الذي يحفظ فيه أوراق وملفات الموظفين، ارتديت أفخر ما عندي من ثياب، ذهبت إلى الإدارة وأنا أتمهياً للجلوس أمام مكتب وخلفي الأرفف التي تحمل تلك الملفات القديمة وفراش الكانتين يأتيني بالشاي ..

الإدارة مزدحمة بالموظفين والجميع يتكلم فلا أتبين فيما يكون لغطهم المتواصل، ذهبت مباشرة إلى مكتب الأستاذ رمزي الذي رأيته يتحدث في التليفون حوله لفيف من أصحاب الطلبات، أنهى مكالمته والتفت إليّ، يكلمني وهو يوقع الأوراق التي تقدّم إليه ومن حين لآخر يرمقني بنظرة حتى ضغط على زر بجانبه فأقبلت موظفة كبيرة في السن أمرها بأن تصطحبني إلى شئون العاملين، رافقتني الأستاذة حتى مكتب الموظف الكبير الذي سلمني إقرار قيام بالعمل وبدورها رافقتني إلى حجرة الأرشيف، عرّفتني على الأستاذ خلف الجالس أمام مكتب جوار الباب مباشرة، سلم عليّ الأستاذ ودعاني للدخول وما إن دلفت الحجرة حتى رأيته مكتظة بالأرفف المرصوص عليها الملفات، حتى الأرض عليها أكياس كبيرة تطل من فتحاتها الممزقة أوراق

صفراء وما وجود مكتب الأستاذ خلف أمام الباب إلا لضيق المطرح الذي أصابني بالإحباط الشديد وخيبة الأمل فلا مكان لي في حجرة الأرشيف حتى وأنا جالس على الأرض أما سيجارة خلف فقد عبت الحجرة التي لا تحتوي إلا على فتحة واحدة للتهوية ولا توجد مروحة في السقف ..

جاء لي بكرسي جلست عليه خارج الحجرة، تعرفنا على بعضنا أثناء شرب الشاي الذي طلبه لي بدأ يحكي عن تاريخ حياته التي لا تحتوي إلا على ذكريات الجيش وزواجه واستلامه هذه الوظيفة التي ناضل لي جعل لتلك الملفات حجرة بعد أن كانت مخزنة في مخزن قديم تحت بئر السلم أفسدت مياه الصرف الصحي التي تطفح باستمرار الكثير من تلك الملفات وأنه حارب من أجلي، أقصد من أجل توظيف عامل معه ليعاونه على تنظيف الملفات وترتيبها ..

شعرت برغبة شديدة في القئ من أنفاس خلف التي تلفح وجهي كلما اقترب مني، رغبة تحتاحني في أن أذهب لمدير الإدارة وأعتذر له وأنسحب من هذه الوظيفة فالوقوف في الدكان أفضل من الجلوس مع خلف أفندي مدمن الدخان والشاي، جاء لي بساندويتشات فول وطعمية، أكل واحدا فقط وشرع في إشعال السيجارة ورشف الشاي بصوت مسموع ..

هكذا مرّ يومي الأول وعدت وأنا لا أفهم ما وظيفتي الأساسية التي لا مقر لها بعد جلوسي طوال اليوم أمام حجرة الأرشيف في نهاية الممر، تناولت الغذاء، باقتضاب رددت على تساؤلات أمي وخالتي عن الوظيفة أما عفاف فقد اكتفت بكلمة : مبروك ..

لم يأتني عصام ذلك اليوم فأحسست أنني سأنفجر من الغيظ، ذهبت إلى الأستاذ رمزي وأخبرته بتفاصيل يومي الأول ورفض الوظيفة التي لم أكن أتوقعها فهدأ من ثورتي وهو يؤكد لي أن أي عمل أوله صعب وأنه بدأ حياته في نهاية الخمسينات مدرسا في مدارس بعيدة كان لا يصل إليها إلا على ظهر حمار وسط الغيطان والطين أيام الدميرة وهو الآن مدير للإدارة التعليمية ووعدني أن يبحث لي عن مكان خال أفضل من الأرشيف لكن فيما بعد ..

عدتُ إلى البيت و كلامه لم يقنعني، ابتلعت غيظي وبت ليلتي مهموما فما أنتظره من وظيفة أفترض أنها مرضية لم أجده في الجلوس على كرسي أمام مخزن للملفات القديمة ..

في مساء اليوم التالي جاءني عصام وهو يبارك لي لكن الغضب الذي ينضح من عيني جعله يصمت وقضى شرحي لمهام تلك الوظيفة الهامة على تهنتته وبدوره هدأ من انفعالي وعارض بشدة فكرة تركي العمل فعلى الأقل يوجد بجوار إيراد الدكان مرتب ثابت كل شهر ومكافأة نهاية السنة وتأمين صحي ثم بعد الستين إن شاء الله معاش مضمون من هيئة التأمينات والمعاشات ..

لا أخفي أن كلامه أقنعني قليلا بمزايا الوظيفة التي أجهل للآن ما هي فتقبلتها عندما فكرت فعليا في أمي وخالتي وعفاف وبنتي مريم فإن مرضت لا قدر الله أو أغلق الدكان فلا مورد رزق لهم ..

• • •

أسابيع مرت أكسبتني خبرة بمواهب الأستاذ خلف فهو أستاذ كبير لكن في عدم الحضور ولثقته في التزامي صنع لي نسخة من مفتاح الأرشيف

وأعطاه لي بل وأكد أنني أحل محله في كل شيء حتى في جلوسي على مكتبه القديم اليتيم في الحجرة وبالع في تلك الثقة بأن يرسل لي الفراش لأستخرج ملفا وأذهب به إلى مكتب التسويات وما هي إلا شهور وبدأ المسئولون في الإدارة يتعاملون معي مباشرة فيتصل الواحد منهم بتليفون غرفة الحسابات المجاورة للأرشيف ويطلب مني رقم الملف فأبحث عنه وأرسله لعمل اللازم، رويدا تقبلت وضعي بل وعدم وجود خلف رحماني من رائحة فمه التي أجهل تعريفها للآن ..

برتابة مرّ احتفال السادس من أكتوبر وبعدها بأسبوع لم أنم ظهر هذا اليوم لرغاء جمل عم علي المتواصل فوضعت الوسادة على وجهي وما إن أخذتني سنة من نوم حتى صحت على أصوات في الشق والجيران يخرجون من البيوت وأسمع كلمة زلزال وضربت خالتي رزقين على صدرها وهي تقول :

- ربنا يستريا غريب القيامة قامت ..

- قيامة؟!؟

- زلزال، الأرض اهتزت من تحتنا ..

خرجت إلى الشارع العمومي والجميع يتبادلون الكلام عن الزلزال الذي هزّ الدنيا وتوابعه؛ عدت إلى البيت لتطالعني الأخبار في البرامج عن الزلزال الذي هذّ البيوت القديمة وبعض المدارس ولا شيء إلا الكلام عن التقصير والإهمال وعدم اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة الزلازل وأن الذين ماتوا كان بسبب جهلهم، حمدت الله أن بيتنا الصغير المحشور وسط بيوت الشق لم

يحدث له شروخ في جدرانها كالتي رأيته لبعض البيوت في التلفزيون وعندما تأملت بيوت حارتنا الضيقة وجدتها قطعة واحدة متلاصقة وعرفت من أمي أن كل حيطان البيوت مشتركة مع بعضها فالجدار ملك لنا ولجارنا أيضا وابتسمت للشق الذي انتصر على الزلزال بقوة تماسك بيوته بينما انهارت عمارة كبيرة في مصر وشاهدنا رجال الدفاع المدني تنتشل الجثث من تحت الانقاض فوجئت بخالتي رزقين تقول :

- أصلها مبنية لوحدها في البراح كيف النخلة اليتيمة ..

بعد انتهاء إجازة الزلزال جاء ولد في الابتدائي يسأل عن أبيه الذي عرفت أنه عمنا خلف لكن على ما أذكر أنه أخبرني أنه رزق ببتين وولد أنهما الدبلوم، طلبت من الولد أن ينتظر إلى أن أتي أبوه، بعد انصراف الصغير رد خلف على عيني المستفهمتين بأن هذا الولد وأخته ذات العامين من زوجته الجديدة فسألته عن سبب الزيجة الثانية والأولى قد أنجب منها وما تزال قادرة على الإنجاب إن أراد فضحك وهو ينفث دخان سيجارته في تلذذ : المزاج يا غريب يا ولدي، أحب التغيير ولو ربنا مدّ في عمري تبقى الثالثة ..

أضاف لي عم خلف موهبة أخرى من مواهبه التي لم أكن أعلمها وهي حبه الشديد للحريم وعرفت سبب انصرافه عن عمل الأرشيف لأنه يعمل في مطعم وبالليل يقف في محل بقالة ولا أعرف كيف يعود بعد كل هذه الأشغال الشاقة التي حكم بها على نفسه إلى حريمه التي يفاخر بتغيير القديمة بالجديدة ويبحث عن الثالثة ..

برغم نفس عم خلف الطيبة وتلقائيته إلا أنني لم أقتنع بوجهة نظره في الحياة التي يعيشها والأيام القليلة التي يحضرها في الشهر لم يتعد كلامنا إلا عن الملفات، تلك الملفات التي بدأت أمضي فراغ الوقت في إعادة ترتيبها على حسب السنين وربطت ملفات كل سنة على حدة برباط ثم رصبتها جوار بعضها البعض فيسهل إيجاد الملف المطلوب أما ما تحتويه الأكياس العشرة في آخر الحجرة فلم أقرب منها كما أمرني الأستاذ خلف لأنها ملفات قديمة جدا ولا أحد يطلب منها شيئا ..

أول مرة أقبض مبلغا كبيرا كهذا، هي مكافأة نهاية السنة التي يعتبرها العاملون في التعليم عيداً لتغيير أوضاعهم المعيشية، فكرت وأنا عائدٌ إلى البيت أن أكسو أمي وخالتي وعفاف أما مريم فالفلوس كلها تحت أمرها، من محل راغب للأقمشة اشتريت لأسرتي الصغيرة ما يلزم، لم أنفق إلا القليل والمبلغ المتبقي سأزيد الدكان ببضاعة كثيرة أو ألصق موزايكو في الدور الأرضي فالنظافة مطلوبة ولن أحرم نفسي من عمل مكتبة صغيرة أعلقها في زاوية خارج غرفة النوم خلف المكتب وسأخرج الكتب من الصندوق الخشبي وأقتني المزيد بعد أن عرفت طريق مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب وكتبها رخيصة ومتوفر فيها العديد من القصص والروايات التي أعشقها ..

عدت إلى البيت، فردت القماش فأعجبت أمي وخالتي وعفاف بالكسوة وفي سرعة ذهبت خالتي إلى أم وجيه الخياطة لأخذ المقاسات أما عفاف فقد انشغلت برضاعة مريم فاختلت أمي بي وأثناء إخبارها بعزمي على إنفاق الفلوس في كل ما فكرت فيه، فوجئت بدمعة ذارفة على خدها فقبلت رأسها

وأنا أحسب أنها دموع الفرح للوظيفة التي بدأت تؤتي ثمارها لكنني فوجئت بها تقول :

- أبوك يا غريب اندفن في مدافن الصدقة وعرفت أنه ما كان فيها شبر لميت لكنهم حشروه وسطهم أما أنا ..

- بعد الشر يا أمي، العمر الطويل لك ..

- غرضي أندفن في منامة تكون لنا يا غريب تسترني وتستتر خالتك رزقين، أخاف أموت تحتار في دفتي، ابن منامة يا ولدي والدكان فيه بضاعة وأنت توظفت ..

سكتت أمي واستدارت نازلة، دخلت الحجرة، تمددت، الغصة تكاد تخنق روحي من انهيار مشاريعي التي بنيتها لكنني عدتُ أفكرُ فيما قالته أمي ونهشني تساؤلٌ لم يخطر لي من قبل : ماذا يحدث لو مت أنا ؟ هل تتسوّل أمي قبراً لتنزلي فيه ؟ لم أستطع إلقاء هذا التفكير وراء أذني كما اعتدت بل ألح عليّ مرّات ومرّات فنهضت من فوري وذهبت إلى عصام، حادثته فأيدني لأنه شيء لا بد منه، أثناء تبادلنا الرأي يمر علينا خلف الأرشيفجي فألقى السلام ولا أدري لماذا استوقفته وعرضت عليه بناء منامة صغيرة في الجبل فوافقني على الفور وهو يؤكد ..

- ضروري يا ولدي والأعمار بيد الله ..

جلسنا على قهوة وطلبت له الشاي الذي يعشقه وأثناء تدخين سيجارته يخبرني أنه توجد قصبة فاضية جوار حوش عائلته يمكن أن أبني عليها المنامة لكن دون سور حولها، أما التكلفة فلم تزد على ما معي من فلوس ..

في أثناء الطريق إلى عرب القداديح حيث المدافن لم يتوقف خلف عن رواية تجربته في بناء منامة عائلته الكبيرة ومشاركة جميع الأقارب في التكلفة وأنهى كلامه المتباهي بعبارته ما زلت أتذكرها :

- الدنيا ما بقي فيها خير، زمان جدي كان يحفر قبراً ويتركه صدقة لمن يندفن فيه..

ران الصمت علينا حتى نزلنا من سيارة ربع النقل وقادنا إلى بيت طيني بالقرب من منطقة المقابر، عرّفتني خلف على المعلم هريدي من أهل عرب القداديح اتفق معه أمامي على كل شيء .. العمال الذين سيحفرون، البناء، الباب .. نقدت الرجل عربون الشغل وعدنا وبعد أيام جاءني خلف ليخبرني أن المنامة جاهزة حتى الباب تم عمله في ورشة حديد بالقرية .

ثانية ذهبنا إلى الجبانة ورأيت المنامة التي لم أكن أتخيل أنها بهذا الوسع، نزلت فيها فوجدت المعلم هريدي قد فرش أرضيتها بما تبقى من رمل ناعم، وقفت في وسطها فاختشع قلبي من فكرة أنني في يوم سأمدد في أحد جوانبها ملفوفاً بكفن وينصرف الجميع عني، تذكرت حديثاً نبويًا يردده الشيخ منصور إمام جامع السوق :

" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له .. "

خرجت من المنامة وأغلقت بابها، قام عصام على الفور بتغطية القفل بقماش وكيس نايلون مخافة الصدا، شكرت المعلم هريدي ونقدته باقي المبلغ وعليه بقشيش عماله والرجل يضع الفلوس دون عدها وهو يردد :

- ربنا يسترنا دنيا وآخره يا أستاذ، كله بثوابه ..

قبل عودتنا توجهت إلى منامة الصدقة فقرأت الفاتحة على روح أبي،
لحظت أن شجرة السنط قد كبرت وظللت أغصانها المصطبة العريضة،
عدنا وأنا في غاية الراحة بعد أن اطمأننت على تأسيس دار البقاء أما أمي فقد
حضنتي فور علمها بإتمام بناء المنامة ومسحت دموعها وهي تهمس:

- العُمر الطويل لك ولأولادك يا غريب ...

كبرت مريم، أصبحت ترافقني في الدكان وتلعب فيه، لم تتوقف عن أكل بسكوت بمبو أو الشمعدان الذي تحبه جدا، تعبت بعلب الكبريت لكن ذكاءها جعلها تتراجع عن فعلها بعد أن تعمّدت إشعال عود ثقاب أمامها فلمسته بيدها وشعرت بحرارته فرفضت بعدها اللعب بالكبريت ..

تعلقت بها وتعلقت بي فأصبحت ترافقني في كل مشوار أذهب إليه فحضرت معي فرح واحدة من بنات رئيسي الأستاذ خلف وكثيرا ما أصطحبها إلى غرفة الأرشيف فتمضي اليوم معي نأكل ونشرب وأحيانا أغيّرها ملبسها المبتل، نعود آخر النهار ومعها كيس به كراتيه وشيشي وبنبون وبسكوت مما يهاديني به الزملاء الذين اعتادوا وجودها معي حتى إذا غابت يوما سألوا عنها ..

توالت الأسابيع والشهور وأيامي كما هي ... الأرشيف، البيت والدكان، أُمي وخالتي ثم عفاف التي لا تتكلم إلا عن حلقة شاهدها من مسلسل تعيد روايته أو خبر عن إحدى بنات الجيران التي طلقت أو الأخرى التي تزوجت أما الثالثة التي فاتها الزواج فإنها لا تمل من تناول سيرتها وقد اعتدت كلامها

البسيط الذي ألقى به كلما سمعته في هاوية النسيان، أما مريم فأصبحت كالحبل السري الذي يمدني بأسباب الحياة ..

• • •

كنت الأخير الذي أخذ الجمعية التي اشتركت فيها مع الزملاء فاشتريت بنصفها المزيد من البضاعة للدكان والنصف الآخر صنعت مكتبة من عدة رفوف ووضعتها كما تمنيت في الزاوية جوار شباك الغرفة خلف المكتب، من الصندوق أخرجت الكتب، رصبتها بعناية فلم تملأ أكثر من نصف الأرفف، شعرت بارتياح وأي ارتياح لإنشاء مكتبتي الخاصة، وقعت عيني على مجلد ميكى جيب الذي ربحته قديماً، جائزتي من الروايات والقصص التي فزت بها في مسابقة قصر الثقافة، بعض الكتب الأخرى التي اشتريتها مصادفة من باعة الكتب القديمة وعندما علقت شهادة التقدير أعلى المكتبة لا أدري لم ومض وجه الأستاذ أيمن، تذكرته فجأة وتمنيت أن أقابله وأسأله عن أحواله ..

أكد تخرج الآن من كليته كما تخرجت ماري التي عرفت أنها تستعد لإتمام زواجها وسفرها إلى إيطاليا، عزمت على الذهاب إلى قصر الثقافة لتجديد اشتراك الاستعارة وربما أقابل أيمن وأتحدث معه .. لكنني لم أقابله، سألت عنه موظف القصر فأجابني بلا اهتمام أنه ربما يحضر في ندوة الإثنين أول كل شهر، عدت إلى البيت وأنا أنتظر يوم الإثنين الأول الذي بقي عليه ثلاثة أسابيع ..

بإنشائي المكتبة حسبتُ أني ألجمت الوحش الرابض داخلي الذي ينهش روحي بالتساؤل عن شيء أريد تحقيقه لكنه خرج من عرينه وراح يناوشني بأنيابه من جديد ..

ليالٍ لم أنم، أتقلب في فراشي ولم أستطع أن أتخلص مما أشعر به أن هناك حياة أخرى كان يجب أن أعيشها بشكل آخر مع أناس آخرين في زمن آخر لا أعرفه، رويدا بدأ هذا الإحساس يتراجع حتى انمحي في خضم الأيام التي لا يتوقف تلاطمها ..

• • •

الأستاذ رمزي وصل سن المعاش؛ أنهى خدمته وأقيم حفلٌ كبير في الإدارة التعليمية تكريماً له فاشترك كل قسم بالإدارة في هدية لمديرها القدير الذي لم ييخل بجهدٍ في عمله وعلى المستوى الشخصي له فضل كبير عليّ فلم أشارك معهم واشتريت له هديتي الخاصة التي قدمتها بمفردي في الحفل عرفانا لجميله في عملي بالإدارة ..

أسبوعان مرا على إخلاء طرف الأستاذ رمزي فالتزمت أُمِّي بيته لمساعدة أمٍ وحيد في خبيز فرح ماري التي حزنّت لسفرها خارج مصر ..

يوم الأحد مشّت جواري مريم في بطء حتى وصلنا لكنيسة مار فام فوجدتهم قد أنهوا مراسم الزواج ووقفوا في فناء الكنيسة لتلقي التهنّئات، حملت مريم على ذراعي وتحركّ الطابور حتى وصلت إليها، تسمرت أمامها، وضعتُ يدي في يدها، شعرت ببرودة أصابعها، اتسعت عيناها لرؤيتي بل وقرّبت مريم وقبلت خدها .. خفق قلبي لوجهها الذي لا يزال ترسم عليه براءة طفولتنا، قسماته تنضح بأسرار دفينّة عجزت في الثواني التي وقفت فيها أن أستبين إشارات حزنّها فهزّزت رأسي وأنا أتمتم : مبروك ..

أحسستُ بكف من خلفي تستعجلني، خطوت مارا بعريسها الأسمر، سلمت عليه ثم سحبت يدي في سرعة عندما لمحت يده المرقعة بالبهاق، سلمت على أمها والأستاذ رمزي ثم أخويها وحيد وفرحان الذي احتضني سائلا عن حالي فأجبتة باقتضاب وأنهيت المقابلة السريعة بعبارات التهنتة، خرجت من الكنيسة عائدا إلى البيت .. سألت أُمي عن الشاب الذي تزوج ماري فأخبرتني أنه من معارف أخيها وحيد الذي يعيش في إيطاليا .. لم يغرمهم مليها واحدا واشترى لها ذهباً بعشرة آلاف جنيه ..

- لكنه أبرص يا أُمي ..

- يا سيدي ، الفلوس تعمي النفوس ..

تعجبت من موافقة الأستاذ رمزي على ذلك الشاب واندذهشت أكثر من موافقة ماري عليه وهي التي كانت تغسل يديها من مجرد لمسها للجدار، لم أقتنع أن المسألة مسألة فلوس أعمت عيون أمها وأبيها وأخويها وهم أسرة معروفة بأرضها التي تدر عليهم سيلا من الخيرات، الحكاية بها سرٌّ لا أعرفه لمحتة في عيني ماري، سر لا تريد أُمي أن تخبرني به فأنا أعرف طريقة أُمي في الكلام عندما تتناول سيرة أمر لا تريد إخبار أحد عنه ..

لم أكلف نفسي عناء التفكير في هذه الأمور وشغلت وقتي برعاية الدكان مع ابنتي مريومة التي هجرت أمها وباتت تنام معي ..

يأتي الليل الذي أملكه ويملكني، بعد نوم أسرق الطيبة، أجلس إلى مكتبي، أمامي كوب الشاي، أقلب بين كتب من مطبوعات مكتبة الأسرة التي بدأت أقتنيها من سعد بائع الجرائد والمجلات أمام كنيسة مار فام،

الكتب بسعر رمزي، خمسون قرشا للكتاب الكبير وعشرة قروش للكتاب الذي يحوي تعريفا بكتب تراثية كبيرة..

قرأت زينب وأنا حرة وغيرها من روايات اقتنصتها تباعا وتطورت طباعتها فيما بعد وزاد ثمنها بقروش قليلة لكنني كنت شديد الفرح كلما كثر عدد كتب مكتبي وبميزانية لم ترهق جيبي الذي بدأ يئن من وطأة المصاريف فعفاف حملت مرة ثانية والحمل الجديد يجهدها؛ شحب وجهها وأمست لا تفارق السرير من شدة تعبها ويوما أتيت لها بالدكتور موريس فكشف عليها في البيت وحذرنا من تكليفها بأعمال شاقة ونصح بتغذيتها طيور وفاكهة حتى لا تصاب بالأنيميا، كتب روضة المقويات التي اشتريتها وانتظمت في تناول الحبوب ولم تتوان أُمي وخالتي عن إطعامها حتى بدأت تسترد عافيتها وغادرت السرير لتتأخر بعض الأعمال الخفيفة ..

أحن إلى السرير الجريدي فأستلقي عليه جوار مريم، أتمنى في قرارة نفسي أن أعود لمثل عمرها؛ أعيش حياة غير التي عشتها، تلك الحياة الرخية التي حلمت بها يوما هي التي سأكافح بكل ما أملك من جهد لأربي مريم والمولود القادم عليها ..

نسيت موعد ندوة قصر الثقافة في الإثنين الأول من الشهر ومضى شهر يطرد الآخر وكالمرة الأولى ولدت عفاف بشق البطن بنتا أخرى تعجبت وأنا أحملها من وزنها الثقيل وصوتها العالي، وجمت أُمي فقد تمت أن أنجب ولدا يحمل اسمي لكنني لم أهتم بذلك فالولد والبنت من الله، خالتي رزقني فقد تقبلت الأمر وحمدت ربنا على نجاة عفاف التي ضعفت أكثر بعد نفاسها

أما المجرمة الصغيرة التي خرجت مع آذان الظهر فأسميتها ضحى، لم تكف عن البكاء وعند الكشف عليها أخبرنا دكتور الأطفال أنها جائعة ولبن أمها خفيف لا يكفيها وكتب لنا نوعا من اللبن الصناعي مساعد للبن عفاف فاشتريت علبتين في الحال وبعد أول رضعة هدأ صراخ ضحى ونامت بعد أن شبعت أما مريم فلم يبد عليها كبقية الأطفال الغيرة من أختها بل تعجبت من وجودها في أول الأمر ثم بدأت تلعب معها وتنادي عليها: دُهى .. دُهى .. وبمرور الأيام بدأت تخرج الدال والحاء بشكل صحيح ..

• • •

يطل نوفمبر مصطحبا نسائم الشتاء اللاسعة، بعد العصر لاحظت وميضاً بين جنبات السماء وأجابت أمي على عيني المندهشتين بأن المطرة ستنزل الليلة، رافقتني إلى السطح وما إن وصلنا حتى بدأت السماء تدمع فأسرعت أمي بخلع قالب من أسفل الزيار وثبتت ماسورة مكانه؛ قلدها فصنعت مزاربا آخر وعندما بدأت السماء تسح أفرغت أمي كيسا كبيرا من تراب الفرن أمام السلم وسكبت أنا كيسين آخرين فارتفع التل الفاصل بين السطح وفتحة السلم، نزلنا والبرق والرعد ينشطان حتى تحولت الأمطار إلى سيول فأمرتني أمي بمساعدة عفاف على النزول من الغرفة فتوكت على ذراعي وبالأخرى حملت ضحى أما مريم فقد أسعدها نزول المطر ورددت مع أصوات العيال:

- يا مطرة رخي رخي ...

دقائق ولاحظت الماء ينساب من السطح عبر المزرايين فنظرت إلى أمي نظرة امتنان لرجاحة عقلها وبُعد نظرها وهي التي أصرت منذ شهور على عمل عتبة كبيرة من الخرسانة أمام باب البيت والدكان فحمتنا هي الأخرى من تسرب ماء المطر الذي بدأ يكوّن بركة غطت أرض الشق كلها، استمر نزول الأمطار وما إن تهدأ إلا وتعاود الهطول بشدة حتى غطى الظلام الدنيا وخالتي رزقين تحوقل وتكبر وهي تضم ضحى بين ذراعيها أما مريم فمبسوطة من البركة التي تكونت خارج البيت ..

انقطعت الكهرباء وأيضا قلّ هطول المطر فتسحبت من بينهم صاعدا لأفاجأ بالمياه المخلوطة بالطين تغمر الغرفة وتلطح السرير والمرتبة ولا تزال خيوط من الماء تتخلل عروق وأخشاب السقف فاغتنطت من اعتمادى على المزرايين بأنهما سيصرفان الماء من السطح إلى الشارع ولم أكن أتوقع أن تحترق المياه سقف الغرفة وتسيل مفسدة أثاثها، خرجت من الغرفة لأطمئن على الكتب فوجدتها سليمة أما المكتب فقد حمى الزجاج خشبه العتيق من الماء، لم تفاجأ أمي بما أخبرتها عن الغرفة التي لطختها الوحول وقالت لي في لا مبالاة :
- بكرة نمسحها ..

في حضن عفاف نامت ضحى ومريم فتكورت وسط جدتيها أما أنا فقد استولى عليّ الأرق فلم أذق ليلتها النوم؛ وقفت أمام الباب وأنا ألحظ بحيرة المياه التي غطت أرض الشق بالكامل ولا تزال خيوط الماء تنساب من المزراب أعلى الباب، ظللت واقفا يؤنسني الصمت وخواء المطرح حتى تعبت قدماي

ودخلت البيت مغلقا خلفي الباب، تمددت على السرير الجريدي منتظرا ولوج النهار لأتمكن من تنظيف الحجرة وترتيبها من جديد .

• • •

صراخ يصاحب أذان الفجر، أقف على عتبة الباب فأسمعه بقوة من بيت شوقي السماء، أمسح بعيني الشق الغارق في الظلام، جوارى تقف أُمى تستطلع الخبر، تهم بالخوض في الماء لكنني استوقفتها مقررًا معرفة الأمر بنفسى، لم أتردد فشمرت عن ساقى ونزلت البحيرة الطينية، بصعوبة أخطو نحو بيت السماء، الباب موارب فدخلت المجاز الموحول بالطين، على ضوء لمبة الجاز أراه ممددا على سريره الخشبي وزوجته تلطم وأولاده حوله يبيكون، لم يلبث أن يقبل الجيران مواسين الخالة بطة زوجة عم شوقى، خرجت من البيت الضيق لأفاجأ بأُمى تدخل والماء يبلل أسفل جلبابها، تعلو الصرخات إلى أن زحف النور ليضئ أرض الشق، برغم بحيرات المياه التي تغطي الأرض إلا أنى وأنا واقف أمام النافذة رأيت الجيران جميعهم توافدوا على بيت المرحوم شوقى، أغلق الشباك، أرقب حالة الغرفة الوسخة ولا تزال قطرات الماء تتسلل عبر شقوق السقف، قررت المشاركة في الجنازة أولا ثم الاهتمام بنظافة الغرفة بعد عودتى من الجبل..

الشيخ عبيد يقبل فى سرعة خلفه أحد عمال جامع السوق وبين يديه المغسلة، أشعة الشمس تغمر أرض الشق حين جئ بالصندوق، يخرج النعش فاشتركت فى حملة مع الخاضعين فى برك المياه والصرخات تودعنا حتى خرجنا من الشق إلى جامع السوق، صلينا عليه الجنازة، جرّار واحد وعربة ربع نقل

هي التي رافقتنا إلى الجبل، يجلس جواري مخيم السحلية يدخن سيجارة،
ينفث دخانها في تلذذ وأسمعه يقول لمن يجلس جواره :

- كان لازم السماك يموت في يوم المطرة، أهو غطس فيها ..

يتسم الجالس جواره ويطلب منه أن يكف عن الكلام لكن السحلية
يواصل ..

- المزفر استحم مرتين؛ مرة بالمطر ومرة لما الحانوقي غسله ..

- يا أخي صلي على النبي واسكت ..

قالها عم حربي بتأفف فالتزم مخيم الصمت وأنا أصوب له نظرات
الغضب لسفاهة كلامه واستهانته بالموقف، يسير الجرار وصوت عجلات
المقطورة يشق المياه التي غطت الأرض الزراعية وأغرق الماء المخلوط بالرمال
الترعة الكبيرة، وصلنا إلى عرب القداديح فرأيت البنايات اكتسحتها السيول
النازلة من الجبل ولم تنج منها إلا البيوت المبنية بالمسلح والأهالي يحاولون
إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أشياءهم الموحولة في الماء الأصفر الداكن ..

بجردلين نرح شابان المياه من حول فتحة المنامة حتى ظهر الباب الحديدي،
استعصى القفل على فتحه وتكررت المحاولة حتى انفتح، بحذر ينزل الشيخ
عبيد وهو يضرب كفا بكف للرمال التي أصابتها مياه الأمطار، غاب فترة
بالداخل هو ومن معه ثم سمعته يقول : هاتوا الأمانة ..

برفق يتدلى الجسد الرفيع فتلففته الأيدي وتمنيت أن أنزل خلفه لكني
تمهيت النزول فاكتفيت بمراقبتهم من الخارج وهم ينيمونه على جنبه الأيمن
ووجهه إلى القبلة والشيخ عبيد يساوي الرمال المبتلة من حوله عندها لم

أتممّ المنظر فرجعت إلى الوراء، يتناهى لمسامعي صوت الشيخ وهو يردد كلاما بعدها يردد الواقفون الشهادة والصلاة والسلام على النبي حتى خرجوا جميعا وأغلّقوا الباب وملطّوا ما حوله بالطين، في سرعة انتهى العزاء وركبنا الجرّار، مرة أخرى يجلس قبّالتي مخيمر السحلية، يرفع حاجبه الرفيع ويقول بصوت خفيض :

- كل واحد له نقرة يندفن فيها، يا سلام على حكمة ربنا .. محمود الفرّان عاش عمره كله قدّام نار فرن المخبز ومن شهرين شب حريق في بيته غرب البلد والنار حرّقتة واندفن في يوم حرّه شديد ..

كان مخيمر السحلية يتكلم وكأنه يهذي لكن هذه المرة لم أغضب منه بل ابتسمت لكلماته التي ينفثها مع دخان السجّارة ويواصل :

- ويا عيني على سعفان السباك ، طول عمره يركب ويصلح ويظهر آبار الصرف ونهايته وقع ومات غريق فيها ..

يحجّجه عم علي الجمال بنظرات اللوم ويوبخه :

- يا أخي وحدّ الله، بلا كلام في سيرة الميتين ..

وكأن مخيمر لم يسمع ويواصل :

- واليوم شوقي السماك يموت ليلة المطرة ويندفن وسط بركة ..

لاحظ مخيمر ابتسامتي التي اتسعت فافترت شفتاه النحيلتان عن ضحكة خفيفة كشفت اصفرار أسنانه الشديد ودون أن يلحظ أحد أخرج زجاجة السبّيرتو وشرب منها في سرعة ثم أعادها خلّسة إلى جيب معطفه ويواصل ..

- كل واحد ربنا مقدّر له موته تناسبه ..
يضرب عم حربي كفا بكف ويفاجئنا سيد الجزار الجالس جواره
بسؤاله:

- وأنت يا مخيمر يا سُكري، ربنا مقدّر لك تموت وسط ..
يقاطعه مخيمر وهو يهز رأسه ويضحك ..
- أموت غريق في برك بوظة وسيرتو وبيرة أو كونياك ويمكن يحسن
ختامي وأندفن في خمارة ويغسلوني بالشمبانيا والويسكي ..
تعلو قهقهة مخيمر و اجتاحت نوبة من سعالٍ حاد فجحظت عيناه وهو
يواصل الكحة حتى هدأت فتنخم ملقيا ببصاقة خارج المقطورة، التفت إلى
الجزار وخاطبه وهو يزر عينيه الضيقتين :
- وأنت يا سيد يا جزار، يمكن تكون نهايتك بساطور أو سكين وتتكفن
بجلد عجل أو جاموسة وتندفن وسط السلخانة ..
- الله يلعنك يا مخيمر ويلعن لسانك ..
قالها عم سيد فانتظرت من مخيمر الرد لكنه نظر إليّ وهزّ رأسه وهو
يقول:

- العبرة بالخواتيم، ربنا يحسن ختامنا جميعا يا رب .
تأملته في استغراب وهو يلحس بلسانه الرفيع شفثيه النحيلتين، يدندن
بأغنية قديمة أرهفت السمع؛ كي أتبينها فعجزت عن التقاط كلماتها لكنني

استعذبت لحنها وتمنيت أن يواصل دندنته الغامضة، رفعت رأسي إلى السماء
فلاحظت الشمس ترتفع في قوة فقوي الأمل أن تنشف أشعتها الفتية الأرض
التي غسلتها مياه الأمطار .

استيقظت بعد الفجر منزعا لأمرين كل منهما اعتدت عليه حتى ألفتها؛
ضحى التي لا تكف عن البكاء إلا بعد أن يحملها أحد فتسكت لدقائق ثم
تستأنف موسيقاها البكاية إلى أن تلتقم بين شفثتيها الغليظتين حلمة الرضعة
فتشفطها في دقائق قليلة وأنا أتعجب من نهمها للبن ثم للبطاطس المهروسة
التي تضعها جدتها في فمها فتشنج وهي تطلب المزيد ..

أما الأمر الثاني فهو عم علي الجمال الذي لا يكف عن الزعاق في ابنه
صديق لبيعه عن فكرة الرحيل إلى إيطاليا بعد أن اغتال البحر ابنه سيد
والشاب لا يمل من إقناع أبيه وأمه بضرورة السفر فهو غير مقتنع بعمله
كصبي لأسطى كهربائي سيارات الذي لا يأتي له إلا برزق قليل مقارنة بغيره
الذين سافروا منذ أعوام وبنوا عمائر وكونوا ثروة وهو بالكاد يعجز عن
تجهيز شقة في بيتهم ..

طوال النهار وصديق يسوق معارفه ليقنع أباه وأمه التي لا تكف عن
البكاء بالسفر ويؤكد لهم أنه سيرحل عن طريق الإسكندرية لليبيا المحفوفة
بالمخاطر وأخيرا يقتنع عم علي وبقي أن يجمع له تكاليف السفر التي لم يسلم

منها بيع الجمل فجاء تاجر من بني عدي تلك القرية المشهورة بتجارة وذبح
الجمال، قدّر ثمن الجمل العجوز الذي بلغ السابعة والثلاثين فقد ولدته أمه
كما تكرر الخالة وديدة دائما في أسبوع ولادة ابنها المرحوم حسين ..

وكأن الجمل شعر بما يُدبر له بعد انصراف التاجر فلم أنم ليلتها من
رغائه الممطوط طوال الليل ليقوا عليه عرفانا لأمه التي ظلت تخدمهم طوال
عمرها حتى ماتت واستكمل هو مسيرة خدمتهم ..

مع طلوع النهار سكت الجمل، قررتُ أن أنام ساعة قبل ذهابي إلى
أرشيف الإدارة لكن صوت بوق سيارة طرد فلول النوم من عيني، نهضتُ
لأقف أمام الشباك، أرى عربة نصف النقل أمام البيت وانتظر التاجر ليخرج
عم علي يجر الجمل لكن صوته الزاعق وصراخ خالتي وديدة وصياح صديق
جعل الشق كله يستيقظ ..

طوت قدماي درجات السلم، حافيا جريت ناحية البيت، اقتحمت
البراح الواسع فاقشعر جسدي كله للجسد الكبير الممدد على أرض الحوش،
في التياح يهز عم علي رقبة الجمل الطويلة ويفتح عينيه لكن البؤبؤ الساكن
يشي بمفارقة الجمل الحياة ..

التفت حريم الشق حول خالتي وديدة ليهدن من جزعها على موت
ابنهم الرابع وصديق يشيح بذراعيه في وجه أبيه :

- بناقص الجمل ..

يلطم عم علي خديه وهو يزعق في ابنه ..

- امش من قدامي يا فقري، أهو مات الجمل، مات رابعكم، انقطع رزقنا من الدنيا.

انسحب صديق خارج البيت فيستعيد التاجر العربون ويدير السيارة الكبيرة، يلتفت إليه وهو يقول :

- ربنا يعوّض عليكم وعلينا، يا خسارة البنزين ..

انقضى الصباح وأنا أواسي جارنا المثلث في جملة حتى دخل مسعود بن سيد الجزار وهو يعرض عليه أن يسلخ الجمل ويبيع جلده ويستفيد بثمنه لكن علي الجمال يصرخ في وجه الجزار وهو يلطم خده :

- الجمل واحد من عيالي يا ناس ..

يتبادلون الرأي في جر الجمل بعد تقييد ساقيه الخلفيتين في عربة نصف نقل إلى خارج البلد إلا أن الخالة وديدة أصرت أن يدفن في حوش البيت لا أن يُلقى على قارعة الطريق فتنهشه الكلاب، مرّ الوقت وأنا أشارك رجال الشق في الحفر، تعاوننا جميعا في تعميق النقرة بقدر المستطاع والمزين حربي يعطي أوامره بتوسيع مناطق بعينها ثم خرجنا والعرق يتصبب على ظهري، تجاسرت الأيادي لتحرك الجسم الثقيل لكنه لا يتزحزح من مطرحة وكأنه لا يريد أن يفارقه، تجمعت قوتنا في دفع الجمل إلى أن ابتلعه جوف الحفرة الكبيرة وعلي الجمال يجأر بصوته وهو ينط في الأخدود مرتما على الجمل المكوّم فيه وأصابعه تشبث بوبره ..

- يا خراب البيت .. ادفنوني جنبه ..

يخرجه رزق بن شوقي السّمّاك بعد أن أراح رأس الجمل ومرة أخرى يتبارى الشباب في إهالة التراب وتغطية الجسم بالكامل ورش القليل من

المياه على التراب ، اصطحب حربي المزين الجمال خارج الحوش وأتت أم
وجيه بصينية الشاي للقاعدين حوله ..

تركت أمي جوار خالتي وديدة التي لم تكف عن البكاء على ولديها حسين
وسيد وجلها، عدتُ إلى البيت، أَلقيت السلام على خالتي رزقين الجالسة في
الدكان، صعدت لأعلى، أغسلُ يدي من التراب، لا تزال عفاف تنام جوار
ضُحى التي تعشق الراحة والأكل أما مريم استيقظت لتوها، أجلستها أمامي
على المكتب، ضحكت لي فابتسمت لعينيها اللتين لم يغادرهما النُعاس بعد،
أمسكت بقلم حبر ومدت يدها الصغيرة به، أخذته منها لأضعه على المكتب
وكان شرارة كهربائية مسّت خلايا مخي فومضت الفكرة ..

فجأة فتحت الكراسة وبدأت أكتب وأكتب حتى امتلأت الصفحة
الأولى، مريم صامتة وكأنها تشعر أني منشغلٌ في عملٍ هام، تراقب ما أفعله
دون أن تزعجني حتى رفعت وجهي إليها بعد أن كتبت كلمة - تمت - في
نهاية الصفحة الثانية ..

أما العنوان فقد احترت فيه وظللت أفكر وأتضايق من ترددي في اختيار
عنوان مناسب للقصة حتى أطلقت مريم آهة ممطوطة من طول قعدتها أمامي
فكتبت :

آه يا جملي

مسحت شعر مريم وطبعت قبلة حانية على خدها الناعم، نهضت وأنا
أحملها لكنها تلملمت لتنزل وتسير جوارى ناحية البوتاجاز .. أسخن لها
اللبن، بملعقة صغيرة أقلّب السكر، أضع في الطبق كسرات من البقسماط ..

بعد تناول الإفطار نزلت أنا وهي لنجلس مع خالتي رزقين وأمي التي عادت من بيت عم علي وعيناها تلتمعان بالدموع ..

أمام الدكان فتحت الكراسية، أعيد قراءة القصة التي لم أعرف كيف كتبتها وجعلت بطلها الجمل الذي فضّل أن يموت في البيت الذي ولد فيه وتقاسم مع صاحبه شظف العيش ورخائه على أن يفارقه برغم إصرار ابن مالكه على بيعه للهجرة خارج الوطن ..

بخط أوضح أعدت كتابة القصة عازما أن أقرأها إن ذهبت إلى الندوة غدا الإثنين لأنه سيكون أول الشهر ..

• • •

بدأت الندوة بحضور قليل لم يتعد سبعة أفراد، ألقى قصيدة شعر عامي للشاعر شرقاوي، فهمت منها أنه ينعي البلاد العربية لقبولها بالفتات الذي توافق عليه إسرائيل من أجل إقامة سلطة فلسطينية ضعيفة على أشبار من الأرض المحتلة، بعد انتهاء القصيدة انتقل الحوار إلى مؤيد لاتفاق (غزة - أريحا) لأنه يراه شيئا أفضل من لا شيء ومعارض لأن الاتفاق لم يحل كل مشاكل ومعاناة الفلسطينيين من مشكلة اللاجئين وحق عودتهم إلى أرضهم المغتصبة والقدس التي يعتبرها الفلسطينيون عاصمتهم ..

أنهى مدير الجلسة المهارات بتهدئة الجميع وتقديم قصيدة أخرى ألقاها شاب لا أتذكر اسمه ثم قدّم الفنان صابر فتحي قصّة قصيرة جدا لا تتعدى أسطر قليلة أعجبت بها لأنه التقط مشهد بائعة في قطار عبّر عنه بشكل جيد...

أوماً الأستاذ عبد المحسن لي برأسه أنني التالي لكن اقتحم أحد موظفي القصر الندوة بمدخلة أعرب فيها عن استيائه الشديد من محاولة شاب اغتيال الأديب نجيب محفوظ، انضم الجميع إليه في شجب عملية الاغتيال الفاشلة التي أدت إلى جرح الكاتب العجوز في رقبته وتبادلوا الآراء الغاضبة لسوء تقدير أديب شاهدنا جميعاً معظم أعماله في أفلام ومسلسلات قديمة وحديثة وهو الذي أتى بجائزة نوبل اليتيمة في الأدب ليس لمصر فقط بل الوطن العربي كله، استمر تبادل الآراء قرابة نصف ساعة حتى انقطع الأمل أني سألقي القصة على مسامع الحاضرين، هدأت المناقشة الصاخبة بعد أن أدار الأستاذ عبد المحسن دفة الحديث وأشار إليّ أن أبدأ فدق قلبي حين طلب مني أن أعرف نفسي ..

ارتعشت شفتاي عندما بدأت في القراءة، أشعر أن أصابعي باردة وأنا أقلب الورقة، أنهى القصة فيحملك في الجميع وبدأ أحدهم يعبر عن رأيه بأنه لم يفهم القصة، أما آخر فأكد أنه سرح أثناء قراءتي بسبب طولها وثالث عدّد الأخطاء النحوية الكثيرة من رفع المفعول ونصب الفاعل وعدم جر المضاف إليه في حين التزم صابر وشرقاوي الصمت ..

أراه يرفع وجهه، يمسح زجاج نظارته ويطلب الكلمة فيهز مدير الندوة رأسه، يرفع إصبعه ويتحدّث :

- هذه هي القصة الثانية لقاص فاز من قبل في مسابقة الثقافة أما عن الأخطاء فطبيعي لأنه لم يدرس القواعد بشكل جيد ويسهل إصلاحها، أما عن القصة فإنها جيدة وفكرتها رائعة لأنه عبّر فيها عن علاقة الإنسان

بالحيوان الوفي الذي يفضل الموت على مغادرة مطرحة.. قصة جيدة مع قليل من التعديلات ..

لا أصدّق أن هذا التشجيع كان من الأستاذ أيمن الذي سعدت برؤيته أخيراً، هذا الأستاذ الذي له الفضل في نصحي يوماً بتغيير حالي إلى الأحسن وأنا في مكاني، بعد تعقيب الأستاذ أيمن أنهى المقدّم الندوة وانصرفنا، استأذنت منه في الحديث معه قليلاً، سألتني عن أسرتي وفرح عندما أخبرته أنني أبّ لبنتين وعرفت منه أنه استلم عمله كمعلم لغة عربية، أكد لي جودة القصة فأعطيها له ليصلح ما بها من أخطاء نحوية، أخذ الورقتين ووعدني بمراجعة القصة وبلقاء بعد يومين في حديقة الطفل أو مكتبة القصر ..

رجعت إلى البيت وأنا مزهو من التشجيع الذي تلقّيته في الندوة وليس من أي واحد، إنه الأستاذ أيمن الذي تمنيت لقاءه والكلام معه من زمان وأنا لا أعرف ما الذي يشدني في تلك الشخصية البسيطة التي تبدأ بتشجيع العمل ثم النصيحة بالإصلاح إن وجد خطأ ..

أمي وخالتي أغلقتا الدكان ونامتا، أما عفاف فقد انتظرت حضوري لتحضر لي العشاء فتناولته مع مريم التي رفضت الطعام حتى تأكل معي أما ضحى الأكلة فقد ملأت معدتها وكعادتها غطت في نوم عميق، خرجت من الغرفة ولحقت بي مريم، أجلستها على المكتب، براحتي أمسح شعرها، ضممتها إلى صدري عرفانا لجميلها في تشجيعي لكتابة القصة واختيار عنوانها ..

سرحت في نجوم السماء المطلة عليّ، فكرت في نفسي .. برغم أنني لم أبلغ
الثالثة والعشرين إلا أنني أصبح لديّ زوجة طيبة قليلة العقل لا هم لها إلا
الحياة في هدوء وبتان جميلتان وقصتان قصيرتان وعشرات الكتب لا أمل
قراءتها أما طيف وجه ماري الحزين آخر مرة رأيتهما فيه فلم يفارق ذاكرتي
إلى الآن ...

ضفرت عفاف شعر مريم وربطت الفيونكة الحمراء، ألبستها حقيبة جلد صغيرة لونها فوشيا بها ساندوتش جينة وآخر مربى الفراولة وعلبة مناديل وكراسة وقلم رصاص، جلست على الكرسي وألبستها بنفسبي الشراب الأبيض والجزمة السوداء اللامعة أما مريلتها فبدت رائعة بعد أن فردتها باللكواة ..

زغردت أمي ونحن خارجان من البيت أما خالتي رزقين فقد قبلت مريم في عنف وهي تمسح شعرها الناعم، ابتعدنا عن البيت ومريم تلتفت وتشير لأمها التي تقف أمام الشباك تحمل ضحى المنهمكة في تناول عصا السمسمية، أمام مدرسة الثورة، توقفت برهة وطيف من أطيايف الطفولة ومض في خيالي، رسمي العامل يكنس أمام المدرسة، الأستاذ بكر يرتدي زيه الرياضي ويقف كعادته وسط الفناء الداخلي، العديد من المدرسين القدامى لا يزالون بالمدرسة وقد تسلت الشعيرات البيضاء براءوس بعضهم، سمعت صوت الجرس فصوبت نظراتي ناحيته لكني رأيته ساكنا والسيخ الحديدي مقصوف فأيقنت أن الجرس الكهربائي حل محله، استأنفت السير حتى مدرسة الناصرية المجاورة للإدارة التعليمية، دخلت قابضا على معصم

مريم مع العديد من أولياء الأمور الذين يصطحبون أبناءهم وبناتهم في اليوم الأول من الدراسة ..

في فصول رياض الأطفال أجلستها بجوار أصحابها في KG١ .. بدا الانقباض على وجهها لكن معلمتها ذات الابتسامة العذبة بدأت تشغلهم أغنية :

ذهب الليل وطلع الفجرُ والعصفور صوصو ..

أشرت لمريم بأنني سأنصرف ووعدها بزيارة بعد قليل ولأنها واثقة في كلامي فهزت رأسها عدة مرات، تركتها لأول مرة في حياتي لتخوض تجربة الدراسة، ذهبت إلى الأرشيف، فتحت الباب فهرول فأرّ مذعور واختبأ بين الأكياس، جاء لي عامل البوفية بساندوتشين طعمية وكوب الشاي ..

أخبرني الساعي أن وكيل الإدارة يريدني، أنهيت إفطاري وأسهرت إليه، أخبرني أنه تم الموافقة على طلبي الذي قدمته منذ شهر بصرف (استاند) حديد للأرشيف ويجب أن يوقع الأستاذ خلف على استلامه، انصرفت من مكتب الوكيل متجها إلى سويتش الإدارة، اتصلت بخلف فأخبرتني زوجته أنه في البيت الثاني، أعدت الاتصال به فرد عليّ بأن أستلم (الاستاند) وأوقع مكانه، رفضت بشدة لا خوفا من الاستلام فأنا الذي ألحيت على الطلب لكن لأن هذه العهدة مسئولية موظف الأرشيف المتكاسل حتى عن الحضور، مضت ساعتان حتى جاء خلف، اصطحبني إلى المخزن، حملت مع عامل آخر الاستاند بأرففه الحديدية الثقيلة إلى الأرشيف عندها انصرف خلف وتركني لأرتب الملفات بنفسني، أثناء إخراجي الأكياس المملوءة بالأوراق

خارج الأرشييف هرب فأر خلفه زوجته باحثا عن مأوى آخر بعيدا عن الحياة بين ملفات الموظفين، بمكنسة متهالكة كنست الزبل الناشف، ركنت (الاستاند) جوار الجدار حتى قارب رفه الأخير من الشباك العريض، بدأت بالجوال الأول، أخرجت كل الملفات منه، رصصتها جميعا في الرف العلوي فملأته عن آخره، أذن الظهر وأنا أفرغ الأكياس وأرص الملفات التي تمزقت أغلفتها القديمة وقد نسيت أن أذهب إلى مريم وقت الراحة، بقي كيسان، أدخلتها الأرشييف وأجلت إفراغها إلى الغد، غسلت يدي ووجهي المعفرين من التراب وأسرعت إلى الحضانة فوجدتها تبكي ومعلمتها تحاول تهدئتها، خنجر نغز قلبي لدموعها الغزيرة، ظللت أداعبها حتى هدأت وتوقفت عن البكاء، مسحت خدها، مشيت بها في شارع السوق واشترت لها قبعة صغيرة تقيها أشعة الشمس القوية، جرت نحو جدتها رزقين التي حضنتها ثم ألقى بنفسها بين ذراعي أمي فأغرقت وجهها بالقبلات، أما عفاف فقد التصقت بمريم حتى كادت أن تدخلها بين ضلوعها، انفلتت من صدر أمها، مالت على أختها ضحى وقبلتها، قدمت لها بالونة فدفعتها ضحى وهي تضحك وتنط فشاركناها جميعا الضحك، صعدت إلى الغرفة، مددت جسمي على السرير لأستريح من إجهاد اليوم، عزمت فور انتهائي من رص الملفات أن أرتبها حسب السنوات الأقدم فالأحدث ..

• • •

انقضت الأيام وأنا أعيد ترتيب الملفات بل وأبحث عن غلاف للملف الذي تمزق غلافه وأكتب بنفسى بيانات صاحبه ومن حين لآخر يمر عليّ

الأستاذ خلف مشجعا وهو يردد دائما : لك ثواب كبير عند الله فأهز رأسه وأنصحه بأن يلتزم في عمله سيكون له ثواب أكبر عند الله فيرد وهو ينفث دخان سيجارته : البركة فيك يا غريب ..

أيقنت أن لا فائدة من إصلاح حال خلف الذي مرد على الخمول مثله مثل العديد من الموظفين الذين لا يرون نفعاً من عملهم سوى الجلوس لمراقبة أكداش من الأوراق لمعلمين وعمال وإداريين خرجوا من الخدمة ومنهم من مات وبقيت سيرته بين دفتي ملف تنتظر من يسأل عنها ..

طلب مدير قسم التسويات أحد الملفات فسحبته في سرعة وذهبت إليه، وضعته على المكتب الذي ينشغل صاحبه في مكالمه هاتفية، لفت نظري جرنال الأهرام المفروود أسفل جرنال صغير فظننت أنه ملحق رياضي لكني وجدت صورة الغلاف مختلفة عن الملحق الرياضي المملوء بصور اللاعبين، سحبته وقرأت العنوان : المتنبي .. الدهر المنشد .. مقطعات ..

في سرعة قلبت أوراق الملحق فوجدتها تحتوي على قصائد شعرية ورسوم كثيرة، ينهي المدير مكالمته ويلتفت إليّ معتذرا عن انشغاله الذي تمنيت أن يطول أكثر لأفحص هذا الملحق العجيب، لاحظ اهتمامي به فقدمه لي مؤكدا أنه لن يحتاجه، بينما انشغل في قراءة حظك اليوم ثم الاطلاع على أخبار الوفيات قلبت في الملحق ثم استأذنت منه عائدا إلى الأرشيف، فردته أمامي، قرأت تعريفا للشاعر الذي عاش قديما منذ أكثر من ألف عام ثم قرأت تعريفا لضياء العزاوي صاحب الرسوم التي بين القصاصد ..

طويت ملحق الأهرام وأسرت إلى مريم لنعود إلى البيت وأنا أمني نفسي
بقراءة من نوع مختلف ..

على ناصية الشارع رأيت الأستاذ أيمن يقف، أسرعت إليه، ألقيت عليه
السلام فسلم عليّ في حرارة وداعب مريم التي ضحكت له، بلا مقدمات
فردت أمامه الملحق واستفسرت عنه، قلب بين أوراقه في اهتمام ثم أعاد
ترتيبه وأعاد لي، أوضح أن هذا الملحق الثقافي سينشر في الأهرام الأربعاء
الأول من كل شهر وهذا أول عدد منه بل وشكرني على لفت نظره لهذا
الملحق الذي سيسرع في الحصول عليه بل ونصحتني أن أنتظم في اقتنائه لأنه
مجاني من ناحية وأنه سيعرفني على أدباء كثيرين في البلاد العربية من المحيط
إلى الخليج ..

شكرت الأستاذ أيمن على هذه المعلومات الهامة وعند استئذاني منه
أصرّ أن يشتري علبة بسكوت لمريم التي حملتها بين يديها طوال الطريق إلى
البيت ..

ارتحت ضحى بين يدي وهي تخبرني في جرأتها المعتادة برغبتها في أن تذهب
إلى المدرسة مع مريم، مسحت شعرها فجرت من أمامي إلى أختها التي فتحت
علبة البسكوت ووزعت على أختها وأمها وجدتيها، دهشت لمريم الكريمة
التي لا يمكن أن تأكل بمفردها أي شيء وتحب دائما أن تشاركها أختها في
الأكل أو اللعب ، تركتهم جميعا وصعدت إلى الغرفة، على السرير فردت
الملحق لأتعرف أكثر على الكتاب، قرأت أنه مشروع ثقافي مدعم من منظمة
اليونسكو التي تهتم بنشر الثقافة على مستوى العالم كما أوضح الأستاذ أيمن

خلال كلامه وأنه توجد صحف عربية من كل البلاد مشاركة في نشر هذا الملحق منها صحيفة الأهرام المصرية وفي نهاية الصفحة الأولى مكتوب :
كتاب في جريدة رقم (١) ٥ / نوفمبر ، تشرين الثاني / ١٩٩٧ م
هذا التاريخ يمثل نقطة تحوّل في القراءة التي لم تعد تقتصر على الروايات والقصص القصيرة التي شاهدت معظمها في أفلام ومسلسلات تلفزيونية .

تعرفت على المتنبي وقرأت قصائده كلها، بعض الألفاظ لم أفهم معناها وغير مشروحة في الكلمات الموضحة آخر الكتاب فكتبتها في ورقة صغيرة وكنت أعرضها على معلمي اللغة العربية الذين يترددون دائماً على الإدارة حتى إذا ما وضحوها لي اقترب فهمي لمعاني شعر المتنبي وأحسست بما يريد قوله من معنى؛ فعرفت معنى البيداء بأنها الصحراء والقرطاس ليس ما نعبئ فيه اللب والفول السوداني ولكن معناه الورق ..

انتصف الشهر وقد فرغت من قراءة أشعار العدد الأول من كتاب في جريدة، وضعته في دوسيه جديد وركنته على الرف الأخير من المكتبة بعيداً عن يد ضحى التي تمزق ورق الجرائد وحتى لا تظنه عفاف جرنالاً عادياً وتفرشه تحت الأطباق أو تلف به الخبز والجرجير ..

على أحرّ من الجمر انتظرت انتهاء الشهر وجاء يوم الأربعاء الأول من الشهر الجديد ٣ ديسمبر فأسرعت إلى سعد فوجدته يفرش الجرائد والمجلات، اشتريت الأهرام الذي يضم كتاب في جريدة، فردت الكتاب على المكتب، قرأت العنوان الغريب : مغامرة رأس المملوك جابر تأليف : سعد الله ونوس، تأهبت لقراءة شعر لشاعر آخر لكنني فوجئت بتعريف

مختلف عن المؤلف فهو مسرحي من سوريا، بدأت في قراءة العمل فوجدته مسرحية، دق قلبي فأنا أقرأ مسرحية لا أشاهدها في التلفزيون مثل : أنا وهو وهي التي أحبها جدا أو سيدتي الجميلة التي حفظت أدوار فؤاد المهندس عن ظهر قلب بل وأكرر بعض الجمل على زملائي أما الهمجي وتخاريف فلا تفوتني حتى لو تكرر عرضها مرات في الشهر الواحد..

في هذا اليوم من بداية الشتاء لم يزعجني أحدٌ بطلب ملف فمكثت في غرفة الأرشيف الصغيرة الدافئة وشرعت في القراءة حتى الإفطار لم أهتم بطلبه فقط شربت كوبين من الشاي، تسرب الوقت ولم أنته من المسرحية، مررت على مريم فوجدتها تنتظرنني، أمسكت بكفها البارد فضممت كفيها وقربتها إلى فمي ونفخت فيهما أنفاسي الدافئة وهي تضحك، عدنا إلى البيت وفي سرعة وضعت ضحى يدها في جيبي لتخرج نبوت الغفير وتقضمه في شراة، غيرت ملابسي وجلست في الدكان حتى جاءت أمي وخالتي قرب المغرب فجلستا فيه مكاني، صعدت لتستقبلني عفاف بالشاي، تحاملت على عكازيها ونزلت، رأيتهما من الشباك تجلس على عتبة البيت ومريم وضحى تلعبان أمام الدكان ومن حين لآخر أرى ضحى تدخله وتخرج بشيء تأكل فيه فلاحظت جسمها الذي بدأ يكبر ويفوق مريم، جلست على السرير، سحبت البطانية على جسمي وفتحت المسرحية، واصلت قراءتها وأنا مندهشٌ من هذا النوع من الكتابة الذي يحرك الأشخاص المتحاورين طوال الوقت حتى أنني كنت أرفع صوتي وأشير بذراعي في الهواء كلما أعجبت برد جابر على الوزير، التهمت عيناى بقية الأحداث حتى عدتُ إلى الحكواتى وزبائن المقهى الذين بدأت بهم المسرحية ..

مرة أخرى قرأت تعريف المؤلف سعد الله ونوس وحزنت لموته منذ شهور في مايو الماضي وانتابني شعور أنني عشتُ سنواقي الماضية في تفاهة لبُعدي عن عالم كبير وغريب عاشه ويعيشه بشرٌ أفنوا حياتهم من أجل ما قرأته الآن، نهضت خارجاً من الغرفة وفي الدوسيه الكبير وضعت رأس المملوك جابر مع المتنبّي، ركنت الدوسيه مكانه وعدت إلى سريري بعد أن أطفأت النور، شعرت بالبرودة تسري بين أطرافِي، غطيت جسمي، أغمضت عيني فلمع وهج في رأسي أنار الظلام من حولي عندما قررت ألا أتوقف عن القراءة أبداً ولعل هذا هو سر ذلك الكائن الغريب الذي يزورني ويدفعني دفعا إلى تحقيق شيء ما في حياتي ذلك الشيء هو القراءة .. ابتسمت لنفسي التي وجدت أخيراً السبيل للسيطرة على ذلك الكائن الذي أشعر به يعيش بين خلايا جسمي ..

• • •

مضت أيام الشتاء ثقيلة ولا حديث لأفندية الإدارة التعليمية أو قصر الثقافة إلا سيرة نتيا هو رئيس وزراء إسرائيل هذه الأيام وتجميده لطريق السلام الذي بدأ باتفاق غزة أريحا منذ سنوات واختيار ياسر عرفات أول رئيس للسلطة الفلسطينية ولا أدري لمَ لا أهتم بما يهتم به الجميع من حولي، انحصر اهتمامي بقراءة كتاب في جريدة الثالث مع أهرام ٧ يناير ١٩٩٨ م ويحوي أصدقاء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ والذي شاركني احتفالات بداية السنة الجديدة، إنه نجيب محفوظ الذي لم يُعرض في التلفزيون فيلم كتبه إلا شاهدته وعشت معه وعندما أتيحت لي الفرصة وقرأت خان الخليلى

وعصر الحب وزقاق المدق تلك الروايات التي استعرتها من مكتبة قصر الثقافة، رأيت أنها تحوي تفاصيل الحياة اليومية التي يتجاهلها الفيلم أحيانا أو يختصرها في مشاهد سريعة، استطعت أن أفهم ذلك حتى قررت ألا أقتنع بمشاهدة الفيلم بل قراءة الرواية التي تزيدني إمتاعا ..

عدد فبراير احتوى كتابه على قصائد لشاعر عرفت من خلال التعريف به أنه عراقي لكني لم أفهم كثيرا مما كتبه الشاعر بدر شاكر السياب وبالتأكيد فسّرت الأمر بقلّة فهمي، أما قصص من الخليج الذي صدر بداية مارس فقد قرأته كله مرة واحدة ثم وضعت الكتاب مع أصحابه في الدوسية ومع بداية الصيف أحسست بملل من الاحتفاظ بمزيد من تلك الكتب الكبيرة على شكل الجريدة فقررت أن أكتفي بما يحويه الدوسية وأتوقف عن اقتناء المزيد حتى جاء ٨ إبريل فمررت على سعد ودفعني الفضول إلى الأهرام لأقرأ عنوان الكتاب، ذلك العنوان الصارخ جعلني أدفع ثمن الأهرام وأسرع إلى الأرشيف، أفرد الكتاب وأعيد قراءة العنوان :

رجال في الشمس .. غسان كنفاني ..

التهمت عيناى التعريف بالمؤلف ودقّ قلبي في شدة لذلك الكاتب الفلسطيني الذي مات شابا في حادث تفجير سيارته منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما، كنت أعتقد أن الفلسطينيين يعيشون مشردين في أرضهم المحتلة، مطادرين طوال الوقت من الصهاينة أعداء الحياة ولا يهتمون إلا بالمقاومة والدفاع عن أرضهم التي اغتصبها الإسرائيليون ولا أحد منهم عنده وقت للإمساك بالقلم أما أصابعهم فقد اعتادت قذف الحجارة بالمقاليع

في وجه عدوهم منذ انتفاضة ١٩٨٨ التي شاهدت بعضا من أحداثها وأنا في نهاية الإعدادية ..

بدأت أقرأ الرواية وكلما تعمقت استغرقت في الأحداث مع أبطالها حتى شعر قلبي بضيق شديد كالذي شعر به أبو الخيزران سائق السيارة التي تجر الخزان الحديدي وبجوفه المهاجرون وأحسست بجفاف عرقي مع جفاف عرق أبو الخيزران حين سقط على سطح الخزان الملهب من شدة حرارة الشمس، مع دخول السائق إلى جوف الخزان غصت في الكرسي وانكمش جسمي لاكتشافه أن أسعد ومروان وأبو قيس موتى وشهقت نفسا طويلا لخروج السائق من فتحة الخزان واستنشاقه الهواء، دمعت لإلقاء الجثث على قارعة الطريق ثم عودته إليهم لسلب ما في جيوبهم من نقود وتساءلت مع أبو الخيزران عن عدم دقهم لجدران الخزان ولم أجد الإجابة التي ماتت مع موت هؤلاء الأبطال اليائسين ..

عدت إلى البيت فلم أجد عفاف قد جهزت طعام الغذاء بعد وحين رأنتني أُمي مرهقا طلبت أن أصعد إلى غرفتي لأنام وأبقت مع خالتي مريم وضحي حتى لا تزعجاني ..

تمددت على السرير ولم أشعر إلا بصوت الآذان فقررت أن أنهض لأصلي العصر لكن فوجئت بالظلام يخيم على البيت فنزلت على الفور، تكلمت مع عفاف معاتبها لعدم إيقاظي حتى أقف في الدكان بدلا منها ومن خالتي لكن أُمي دافعت عنها بأنها هي التي أمرت عفاف بألا توقظني، تناولت الطعام، جلست خارج الدكان حولي مريم وضحي التي زادت حركتها وجرأتها حتى خافها سمير بن صديق علي الجمال والمعروف بعنفه مع أولاد الشق ..

تطلب مني مريم أن أحكي لها حكاية، وجدها فرصة كي أستعيد بعضاً من حكايا أم وجيه القديمة، مسحت شعرها وبعد أن طبعت قبلة حانية على خدها الأملس هزّت رأسها إشارة بأن أبدأ الحكاية فقلت لها :

- كان يا ما كان ولا يلحى الكلام إلا بذكر النبي المختار..

عندها انضمت إلينا ضحى لتستمع فاستأنفت : كان فيه عنزة كبيرة عندها ثلاث عنزات صغيرة أمرتهم أمهم بألا يفتحوا الباب إلا إذا قالت لهم بصوتها : افتحوا الباب يا بناتي، البرسيم ثقيل على قروني واللبن ثقيل في ضروعي ..

توقفت لحين تناولي لرشفة شاي كبيرة ممطوطة فباغتتني مريم بالسؤال :

- هي العنزة تعرف تتكلم ؟

بهتُ للسؤال المفاجئ فقلت لها : نعم، زمان العنزة كانت تتكلم، المهم، خرجت العنزة لتحضر الطعام وكان فيه ذئب سمع حوار العنزة مع بناتها فانتظر حتى ابتعدت الأم ودق الباب وقلد صوتها، بسرعة نطت إحدى العنزات لتفتح لكن أختها الصغيرة حاولت منعها وهي تقول في صوت مرتفع : أمنا لم ترجع بعد، صوت أمنا أجمل من هذا الصوت لكن أختها الكبيرة فتحت الباب وما إن رأت العنزات الذئب حتى جرت كل واحدة في ناحية تعالت صرخاتهن لكنه هجم على العنزات وابتلعهن أما الصغيرة فقد اختبأت داخل صومعة، خرج الذئب فسارت وراءه العنزة الذكية الشجاعة وتبعته حتى رآته يمد رأسه نحو الماء ليشرب ثم نام على حافة نهر النيل، عادت إلى البيت وأغلقت الباب، بعدها رجعت أمها وطرقت الباب وهي

تقول بصوتها الحنون : افتحوا يا بناتي؛ البرسيم ثقيل على قروني واللبن ثقيل في ضروعي، في سرعة فتحت العنزة الصغيرة وهي تبكي وحكت لأمها ما حدث فأخذت الأم مقصا وخيطا وإبرة و..

تقاطعني ضحى وهي مستلقية على السرير :

- أكيد المقص والخيط من عند أم وجيه ..

أبتسمُ لذكائها وأستمر .. رافقت الأم صغيرتها حتى حافة النهر ففتحت بطن الذئب وأخرجت العنزات ووضعت بدلا منهم حجارة ثم خاطت البطن مرة أخرى واختفوا جميعا وراء شجرة كبيرة، فاستيقظ الذئب وهو يشعر بعطش شديد، أمال رأسه نحو الماء فثقلت الحجارة في بطنه ووقع في النهر وغرق، عندها نطت العنزات ورقصت العنزة الصغيرة فرحة بنجاة أخواتها وعادوا إلى البيت بعد أن تعلموا أن يميزوا صوت أمهم وألا يفتحوا لغريب أبدا .. توتة توتة فرغت الحدوتة ..

نطت ضحى جالسة وهي تقول ضاحكة : لا تفتح العنزات لغريب، لا تفتح لك أنت يا غريب ..

قهقهت لربطها كلمة غريب باسمي وقرصت خدها اللحيم في حين علا صوت مريم بالسؤال :

- وبقيت العنزات حية في بطن الوحش ؟!؟

مرة أخرى تلغثم لساني وجهدت كي أبتكر ردا لم يجرؤ أحد منا ونحن صغار على أن يسأله لأم وجيه حين كانت تروي لنا نفس الحكاية، ومض

الرد في ذهني فقلت لمريم : أصل الذئب حيوان نومه عميق، عميق جدا ولما ينام لا يحس بأي شيء ..

في غير اقتناع هزت مريم رأسها، ولم تلبث أن تلاقى رموشها في استرخاء فربّت على كتفها ونامت أما ضحى فقد ورثت من أمها النوم السريع فنامت هي الأخرى وأقبلت عفاف فركنت عكازيها وتمددت جوارهما وقد لاحظت شحوب وجهها الشديد ونحول صدرها فسألت أمي عن ذلك فأخبرتني أن عفاف قليلة الأكل برغم جهدها الذي تبذله مع مريم وضحى، صعدت إلى أعلى، ألقيت نظرة على أسرتي الصغيرة، شعرت بحنين جارف لعفاف التي حان الوقت ألا تشاركنا البنتان السرير اليتيم في غرفة النوم بل يجب أن أتصرّف في غرفة لهما، أجلت هذه الفكرة وجلست على الكرسي ..

نسمة هواء طيبة طردت حرارة الجو، ناوشني نفس السؤال السابق : لماذا لم أسأل أم وجيه عن شعور الذئب بالمقص وهو يفتح بطنه والإبرة وهي تخطط جلده ؟ لماذا كنا نستمع ونتقبل الحكايات ولا نناقش أم أن جيلنا تربي على عدم المناقشة غير جيل ابنتي السائلتين دائما عن كل شيء

ابتسمت لحالي و مرة أخرى بدأت في إعادة قراءة رجال في الشمس وأنا أتخيل نفسي معهم داخل الخزان ودققت الجدران الحديدية وتم إنقاذنا أو أنني أبو الخيزران وعندما عدت لم أسلب ما في جيوبهم بل حفرت لهم قبورا ودفنت ثلاثتهم ..

صياح الديكة بدد سكون الليل ومعه انقشعت سُحب خيالتي، مسحت
عريقي المتصيب على وجهي، شربت كل ما في الزجاجة من ماء بارد، تمددت
على سريري الجريدي جوار المكتب ومع اهتلال ضوء الصباح تغطيت
بملاءة خفيفة تقيني شر الذباب والبعوض الذي لا يكف عن مهاجمتي ولم
أشعر إلا بسطوع ضوء الشمس القوي ويد ضحى تهز رأسي وتقول لي :

- بابا .. بابا قم .. الشمس طلعت ..

فنهضت في سرعة لأضع رجال في الشمس في الدوسيه مع رفاقهم ..

مع مريم أصطحب ضحى إلى مدرسة الناصرية وألاحظ أثناء عبوري الشارع طستا واسعا يحمله عامود قصير من الحديد على سطح إحدى البنايات وعرفت أنها أطباق لما يسمى بالدش الذي يتم توصيل جهازه بالتلفزيون ويستقبل قنوات كثيرة غير الأولى والثانية والسابعة التي أتابع برامجهم وأفلامهم في تلفزيوني الأبيض والأسود، التفت فرأيت العديد من تلك الأطباق منتشرة على أسطح البيوت والعمارات، تعجبت من نفسي التي لم تلحظ تلك الأطباق من قبل ..

من عاشر القوم .. تأكدت من صدق هذا المثل عندما أغلقت الأرشيف وخرجت أثناء العمل للذهاب إلى المحكمة فقد وعدني الأستاذ جميل كاتب المحامي أن يخبرني عن كيفية صرف معاش السادات الذي طلبت مني خالتي رزقين أن أسأل عنه وقابلت جميل الكاتب وفي ورقة صغيرة كتب لي الأوراق المطلوب تقديمها إلى هيئة التأمينات والمعاشات بأسيوط، شكرته وفي أثناء عودتي إلى الإدارة سمعت أحدا ينادي عليّ، التفت إليه فوجدته الأستاذ خلف يجلس على قهوة المعلم عبد الحي أمامه الشيشة، انحرفت نحوه

فدعاني إلى الجلوس، سألته عن الشيشة فضحك كاشفا أسنانه التي قحلت من التدخين بأنه امتنع عن تدخين السيجارة لأنها تتعب صدره ويدخن المعسل، ضحكت من كلمته الأخيرة ورأيت أبي في آخر أيامه بوجهه الذي سودته سنوات الشيشة فنصحت عم خلف بالكف عن السيجارة والشيشة لأنها تقصف العمر فرد ساخرا : يا سيدي الأعمار بيد الله ..

استأذنت منه داعيا إياه أن يأتي معي إلى الإدارة فوعدني أنه سيلحق بي، ابتعدت وأنا حزين على حال خلف وانتظرته لكنه كالعادة لم يحضر ..

عندما عدت إلى البيت، صعدت مريم وضحى إلى الغرفة ولعبتا على السرير اليتيم بها، تأملتهما وهما تنطان فتصطدم مريم بالجدار وتقع على الأرض ثم تنهض وتشتبك مع أختها وعفاف تنهرهما بأن تكفا عن اللعب في الغرفة، كعادتها تعاند ضحى أمها وتستلقي على السرير فتقلدها مريم ..

أنخُ مائلا نحو السرير فسارعت ضحى بالركوب على ظهري فأنزلتها برفق وعرضت عليهما أن تشابك أصابعهما للعب معا لعبة : جمل الملح، فرحت البنتان وتمددتُ على بطني في حين تشابكت أصابع مريم وضحى ونهضتُ في قوة والبنتان ضحكاتهما ترن في الغرفة وهما ترددان : اجريا جمل الملح، ارمحا يا جمل الملح وأنا أعافر معهما فأبطئ تارة وأسرع تارة أخرى وأصواتهما اللاهية تجعل أمهما تدخل وأراها تهزُّ رأسها متعجبة وأستمر في اللعب مع ابنتي حتى اصطدمت رأسي بحافة السرير وبركت على الأرض عندها وقعت ضحى الثقيلة من على ظهري وهي تضحك ..

نهضتُ جالسا على السرير فأعطتني عفاف كوب الماء، جرعته وأنا أتأمل الغرفة التي أصبحت ضيقة علينا نحن الأربعة، خرجت وصوت

عفاف يعلو لتنزل مريم وضحي عند جدتيهما في الدكان لحين تجهيز طعام الغداء ..

تأملت غرفة الخيز المسقوفة بأطنان البوص وتحتوي على الفرن وأكياس من الرماد وماجور لعجين الدقيق أما البشكور والجرافة فمركونان جانب بيت النار تجاورهما صومعة قديمة تعتز بها أمي لأنها ورثتها من أمها التي صنعتها وهي بكر ..

فور انتهائي من بناء فرن جديدة بالدور الأرضي آخر البيت هدمت الفرن القديمة بأعلى، سقفت الغرفة ونظفتها جيدا وبعد تركيب الباب وبياضها ولصق البلاط بها ثبت في أحد العروق لمبة فلورسنت وبما تبقى من مكافأة الامتحانات اشتريت سريرين خشب لضحي ومريم التي فرحت به وفرشته بنفسها بملاءة جديدة أتت بها أمي بل وساعدت ضحي في فرش سريرها .. أصبح لابتني غرفتهما المستقلة ووعدتهما بدولاب صغير العام القادم إن شاء الله أما عفاف فقد اكتفت بالدعاء لي بطول العمر وأن يحفظني الله لهم وأعيش وأفرح بهما ولم تقصّر في كنس الغرفة وبخاصة من أوراق البسكوت والشيبسي التي تلقيها ضحي تحت السرير أو جانبه أو حتى على سرير مريم ..

• • •

ذاكرت لمريم درس القراءة ثم ساعدتها في واجب الحساب، أغلقت الكسولة ضحي عينيها فسحبت عليها البطانية فنامت على الفور أما مريم فقد انتظرت جدتها رزقين للعشاء معها ثم سعدت ونامت بدورها على سريرها، أمضيت ليلتي أشاهد التلفزيون الذي خصص كل قنواته لعرض أحداث مضت في القرن الماضي والاحتفال بقرب بزوغ شمس القرن المقبل من عام ٢٠٠٠ م.

انقضت تلك الليلة الباردة وأنا أتوقع أن يكون الغد من عام ألفين مختلفا عن بقية الأيام، بمفردي ذهبت إلى أرشيف الإدارة بعد أن قررت مريم وضحي الغياب من المدرسة والنوم في الغرفة الدافئة ..

ألحظ أثناء سيري أن الشمس غائبة خلف السحاب المتراكم، علام البقال العجوز ما يزال يتنخم ويفرغ ما في فمه، مخيمر السحلية يقف أمام بنك الدكان ويتربع السبورتو من زجاجته العتيقة، رسمي فراش مدرسة الثورة برغم قطرات المطر التي تدمع بها السماء في حياء إلا أنه يمد الخرطوم ويرش الماء أمام المدرسة .. أكوام البرسيم يرصها الفلاحون استعدادا لبيعها، الباعة أمام باب الإدارة ينصبون الشماسي على عرباتهم لتقي الخضروات والفاكهة من المطر المنتظر نزوله، عامل السوتش في الإدارة يتكئ على كرسيه الواطئ، موظفو الحسابات يتبادلون الأوراق والدوسيهات والملفات الكثيرة، الأرشيف بأرضيته الباردة يهراً قدمي، جلست وأمامي عددٌ قديم من كتاب في جريدة كان قد صدر في سبتمبر من العام الماضي وهو قصص قصيرة بعنوان : الشهداء يعودون هذا الأسبوع لكاتب جزائري اسمه الطاهر وطار، قرأت بعض القصص حتى انقضى نهار العمل فعدت إلى البيت وأنا أنتظر كتاب في جريدة الحديد الذي سيصدر في ٥ يناير من تلك السنة التي احتفل العالم كله بمولدها من رحم الزمن اللامتناهي والتي أراها عادية في كل شيء وجاء الأربعاء لأجد الكتاب قصائد لشاعر عراقي اسمه البياتي، ركنت الجريدة على المكتب ولم أقرأ منها حرفاً .

• • •

تمر الأيام رتيبة، يوم يودع أباه ويستقبل ابنه في ديمومة سرمدية لا تنتهي حتى مررت أول فبراير على سعد بائع الجرائد فأخذت منه الأهرام ولم أكلف خاطري بقراءة عنوان الكتاب الذي تحتويه الجريدة، ركنتها على أحد الرفوف وانهمكت في ترتيب بعض الدوسيهات التي وردت الأرشييف حديثا، عدت إلى البيت، ألقيت بالجريدة على المكتب، تمددت بعد الغذاء وفور استيقاظي نزلت لأقف بدل أُمي في الدكان حولي مريم وضحى تلهوان بكرة صغيرة ثم سعدتا وتبعتهما بعد أن قلّ البيع في تلك الليلة الشتوية قارسة البرودة ..

دخلت البيت فوجدت أُمي وخالتي كعادتهما تجلسان أمام ماجور صغير به جمار من عظام الذرة المتوهجة، سعدت لأعلى، مريم نامت أما ضحى فلا تزال تأكل البطاطا المشوية التي أعطتها لها جدتها رزقين وعفاف تحيط فتقا في مريلة ضحى ثم نهضت لتسخن لي طبق الفول، فور انتهاء العشاء ثاءبت عفاف ونهضت من فورها لتنام ، أما أنا فقد رافقني كوب الشاي الحميم سهرة الليلة فتناولت في ملل الأهرام، استطلعت الأخبار المكررة، طويته وأنا أتمهي للنوم لكنني فردت الكتاب، دهشت للعنوان : مدينة الرياح - رواية - أما اسم المؤلف فكان أكثر إدهاشا (موسى ولد ابنو) أديب من موريتانيا، أعرف أنها دولة عربية أقصى الغرب جنوب المغرب، قرأت المكتوب عن المؤلف الصحراوي، عرفت أنه تعلم في أوروبا ..

مع الكوب الثاني للشاي بدأت في القراءة بعد أن لففت البطانية السوداء على جسمي فلم أشعر بالوقت إلا عند بداية التواشيح قبل أذان الفجر وأنا أذوب في تلك الأحداث المدهشة عن عالم الصحراء الغريب الذي نبع منه

الكاتب فجعلني أشم رائحة الرمال وبرغم الشتاء القاسي هذا العام إلا أنه
جعل حلقي يجف وشعرت بالعطش الذي يقاسيه البطل طوال المواقف التي
يقع فيها ..

شق عليّ أن أترك الرواية لكن النوم الثقيل جعلني أقرر استكمالها في نهـار
اليوم الذي لم يتبق إلا القليل لبزوغ شمسـه ..

-٣٠-

الآن أجلس لأواصل الكتابة، رائحة الشاي المغلي تهدد نفسي المشتاقة إليه، أنظر إلى منبه مريم لأجد الساعة قاربت على الواحدة ظهرا، اشتقت لوصول أمي وخالتي وعفاف وبناتي لكن مريم اتصلت بي صباحا من هاتفها المحمول وأخبرتني أنهم ربما يتأخرون إلى الليل، تحمست أكثر لأكمل الكتابة، قلبت الورقة لأفاجأ بأن بقية الكراسية وجه مسطر والآخر أبيض، فحصدت الأوراق التالية لأجدها مثل الصفحة التي أمامي، القلم جاد بآخر نقطة من حبره بعد كلمة - شمس - فغيرت القلم بآخر به القليل من الحبر، سأواصل الآن الكتابة في الصفحة المسطرة وعندما تنتهي سأحاول ضبط خطي في الصفحة البيضاء المقابلة .

• • •

أنهيت قراءة مدينة الرياح فلذت بالصمت وطال سكوتي لهذا العالم الذي بسط الروائي مفرداته أمامي وشيء داخلي يؤكد لي أن هؤلاء لم يصلوا إلى أن يقرأ العالم كله أعمالهم إلا لأنهم كتبوا بيئتهم التي أنبتتهم فكانوا بارين بها .. انقضت أيام الشتاء الثقيلة وأنا أداوم على رص كتاب في جريدة حتى

تكوّن عندي أكثر من ثلاثين كتابا لكتاب مصريين وعرب من المحيط إلى الخليج وأصدقكم أنني اهتممت أكثر بقراءة الأعمال التي تحتوي على قصص قصيرة أو روايات لكنني ربت في الدوسيه كل الأعداد على حسب صدورها الأقدم فالأحدث ومن حين لآخر أتأمل هذا الكنز الذي امتلكته على مدى الأعوام السابقة ..

انتهيت من قراءة (النهايات) لكتاب سعودي يقيم في سوريا اسمه عبد الرحمن منيف، أعجبت بسرده عن رحلة في الصحراء، في شوق انتظرت كتاب سبتمبر وفوجئت بأنه مختارات لشاعر اسمه خليل حاوي تحت عنوان: الناي والريح .. أسفت لعدم فهمي للقصيدتين اللتين قرأتها فركنت الكتاب مع أصحابه في الدوسية ..

لا أدري سببا لميلي هذه الأيام لمشاهدة المسرحيات والأقلام القديمة فشاهدتُ كل ما تسمح به الفرصة ويُعرض في التلفزيون ولحظتُ أمي وعفاف تعلقي بالتلفزيون حتى أدمنت اصطحابه في الدكان ضاربا بعرض الحائط اعتراضات مريم وضحي اللتين تريدان مشاهدة برامج الكارتون وتوم وجيري حتى كان ذلك اليوم في نهاية سبتمبر تتفجر انتفاضة كبيرة ومصادمات رهية بين الجيش الإسرائيلي الغاصب وقوات الأمن والشعب الفلسطيني وشارون الخرتيت يتوعد ويهدد بقتل الفلسطينيين، فامتلاتُ القنوات بأخبار الانتفاضة ولم أحرم نفسي من متابعتها وهلعت لتكرار عرض مشهد استشهاد الطفل الفلسطيني محمد الدرة جوار أبيه في إحدى مناطق غزة وخالتي عينها تدمع وهي تقول :

- لك يوم يا ظالم، نهايتك أسود من قرن الخروب يا شارون ..

تمضي الأيام ولا حديث لإنسان في البلد إلا عن أخبار الحرب الدائرة في فلسطين حتى أنني أسمع الكلمات في الإذاعة المدرسية بمدرسة الناصرية المجاورة للإدارة تتناول أخبار الانتفاضة التي حسبت أنها لن تنتهي، التزمت الصبر والدعاء للفلسطينيين بالنصر ويرحم الله الشهداء ويتنقم من الظالمين الذين استباحوا دماء الأطفال الأبرياء ..

• • •

في تلك الليلة الشتوية قارسة البرودة وأنا ملفوف بالبطانية، أشاهد باهتمام فيلماً عن الهرم الأكبر وتمثال أبي الهول ومشاهد من مقابر الأهرامات وتجولت الكامير في أركان مقبرة مهندس الهرم المزينة جدرانها بنقوش زاهية، تحيلت أنني ممن شاركوا في بناء الهرم بأحجاره الكبيرة أو من الذين ظلوا أعواماً ينحتون أبا الهول الرابض أمام الأهرام، أندھشُ للإنسان المصري الصبور الذي لا يتراجع عن تحقيق ما يصمم على تنفيذه مهما كانت العراقيل التي تواجهه حتى أنهم تركوا لنا تلك الآثار العظيمة التي تدل على قوتهم ..

أغير القناة، لفت انتباهي بشدة الخبر الذي تذيعه إحدى مذيعات برنامج ثقافي بأن طالبان الحاكمة في أفغانستان تدمر تماثيل بوذا، حملقت في الصور الكثيرة التي يعرضها البرنامج وتقرير المذيعة عن تلك التماثيل التي تعود إلى مئات الأعوام، ضربت كفا بكف والحيرة تنهش نفسي المغومة وأتساءل عما فعلته تلك التماثيل المسكينة المنتصبة في هدوء لهؤلاء كي يعتدوا عليها بدانات المدافع وطلقات الدبابات والمتفجرات، عندنا أبو الهول والهرم

وتمائيل رمسيس تشهد على عظمة أجدادنا ولا أحد منا يسجد لها أو يعبدها، اغتظت في قرارة نفسي لما يفعله هؤلاء المتشددون فيظن العالم أن هذا هو الدين ..

عرفتُ أفغانستان وأنا صغير أنها الدولة التي حاربت الاتحاد السوفيتي حتى هزمته، ما زلت أتذكر تلك الليلة بعد صلاة العشاء، عرض واحد من الجماعة الإسلامية فيلماً عن المجاهدين الأفغان ومقاومتهم للهجوم السوفيتي على بلادهم وعندما انطلقت دانة دبابة وأصابت موقعا للجنود السوفيت ارتفعت أصوات الجالسين بالتكبير والتهليل فماذا يحدث اليوم في تلك الدولة التي أذهلت العالم كله بصبرها وجهادها ووقوفها أمام أقوى دولة في العالم، أغلقت التلفزيون وقررت أن أنسحب مما يضيق صدري بالنوم .

في اليوم التالي انهمكت تماما في الدكان وانشغلت أمني وخالتي وعفاف بالخبز حولهم مريم وضحي فظل التلفزيون مغلقا طوال النهار، أكدت عليّ عفاف أن أصطحب البنتين لأشتري لهما ما يلزم المدرسة والحقائب الجديدة، سرت معهما في شارع السوق وفرحت كل منهما بأشياءها وأصرت ضحي أن تحمل شنطة المدرسة داخلها الجزمة السوداء وفي طريق العودة أفاجا بتجمع عند باب قهوة أبو شنب والبعض يكبر وآخرون يصيحون، سألت أحدهم عن مباراة كرة القدم فضرب كفا بكف وهزّ رأسه وهو يقول : ضربوا أمريكا..

دق قلبي في قوة وأنا أستمع إلى الرجل يتحدث مع من حوله عن طائرات اصطدمت بعمارة كبيرة في نيو يورك وانهدّ البرج والبرج الذي يجاوره على

كل من فيه، هممت أن أزاخم المتفرجين في القهوة لأرى ما يحدث لكن مريم وضحي معي فأسرعتُ بالعودة إلى البيت وفتحت التلفزيون لأشاهد تلك الأحداث التي سيطرت على القناة الأولى والثانية والتقارير الإخبارية عن أعداد الضحايا التي تتزايد باستمرار، انقضى الليل الصيفي وأنا أتابع تكرار عرض مشاهد تدمير برجى التجارة في نيويورك بعد أن اخترقتها الطائرات السريعة ولقتت الأحداث انتباه أُمي وخالتي فتابعنها معي وأنا مصعوق من أمريكا ذلك الحوت الكبير والتي تفاخر دائما بقوتها وأنها أصبحت زعيمة العالم يتم ضربها في مقتل، تحدثت بصوت مسموع :

- أمريكا .. الحوت الكبير انضربت ..

تسمعني أُمي وتهز رأسها وانتظرت هدية خالتي رزقين التي لم تتأخر عليّ فقالت :

- كل حوت وله صياده ..

أصدّق على حكمة خالتي التي نطقت بها في تلقائية وحين ذهبت إلى الأرشيف لم يكن لأحد سوى الكلام عن ضرب أمريكا وعرفت أن مبنى وزارة دفاعها تم استهدافه هو الآخر وسقطت طائرة عليه، البعض يرى ذلك انتقاماً من أمريكا التي تساند إسرائيل في كل ما تفعله بشعب فلسطين وآخرون يعتبرون ما حدث جريمة وستنتقم أمريكا ممن فعلها وستطارد الإرهابيين في كل مكان بالعالم وانتشرت شائعات بأنه سيتم تأجيل افتتاح المدارس لكن انقضت الأيام وبدأت الدراسة في موعدها .

• • •

عفوا ..

فقد اكتشفتُ الآن أنني كتبت في الصفحة الفارغة من الأسطر وأعتذر عن خطي المائل بها لكنني الآن أتهياً بعد أن غيرت القلم الذي أنهيت على حبره بآخر يتمتع بشبابه للكتابة في الصفحة الأخرى ذات السطور الزاهية ..

• • •

الأشهر التالية حملت أحداثاً أكثر إثارة غيّرت العالم كله بعد أن هاجمت أمريكا التي حشدت العديد من الحلفاء أفغانستان وقضت على نظام لحكم طالبان مدعية أن هذه الجماعة الحاكمة لأفغانستان هي التي تحبى أسامة بن لادن مدبر تلك الهجمات التي هزّت أمن أمريكا، بمرور الوقت بدأت أستخف بكل ما يحدث وكما قال مدير الحسابات يوماً أن أمريكا تفعل ذلك لتزيد سيطرتها على العالم كله بعد أن هزمت الاتحاد السوفيتي دون حرب .

عدت إلى الانطواء على نفسي، قلبت في دوسيه كتاب في جريدة، قرأت عصفير النيل لإبراهيم أصلان التي لم أكن قرأتها منذ أن اقتنيتها في أول أربعماء من أكتوبر ..

مرت الأسابيع حتى جلست مساء الخميس لأقلب في الجرنال، اكتشفت أني لم أشتري أهرام الأربعماء الذي يحتوي على الكتاب الأول لهذا العام ٢٠٠٢م، راودتني نفسي الاكتفاء بالخمسين كتاباً التي يكتظ بها الدوسيه الثاني والتي أتممتها بكتاب : وحشة الطريق وهو مختارات من نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب مقرر أن أقرأ ما لم أقرأه وهو الكثير وأعيد قراءة ما أعجب به من كتب وبخاصة قصص : عباد الله لذكريا تامر لكن شعرت بالتقصير في حق

نفسى لتفريطى فى كتاب يتاح لى بثمان الجريدة وىقرأه العالم العربى من المحيط
إلى الخليج ولا أشتريه فقررت أن أواصل اقتناء الكتاب ولا أتوانى فى ذلك
أبدا .

في صباح الجمعة هرولت إلى سعد فأخبرني أن الجرنال معه في البيت وطلب أن أحضر إليه بالليل كي آخذه، فرحت أشد الفرح وحمدت الله أن العدد رقم ٥١ من كتاب في جريدة لم أفقده بعد، حان وقت صلاة الجمعة وما إن دلفت إلى جامع السوق حتى لاحظت نقالة الموتى المغطاة بملاءة خضراء كبيرة مركونة خلف المصلين وبعد أن أنهى الإمام خطبته عن عمل الدنيا والاستعداد للأخرة والعبرة بالخواتيم أقيمت الصلاة وبعدها حمل لفيف من الرجال النقالة وبرفق ركنوها أمام المصلين، رفع الشيخ يديه بالتكبير الأولى لصلاة الجنازة ثم أنهى صلاته بالدعاء للميت الذي عرفت حين خرجت أنه: مخيمر السحلية .

تعجبت أشد العجب من خاتمة الرجل الذي يُصلي عليه أكبرُ جمع من الناس وفي خير يوم طلعت فيه الشمس، يوم مبارك هو يوم الجمعة وبعد صلاتها العظيمة، خرج النعش وعلى المقطورة استقرّ فلم أتردد وركبت، وصلنا للمدافن وفي بقعة منزوية بعيدة اتجهت الجنازة، تم إنزاله القبر وأهيل عليه التراب، عدت وأنا متعجب من أمر مخيمر الذي عاش وحيدا شريدا لا تؤنسه سوى زجاجة الخمر ثم يندفن أيضا وحيدا في قبر بعيد ويحسن الله خاتمته كما كان يدعو دائما فيصلّي عليه كل من بالجامع الكبير وفي يوم جمعة،

عدتُ من الجبل وأنا راكب جوار علام البقال الذي بادر بفتح دكانه فور وصولنا وهو يترحم على رفيق جلسته، اقتربتُ منه، سألتُه عن مخيمر فردّ:

- اسمه مخيمر عبد المتعال، نزل البلد مع مهجّرين الحرب بعد ٦٧ قالوا أنه بور سعيدي لكنه مرة قال أنه من بور فؤاد وبعد حرب ٧٣ رجع بلده واشتغل وكان يعمل على ونش كبير في شبابه لكن واحد كبير اشترى الشركة في أواخر السبعينات وطرده عماها بعد أن حولها إلى شركة مقاولات كبيرة تعمل لحسابه الشخصي وكان هو من ضمنهم فرجع الصعيد ليعيش على الفتات إلى أن انتهت حالته على ما عرفته الناس من سكر وعريضة ..

نهش الفضول نفسي المغمومة من سماع حكاية الرجل فسألت علام عن ظروف موته فhez رأسه وهو يترحم:

- في أيامه الأخيرة لزم النوم على مصطبة جامع السوق لأنه يحتاج الحمام وليلة الجمعة بات في الجامع وصلى الفجر مع الناس لكنه بقي بعد خروجهم وفي الصباح فوجئ عlish عامل الجامع به يسجد ولما هزّه اكتشف أن السر الإلهي طلع ..

كادت الدموع تطفّر من عيني وأنا أرقب قسّمات وجه علام البقال وهو يروي نهاية السحلية حتى إذا ما صمت قلب بين يديه زجاجة مخيمر القديمة وركنها أعلى الرف وهو يترحم عليه .

مرّ اليوم وأنا أفكر في مخيمر عبد المتعال ومصيره الذي انتهى به إلى أن يعيش صعلوكا ثم يموت غريبا عن بلده، ظللت وقتا ينهشني التفكير في ساعاته الأخيرة .. كيف أمضاها وبمّ كان يشعر، سألتني أمي فور عودتي

إلى البيت عن تأخري بعد الصلاة فأخبرتها بجنائز السحلية فقالت : زمانه في جهنم لكن خالتي رزقين اعترضت بشدة على رأي أُمي ولم تحرمني من حكمتها فألقت واحدة من حكمها المأثورة :

- ربك رب قلوب والعبرة بالخواتيم، يمكن يكون عند ربنا أحسن منا كلنا.

تركتهما ووقفت في الدكان وأنا أفكر في حال الرجل وسيرة حياته التي عرفتھا مؤخرا، وسألت نفسي : ما دمت أستطيع أن أكتب قصة قصيرة فلماذا لا أكتب قصة طويلة عن حياة مخيم السحلية، نعم .. سأكتب قصته يوما لتصبح رواية كبيرة مثل تلك الروايات التي قرأتها، تحمست أول الأمر ولكن رويدا نفضت التفكير خلف ظهري حتى انقضى اليوم فأغلقت الدكان وتمشيت إلى شق الخطبة حيث يعيش سعد، سألت عن بيته فقادني ولد صغير عبر الحوار حتى دخل بيتا يضج بأصوات العيال ولم يلبث أن خرج سعد فسلم علي ودعاني إلى الدخول لكنني اعتذرت له فعاد إلى البيت وخرج وفي يده الكتاب ، تمتع بشدة وأنا أعطي له الجنيه وعندها خرج أحد عياله من البيت الضيق ففردت الجنيه أمامه فالتقطه الغلام الصغير ودخل البيت في سرعة، أراد سعد أن يمشي معي لأول الشارع فأوقفته وشكرته، عدت إلى الشق، جلست وأمامي الكتاب :

التبر - رواية - إبراهيم الكوني

دهشت للمؤلف الليبي الذي قرأت التعريف به فقد كنت أحسب أن ليبيا ليس بها غير القذافي الآن وعمر المختار الذي شاهدت فيلمه قديما وهو يحارب الطليان إلى أن قبضوا عليه وأعدموه قدام عشيرته ..

أما الرواية ذاتها فللمرة الثانية أغوص في رمال الصحراء بما فيها من رياح وأشجار وكائنات وبشر يتحailون على الحياة الشديدة في هذه البقاع القاحلة أما الجمل المهري الأبلق فكان هو بطل تلك الرواية الرائعة والتي ندمت أشد الندم على أنه ساورني بعض التفكير في التراجع عن اقتناء الكتاب ..

• • •

أقبل الصيف بحرارته الخانقة والتي يبقى الناس في البيوت نهرا أما الليل فإنهم يخرجون للتنزه والجلوس بالمقاهي أو أمام عتبات البيوت إلا أنا، أعشقُ البيت وإن خرجت فأجلسُ أمام الدكان مع مريم وضحي التي كبرت مرة واحدة وأصبحت أطول من أختها وعلى غير العادة عندما أغلقت الدكان وصعدت إلى الغرفة، أجدهم متجمعين فيها وتفاجئني أمي بأنهم يريدون شراء تليفزيون ملوّن و دِش يأتي لهم بمائة قناة وبعد إلحاح أمي وخالتي ورغبة مريم وضحي التي تغيب ساعات عند الجيران لتشاهد قنوات الكارتون وتأکید عفاف التي تعشق المسلسلات طلبت منهم الانتظار أياما حتى مكافأة الامتحانات التي أوشكت أن تصرف لنا فارتمت ضحي عليّ تحضني وقلدتها مريم التي أملتني على السرير وأمطرني بالتقبيل أما أمي وخالتي رزقين فقد دعوتا لي بطول العمر وأن أفرح بزواج ضحي ومريم ويرزقني الله بالولد ..

بعد عشرة أيام وقفت أمام البيت وأنا أرقب الطبق المنسوب على عامود أعلى البيت أما التليفزيون ١٦ بوصة الملون يجاوره الريسيفر فقد ركننا على منضدة صغيرة في صالة البيت وقد فرشت عفاف حصير بيلاستيك كبير

وجلست والجدار يسند ظهرها تجاورها مريم أما ضحى فقد استلقت على حجر جدتها رزقين تشاهد كارتون توم وجيري وهي تأكل الملبن الذي تحبه بشدة، ضحكت لمنظر أُمي التي جهزت العشاء ووضعت الطبلية وسط الحصر وجلسنا جميعا أمام قنوات الدش التي تولت ضحى تغييرها بالريموت كنترول وبدأت المناكفة بينها وبين مريم وجدتيها على مشاهدة الأفلام والمسلسلات والكارتون أما أمهما عفاف الصموتة فدائما ترضى بقليلها ففضلت مشاهدة المسلسلات والأفلام في التلفزيون الأبيض والأسود القديم .

تركتُ لهم الدنيا وصعدت بعد العشاء إلى الغرفة لأجلس أمام المكتب فقرأت شيئا من متون الأهرام ونصوص من سفر البنيان لجمال الغيطاني، شعرت بالسأم فركنت الكتاب في مكانه بالدوسيه الثالث من كتاب في جريدة ، نهضت لأدخل الغرفة، تقلبت على السرير محاولا النوم ولما لم أستطع نهضت واقفا أمام الشباك المفتوح أراقب المارة البعيدين في الشارع العمومي، من حين لآخر يتناهي لمسامعي أصوات مريم وضحى اللتين اعتادتتا المهاترة مع أمهما وجدتيهما .

ظللتُ مكاني إلى أن تعبت ساقاي فهيمتُ أن أعود إلى النوم وقبل أن أكمل الاستدارة توقفت محذقا في الشبح المطل من نافذة بيت الأستاذ رمزي، دققت النظر لأتبين ملامح فرحان أو وحيد كي أذهب لأسلم عليهما لكن قلبي اهتز لوجهها الذي بدا واضحا عندما أنيرت الغرفة، إنها ماري .. ماري هنا .. عادت من إيطاليا بعد كل هذه الأعوام الطويلة ..

نزلت في سرعة لأسأل أُمي عن أحوال بيت رمزي فأجابتنني أنها كانت عندهم من يومين لتخبز بسبب عودة ماري من إيطاليا بدون زوجها الذي بقي في ميلانو وتركها ترجع بمفردها ..

- وأولادها ؟

نطقْتُ بالكلمة فهزت أُمي رأسه وهي تخبرني أنها لم ترزق بأولاد وبعد الكشف في إيطاليا اكتشفوا أن العيب منها فاختلف زوجها معها ورجعت ..

لا أدري لمَ سعدت بكل ما أسمع من أخبار ماري فصعدت إلى أعلى ومرة أخرى وقفت أمام الشباك لكنني لم أرها، ظلت ساعة وأنا أفكر في ماري وأتمنى أن أراها وأكلمها فتحكي لي وأحكي لها عن حياتي التي عشتها مع أخرى لم أتألف يوما معها ..

• • •

رأيتُه ملقى جوار المنضدة بجوار الدش، رفعته أمام عيني، أجابتنني خالتي رزقين بأن ضحى تعلقت به عندما كانوا في السوق واشترته لها، وضعته أمام عيني فرأيت باب بيت علي الجمال أمام عيني مباشرة، دارت رأسي به فرأيت حربي المزين في جلسته أمامه زبون يخلق له وشفته لا تكفان عن الحكيم، الأولاد يلعبون أمام فم الشق، فاجأتني ضحى بوقوفها على الكرسي وتشت المكبر من يدي ونطت جارية، لحقتها طالبا منها تلك النظارة البلاستيك التي تقصر المسافات وتقرب البعيد وقايضتها بكيس فيشار كبير، بعصبتها المعتادة فتقت الكيس وطفقت تلتهم ما فيه، صعدت الغرفة وأمام الشباك

وقفت واضعا النظارة أمام عيني فرأيت الشارع العمومي قريبا جدا والمارة هنا وهناك وعبد البصير يحرك عربة البطاطا، أراه يحرك شفتيه وهو ينادي عليها فأتمتم بما يقول : البطاطا عسل أبيض ..

أظل أدور بالمنظار إلى أن استقر فجأة على شباك بيت الأستاذ رمزي وكأنه أمامي مباشرة، يدق قلبي للفكرة التي راودتني، أخبئ المنظار في درج مكتبي وأنشغل طوال النهار حتى إذا أقبل الليل وأوت عفاف إلى السرير ومريم وضحي في الغرفة، وقفت أمام الشباك فرأيت شبحها يجلس، بيد مرتبكة ثبت المنظار على عيني فأبعدته فجأة لوجهها الذي رأيته أمام وجهي، أعدت وضع المنظار، راقبت جلستها وهي تريح رأسها على ذراعها المفرودة على حافة الشباك، ما يزال وجهها يحتفظ باستدارته الجميلة، لمعت ملامحها الطفولية فتذكرتها بالفيونكة الحمراء التي كانت تعقدها أسفل ضفيرتها الطويلة، شعرت بجسدي يسخن للعبها معي داخل كيس القطن الكبير، أعدت التدقيق في وجهها فرأيت عينيها تنضحان بنظرات القلق والحزن، ظللت واقفا قرابة الساعة وهي أمامي وكأنها قررت الجلوس طوال الوقت لتعوضني عن حرمانني منها طوال تلك السنوات الفائتة حتى إذا ما تقلبت عفاف وسمعت صوتها يناديني أنزلت المنظار بسرعة وأخفيت في جيبي، استدرت لها فطلبت ماء، أسرعت إلى الثلاجة وجئت لها بالكوب، شربت وبنظرة ناعسة رمقتني ثم عادت إلى النوم .

أخرجت المنظار، رفعته أمام عيني لكن خواء الشباك جعلني أعرض شفتي غيظا وكأن ماري قررت أن تغيب داخل البيت عندما انصرفت عنها،

تأرجحت عيناى بين النافذة التى لا تزال تحتفظ بخیال مارى وعفاف النائمة على السریر وشخیرها یعلو من حین لآخر ، حنقت لأنها حرمتنى لحظات من رؤیة مارى ، بقیت لدقائق لعلها تأتى لكن فراغ النافذة أصابنى بالإحباط ، تراجعـت وبعد أن أخفیت المنظر المقرب فى المكتب عبثت أصابعى بالمكتب القديمة أعلى المكتبة ، أخرجت مجلد میکی جیب ، خلف غلافه السمیک أخرجت صورتها التى تجرأت قديما واقتنصتها أثناء حصـة اللغة الإنجلیزیه ، تأملت وجهها الطفولی البرئ وشعرها المائل للون البنى ، دقات قلبى تتوالى وأنا أقبل وجهها ثم أعید الصورة إلى المجلد وأغلق علیها الغلاف السمیک ، أركنه أعلى المكتبة وأعود مستلقيا جوار عفاف ساحبـا الملاءة الخفیفـة على جسمها لأستر ساقها المعوجة ..

في التبايع أتاباع الخبر المخيف الذي أعلنته كل قنوات الأخبار عن النيران التي شبت في عربات قطار الصعيد فتتج عنه احتراق وتفحم جثث عشرات المسافرين العائدين إلى أهاليهم لقضاء إجازة العيد، ذرفت عيني الدموع وتخيلت نفسي مع هؤلاء الركاب البائسين وأحدقت بي النيران من كل جانب حتى الذين ألقوا بأنفسهم خارج القطار السريع لم ينج منهم إلا القليل لاصطدامهم بالأرض، أضرب كفا بكف وأمي وخالتي حولي تحوqlان وهما تشاهدان مناظر الجثث المتفحمة التي تقطع القلب وأتعجب من الإهمال الشديد الذي يضرب بأطنابه هيئة عريقة وهامة مثل السكة الحديد التي عرفت أنها منذ أيام الحديو إسماعل وتنهشني تساؤلات عن الاستهانة بهؤلاء الفقراء لدرجة أنهم يموتون محروقين في عربات القطار ولا مغيث ..

أتعجب من توالي الأيام وتناسي الحدث المفجع رويدا رويدا إلى أن تحدث كارثة أخرى ولا أمل في إصلاح شامل لأمن وسائل المواصلات حتى المزلقاتان متهالكة و رأيت مرة عامل المزلقان يضع الحاجز بشكل يدوي فماذا يحدث لو نسي هذا العامل أو تأخر والسيارات تمر والقطار قادم،

تأكدت من عدم جدوى إصلاح السكك الحديدية إلا إذا كان الإصلاح شاملا لمنظومة البلد كلها ومؤسساتها التي لا يستغني عنها الناس في حياتهم اليومية، أشعر بإرهاق لا مثيل له والضييق يغزو صدري وأندesh لم لا ألقى بكل ما أفكر فيه خلف ظهري كعادي لكن عندما ترتبط المسألة بأرواح مسافرين آمنين قد أكون واحدا منهم في يوم من الأيام؛ لا أستطيع أن أتغافل عن ذلك بسهولة لكنه حدث وانطوت الأيام سريعا وتوارى الحدث المؤلم إلا في قلوب من فقدوا عوائلهم لكنني أمسك قلمي وأفرد الصفحة البيضاء، يطفّر عنوان القصة التي سأسردها مباشرة فكتبت (ليل و دخان).

بعد انتهائي من كتابتها، أعدت قراءتها وتخيلت نفسي مرافق لبطلها العامل في معمار الضواحي الجديدة وعائد إلى زوجته وأبنائه ليمضي العيد معهم، يقطع الوقت الطويل للسفر مع رفاق الرحلة ثم يغمض عينيه ممنا نفسه بقرب العودة لكن أنفه تلتقط سحب الدخان ويستفيق على ألسنة النيران التي علا حسيسها من العربة المواجهة له والجميع يحاول النجاة وسنحت له الفرصة قبل أن تمتد النيران لمكانه لكنه تقدّم نحو عربة النيران مقررًا إنقاذ من يمكن إنقاذه من بين النيران والصراخات فقبضت أصابعه على ياقة طفل شوت النيران ذراعه فسحبه والصبي يصرخ من فرط الألم ومن بين الجموع الزائطة ينجوبه إلى أن توقف القطار لكن لا تزال النيران مشتعلة .

برغم فرحي بكتابة القصة إلا أن عيني اغرورقت بالدموع على هؤلاء الضحايا البائسين فدعوت لهم الله أن يتغمدهم برحمته .

• • •

أراهما تقفان أمام غرفة الحسابات الكبيرة، لم أصدّق نفسي حين استدارت فانتترتُ من أمام الأرشيف متجهاً إليهما، ألقيت عليها تحية الصباح فأشرق وجهها بابتسامة عذبة وهي تمد يدها وتسلم عليّ ثم تقدمني لزميلتها على أنني جارها القديم، عرفت أنها أتت مع زميلتها لتسأل عن التعيين، دهشت أنها ستشتغل بالتدريس بعد تعطيل دام سنوات منذ تخرجها، ضحكت وهي تخبرني أنها تريد العمل بدل وقت الفراغ الذي تعيش فيه، برغم أنها جاوزت الثلاثين مثلي إلا أنها ما زال قوامها يحتفظ برشاقتها فلم تمتلئ مثل الأخريات، استأذنت زميلتها لتوقيع ورقة فطلبت من ماري أن تستريح في الأرشيف لحين عودة صاحبتهما، رقص قلبي لموافقتها على دعوتي فأفسحتُ لها الطريق ثم أتيت بكرسي آخر وجلست في الطرقة أمام الباب، تمنعت للحاجة الساقعة التي طلبتها لكنني أصريت قائلاً :

- من فضلة خيركم يا أستاذة ماري ..

سألته عن أبيها الأستاذ رمزي الذي ما زلت أذكر له أمام الجميع مساعدته لي قديماً في استلام الوظيفة فأجابتنني أنه بخير لكنه سافر إلى أمريكا عند فرحان وأنه يجري بعض الفحوص الطبية على قلبه أما وحيد فإنه ما زال في إيطاليا، أطلت نظرة الحزن من عينيها حين سألتها عن زوجها الغائب فأخبرتني أنه اختار أن يستقر في ميلانو حتى لا يفقد عمله بأحد المطاعم أما هي فقد ملت الحياة بمفردها حتى وحيد برغم أنه يعيش في نفس الشارع إلا أنها لم تكن تراه إلا في الأعياد من ضغط الشغل فقررت العودة ..

طوال الوقت أستمع إليها وأنا ألاحظ نبرة اليأس في كلامها ومن حين لآخر تمسح رأسها التي لاحظت خيوط من شعيرات بيضاء به، لم تشرب

إلا القليل من زجاجة الكوكاكولا حين قدمت زميلتها فوقفت على الفور مستأذنة، انصرفت وأنا ألاحظ ظهرها المبتعد حتى اختفت عند انحناء السلم..

جلست والفرحة تغمرني فيها هي ماري البقية الباقية من فرحة الطفولة التي أستأنس بصحبتها في الليل أجلس معها بالنهار وتحدثني وأحادثها، طوال طريق العودة وأنا أمني نفسي بمقابلات عديدة مع ماري والتي حتما ستتردد كثيرا على الإدارة التعليمية بعد أن اشتغلت بالتدريس وقد عرفت أثناء كلامي معها أنها ستعمل في إحدى مدارس قرية كوم المنصورة البعيدة عن أبنوب .

في سرعة دخلت البيت بعد أن رأيت الدكان مغلقا، ناديت على مريم فأجابني صوت خالتي رزقين بأن أضعدها، أمام باب غرفتي وجدت أمي تجلس على حافة السرير وعفاف نائمة على ظهرها أما خالتي فإنها وقفت أمام البوتاجاز لتجهز الغذاء ...

يستقبلني وجه أمي الباسم وهي تخبرني أن عفاف حامل، وجهت أول الأمر للخبر المفاجئ ولاحظت عفاف عبوسي فأمالته وجهها عني لكنني جلست جوارها، ربتُ على كتفها مؤكدا أن سبب قلقي هو الخوف على صحتها، في عدم اقتناع هزت رأسها، أمام غرفة مريم وضحي أقف، تنظ وضحي السمينة فتتعلق برقبتني، مريم تحضني صوتها يعلو :

- ماما فيها ولد، أخونا في السكة ..

تجريان ناحية أمهما، ألحق بهما فأراهما تحيطان عفاف وضحي اللعوبة تمسح بكفها على بطن عفاف الضامر أما مريم تبعد كف أختها وتضع أذنها

على بطن أمها، أبتسم لعفاف التي استأنست ببنتيها وكالعادة تركتها لرعاية أمي وخالتي اللتين تأملان أن يعوضني الله تعالى بالولد ..

• • •

إنه الأربعاء الأول من يناير، أقلب في الأهرام فلم أجد الكتاب، سألت سعد فأخبرني أن ملحق كتاب في جريدة لم يصدر هذا الشهر، عدتُ إلى البيت وأنا حزين على انقطاع الكتاب الذي كونت منه موسوعة كتب لأدباء من المحيط إلى الخليج، في دقة تفحصت آخر كتاب صدر في ديسمبر الماضي، كان مختارات من شعر أحمد عبد المعطي حجازي، قرأت كل كلمة فيه ولم أعثر على شيء يدل على أنه الكتاب الأخير، سقطتُ في آبار من الحيرة وحاولت أن أفنع نفسي أنه ربما لم يطبع الكتاب في مطلع هذا الشهر وسيستأنف إصداره في فبراير القادم لكن خاب ظني فبعد طول انتظار جاء الأربعاء الأول من فبراير ليؤكد لي عدم صدور الكتاب فرددت أمري إلى الله وأسفت أشد الأسف على توقف هذا المشروع الضخم وقررت أن أسأل أحدا من مريدي قصر الثقافة عن ذلك لكن إخباري بعد الكشف على عفاف بأنها حامل في توأم وأن حالتها سيئة نحى أي تفكير جانبا إلا في رعايتها فقد ذبلت مرة واحدة وأنا أفكر في المولودين القادمين وحمل المصاريف، شكوت أمام أمي وخالتي التي لم تحرمني من حكمتهما فرددت امامي :

- كل مولود ينزل برزقه ..

أمنت على مثلها وأنا على يقين أن الله سيرزقني برزق هذين المولودين، مضى شهر يطرد أخاه حتى كان موعدنا في المستشفى، ركعت على ركبتَي،

رفعت كفي إلى السماء أن ينجيها الله وخالتي رزقين وأمي تذر فان الدموع عليها حتى خرج الدكتور من غرفة العمليات ليخبرنا أنها بخير والولد والبنت رغم ضعفهما إلا أنهما في حالة جيدة، ضحى ومريم تضحكان وقسمت ضحى المولودين فقررت أن تتعهد بالولد وتترك البنت لمريم، دخلنا جميعا على عفاف النائمة في شحوب الموتى فسقط قلبي بين ضلوعي لشفتيها المتيستين وتمنيت أن نكتفي بمريم وضحى على المغامرة القاسية التي مرت بها لكن نصائح أمي وخالتي مع قلة عقلها هي التي جعلتها تتخلص من الوسيلة دون علمي حتى تأتيني بالولد الذي تتمناه أمي وأما ..

أصبح البيت خلية نحل من تردد سيدات الجيران عليه وفرحتهم بالتوأم بل ومشاركة أمي وخالتي في رعاية عفاف وفي عصر اليوم الثالث من الولادة، اجتمعت ضحى ومريم بي لاقتراح اسمين فاقررت مريم أن نسمي البنت رحمة فوافقتها وعندما عرضت أن أسمى الولد ضيف على اسم جده فوجئت بثورة ضحى التي اعتدت على حقها في تسمية أخيها بل وانحازت لها مريم التي لم تعجب بالاسم ووصفته بأنه قديم وعند عرض الأمر على أمي وخالتي انضمنا إلى معسكر البنين فأصبحت وحيدا في معركة غير متكافئة وتركت ضحى تسمي أخاها مروان ..

أيام واستعادت عفاف عافيتها واستعد البيت لمراسم أسبوع الضيفين الصغيرين فوضعتهم أمي على الغربال وحولها الحمص والحلوى والفول السوداني وأشعلت خالتي الشموع ليلة كاملة حتى إذا ما جاء عصر اليوم التالي بدأ الاحتفال ودق الهاون وعفاف برغم ظروفها إلا أنها أصرت أن

تخطي على الغربال سبع مرات والجميع يضحك ويبارك وأمي ترش الملح في كل ركن بالبيت وامتد إبعاد عين الحسود إلى أركان الحارة حتى هدأت الليلة ونام الجميع فصعدتُ مجهداً لأستلقي جوار صغيري النائمين في وداعة وعفاف جوارهما باسمه فباركت لها ماسحاً على شعرها وكالعادة دعت لي بطول العمر وأن يكبر أولادنا جميعاً وأزوجهم وأفرح بأولاد اولادهم، تركتها وعدت لصديقي الحميم، سريري الجريد فاستلقيت عليه وأنا أحمد الله على كل نعمه ..

الأيام التالية كانت حافلة باحتفاء مريم وضحي برحمة ومروان بل واللعب معها وكلامهما وتفسير أي صوت يصدر منهما على أنه شيء مفهوم وتبارت البتتان على مساعدة أمهما في غسيل اللف وسعدت أمي بنشاطهما الزائد في تنظيف الغرفة وتغيير الملاءات ومعاونة أمهما في رعاية رحمة ومروان .

شهر يمر ويزداد نحول مروان، أبادر بالكشف عليه فيكتب لي الدكتور على أدوية لكن الصغير يعاف حتى اللبن أما رحمة فبخير، ترضع ثم تنام في استكانة ألاحظ أن مروان خفيف الوزن لا يكاد ينجو من وعكة إلا ويقع في أخرى، صنعت جدته رزقين عروسة من ورق وأتت بإبرة وأخذت تحرم رأس العروسة وهي تطلق أسماء الجارات الواحدة تلو الأخرى وتصلي على النبي وأخيرا أحرقت العروسة ودارت بها حول رأس مروان وهي تردد :

- من شر حاسد إذا حسد، عين الحسود فيها عود ..

مروان المستكين تزيغ نظراته وتسوء صحته ساعة بعد أخرى حتى نزلت أمي الليلة التالية لتخبرني أن الولد لا يتحرك فتركت الدكان مفتوحا وصعدت في سرعة لأجد عفاف منكبة عليه تهزه والدموع تبلل خديها ومريم وضحي منزويتان في جانب الغرفة تبكيان وتضرب خالتي صدرها من فرط الالتئاع، لففت الولد وذهبت به إلى المستشفى تتبعني أمي وبمجرد أن كشف الدكتور عن وجهه وألصق الساعة على صدره أخبرني بأن الله يعوّض عليّ فيه صرخت أمي لكنني هدأتها وقلبي يضطرب، لففت ابني وعدت به إلى

البيت لأجد خالتي تحمل رحمة بين يديها وعفاف وضحي ومريم ينتظرن جميعا أمام الدكان وبمجرد أن رأت خالتي وجه أمي ارتفعت صرختها تبعتها صرخة عفاف ثم ضحي التي ارتمت على الأرض باكية أما مريم فقد انزوت في ركن بالبيت ومن حين لآخر أسمع بكاءها الممطوط، تجمع الجيران ليستعلموا عن الخبر والجميع يصبرونني، وعدني عم سيد الجزار بأن يأتي بسيارة في الصباح لدفن الطفل، وضعت اللفة على سرير أمي، بقيت جوارها طوال الليل ومن حين لآخر أسمع بكاء خالتي وأمي التي لم تكف عن ندب حظي أما عفاف فقد التزمت صمتها المبلل بدموع الفقد ومن حين لآخر أسمع شهقات الالتئاع، أحضرت أمي رحمة إليها التي شعرت هي الأخرى بموت أخيها فكانت تموء من حين لآخر ..

يأتي الصباح فتشجع خالتي وتغسل المولود قبل استيقاظ مريم وضحي حتى إذا ما تسحب النور جاء سيد الجزار بعربة ربع نقل وبعد جهد أخذت اللفة من حضن عفاف الباكية وفي سرعة ركبت جوار السائق وركب علي الجمال في الخلف، تبتعد العربة في طريقها إلى مدافن عرب القداديح حتى لاحت من بعيد المصاطب المتناثرة وأسوار الأحواش فانحرفت السيارة يمينا ووقفت أمام مدفننا الذي نسيت أول الأمر مكانه، أعطيت مفتاح الباب الحديد لعلي الجمال فبادر بفتح القفل وأزاح الباب، نزل الجزار وأخذ اللفة الصغيرة مني، نزلت خلفهم حتى وقفنا جميعا في جوف المنامة الصغيرة، في سرعة أنهى عم علي وضع طفلي على الأرض وساوى الرمال

حول جنبه، أخرجني عم سيد وهو يلف ذراعه على كتفي مواسيا وبمجرد أن أغلق القفل فاضت دموعي التي ظلت حبيسة طوال الساعات الماضية، سرت وسطهم في طريق العودة وأنا أشعر بأن قطعة مني سكنت القبر، تلك المنامة التي بنيتها بنفسني، أول من سبقنا ليسكن فيها كان صغيري الذي لم يتعد عمره الشهرين ..

في البيت، قليل من سيدات الشق جئن بعد أن عرفن بموت مروان فالتفنن حول عفاف و أمي وخالتي التي تردد عديدا ورثته من جداتها :

والله البيوت تعوز ولد فيها

إن مالت الحيطان بينها

والله البيوت تعوز ولد معها

إن مالت الحيطان يرجعها

الخالة وديدة زوجة الجمال تردد خلفها وهي تعصر عينيها حزنا على ولديها وجمالها، تميل أم وجيه على عفاف وتواسيها، تدعو الله أن يعوض عليها بولد آخر طويل العمر، أما مريم وضحي فلم تكف الواحدة منهما عن البكاء حتى إذا ما دخلت البيت سألتني عن مروان فحضنتهما مؤكدا لهما أنه في مكان أمين عند ربنا ..

تمر الأيام وجرح قلبي لا يندمل حتى قابلني مصادفة الشيخ فتحي فرويت له ما مررت به من ظروف فواساني مؤكدا أن أفضل شيء هو تسليم الأمر لله عز وجل بل وحمد الله على ما بيدي فكفكفت دموعي وصليت معه العشاء،

لم يتركني أعود إلى الشق وصمّم أن أشرب معه الشاي في بيته، وجدها فرصة لأن أتمشى بعيدا عن البيت وسُحِبَ الحزن التي تراكمت عليه، بترحيب كبير فتح لي الشيخ فتحي باب منظرتة وما إن دلفت إلى الحجرة المستطيلة حتى زاغت عيناى لرؤوف الكتب المكونة على طول الجدران، جلست أمام مكتب الشيخ البسيط ومرة أخرى يحاول أن يواسيني ثم استأذن مغادرا الغرفة الكبيرة فنهضتُ إلى الكتب والمجلات الكثيرة، طفقت أقلب فيها وأنا شديد العجب من ذلك الشيخ المعمم الذي يقتني كتباً في العلوم والطب والتشريح والفضاء ثم تلك المجلات المرصوفة .. أعداد عظيمة من مجلة الفيصل، بعدها كتب الشعر وكتب أخرى في الفقه والسيرة .

شعرت بدخول الشيخ فاستدرت متجها إلى الكرسي أمام المكتب، أمامي يضع صينية الشاي وطبق البلح والفول السوداني، بحماس دعاني إلى احتساء الشاي وأكل السوداني والبلح، أثناء ذلك أفضيت له عن إعجابي المكتبة فأجاب بأنها حصيلة أكثر من أربعين سنة منذ أن كان طالبا في معهد فؤاد الأول الأزهرى بأسىوط ثم أشار إلى مجلة الفيصل ووصفها بأنها عشرة عُمر وأنه يرأسها منذ زمن بعيد، أكد لي أن القراءة تجري في عروقه مجرى الدم فأمنت على رأيه واستدليت بعشرات المئات من الكتب التي تضمها رفوف مكتبته، مرة أخرى يقول لي أن قيمة الإنسان في العلم وإلا لأصبحنا مجرد كائنات تأكل وتشرب وتتكاثر حتى لا ينقطع نسلها، أذهلني الرجل بنبراته الهادئة ورقته في الكلام وحين كنت أتأمل عينيه الرائقتين أجدها فيها رضا وصفاء قل أن ألحظهما في إنسانٍ آخر ..

استأذنت منصرفاً فصحبني إلى أول الشارع، ودّعني وهو يتمنى لي كل خير ويدعولي بالبركة وطيب الحياة ..

طوال الطريق لم أصدّق أنّي زرت رجلاً يعيش في بلدتنا البسيطة ويمتلك مكتبة مثل مكتبته، غيّرت مقابلة الشيخ فتحي الكثير من تفكيري فعدتُ إلى البيت وأنا على يقين بأنّي سأفتح صفحة جديدة في حياتي ..

• • •

الأيام بديمومتها مرت، شيئاً فشيئاً استعادت عفاف صحتها أما رحمة الصغيرة فقد تكفلت مريم وضحى برعايتها وحملها طوال الوقت فتناوبتا إرضاعها باللبن الصناعي وتغيير ملابسها وهزّزتها لتنام ووصل الأمر إلى مشاركة جدتيها رزقين وحسنة في حموم رحمة التي لا تكف عن تحريك ذراعيها الصغيرتين والمواء في خفوت أما أنا فحمدتُ الله على بناتي وعلى صحة عفاف وقررت الاكتفاء بهن وبخاصة أن الدكتور حذرني بجدية من تكرار الحمل على صحة عفاف ..

• • •

عرفت بعودة الأستاذ رمزي من أمريكا فذهبت لأسلم عليه، استقبلتني ماري وواستني في وفاة ابني ثم باركت لي المولودة، شعرت من كلامها بخناجر الألم الذي يعتصر قلبها وهي تخبرني أنها تتمنى ظفر مولود، سألت عن البنات وأوصتني بأن أعلمهن فابتسمت لها مؤكداً أنّي لن أقصر في تعليم بناتي وكل شيء بإرادة الله، وددتُ أن تحادثني، تفضفض لي عن كل مخزون الحزن في عينيها فهممت أن أسألهما عن زوجها الغائب لكن سرعان ما

حضرت أمها مسلمة عليّ فاستأذنت منصرفاً فحملتني سلاماً حاراً إلى أمي وخالتي ..

انقضت الأيام التاليات وأنا أرى اللآلئ الثلاثة اللاتي كرّمني بهن الله تعالى ولا أفعل شيئاً إلا الذهاب إلى أرشيف الإدارة والجلوس في الدكان ثم النوم حتى التلفزيون فقد عاديته بعد أن زاحمت إعلانات السلع كل دقيقة به وبخاصة وأسلوب الإغراء من عرض شراء منتج وخذ الثالث هدية، سئمت هذا الأسلوب فانقطعت لزمن عن العالم وما به من أخبار حتى عودتي ذات ليلة لألقي تحية المساء على عم علي الذي يضرب كفا بكف وهو ينفخ دخان الشيشة في عصبية فسألته عن سبب غضبه وأفاجأ به بخبرني أن أمريكا قررت ضرب العراق، ضحكت معتبرة أن ذلك لا جديد فيه منذ حرب الكويت لكنه يؤكد أن كل القنوات تصرّح بقرب اقتحام العراق بحثاً عن النووي، ساورني القلق مما أسمع فهرولت إلى البيت، خطفت الريموت من يد ضحى التي اعترضت وزمجرت وهي تصعد لأعلى، أقلب في القنوات التي لم تكف عن إذاعة الأخبار وأن مفتشي الأمم المتحدة غادروا العراق وبوش يمهل صدام حسين وأولاده وقتاً وإلا فالغزو لا تراجع فيه ..

أيام بعد انتصاف مارس واشتعلت الحرب بين قوات التحالف التي حشدتها أمريكا وقوات صدام التي استخدمت المضادات الأرضية في صد هجوم طائرات التحالف، ازداد اشتعال الهجوم ومعه اشتعل غيظي فلأول مرة في حياتي أرى دولة عربية تهاجم عنوة من دول أجنبية وأراضيها على وشك السقوط في أيدي الغزاة ..

اختطفنت ضحى الريموت كنترول من يدي وأتت بقناة تعرض فيلما
لكارتون توم وجيري وهما يتعاكسان ثم جاء الكلب الضخم يلف على رقبته
طوق مرسوم عليه خطوط حمراء ونجوم زرقاء وهاجم الاثنين حتى ينعم
بالراحة وربطهما أمام بيته، توم القط يحضر له الطعام والفأجيري يقوم
بالكنس أمام البيت، هززت رأسي وابتسمتُ لخالتي رزقين الجالسة على عتبة
الباب تهز رحمة النائمة على فخذهما وتواصل أغنيتهما :

يا عرب ، يا عرب

دوي طبلك ما ضرب

والمدينة دمدمت

والغز قامت ع العرب

أتعجب من أغنية خالتي التي أعلم أنها لا تقصد إبداء رأيها فيما يحدث
للبلاد العربية من قرب افتراس الذئب الأمريكي لها ولكن حدث ما تغنيه
خالتي وقامت الغز على العرب، كغيري تابعت الأخبار بكل دقة وفي أي
مكان .. الإدارة، القهوة ، البيت حتى جاء ٩ إبريل الأسود وسقطت بغداد
بين فكي العلوج من القوات الغازية كما كان يصفهم دائما محمد سعيد
الصحاف في تصريحاته أيام الحرب ورأيت تمثال صدام وهو يسقط أما
ما مزّق قلبي فمتابعة أعمال السلب والنهب التي اجتاحت المدن العراقية
وانشرخ صدري وأنا أستمع لأخبار نهب متحف بغداد وتخيلت لو أن
هذا حدث في مصر فهل سيطعن الشعب المصري بلده في قلبها كما يفعل
العراقيون الآن ؟

اختفى صدام وعائلته والأخبار تزداع ببدء حرب العصابات في شوارع المدن، لاحت خسائر قوات التحالف و تبعثها مظاهرات في دول كثيرة تندد باحتلال العراق وبخاصة في أمريكا نفسها التي بدأت تفقد العشرات من أبنائها في شوارع المدن العراقية وبرغم حزني على سقوط بلد عربي بين أنياب الغزو الأجنبي إلا أنه ارتاحت نفسي لعدم قبول الناس في كل مكان لهذا الغزو ولو تركوا لهم الأمر لسافر الآلاف إلى العراق دفاعا عنه .

-٣٤-

سئمت متابعة الأخبار المليئة بالكاذيب والزيف فعافت نفسي مشاهدة التلفزيون حتى البرامج الإذاعية التي أعشقها كتمتها بإغلاق الراديو الصغير المكون جوار الكتب، خبر القبض على صدام الذي تناولته كل وسائل الإعلام العالمية بأهمية كبرى لم أحفل به، عندما رأيت صورته بشعره المنكوش ولحيته غير المشذبة لم أعلق لكنني حزنت على حال واحد من الذين ظنوا يوماً أنهم فوق البشر وأضاع بلداً عربياً قوياً في حروبه مع إيران وتحالف الغرب بعد غزو الكويت ولو أنه جعل كل همهم تحسين معيشة شعبه لكان أفضل، أستفيق من ذهاب تفكيري على صوت خالتي رزقين :

- سبحانه القادر على كل شيء، يعز من يشاء ويذل من يشاء ..

• • •

أذهب إلى أرشيف الإدارة، أمكث فيه طوال الوقت إلى موعد الانصراف فأوقع وأعود إلى البيت فلا أحداث أحداً حتى عفاف ومريم وضحى أما رحمة الصغيرة فلم أعد أحملها، أقف بقية النهار في الدكان، أراجع فاتورة

البضاعة، أتعجب من وصول سعر البسكوت إلى جنيه للبأكو الواحد، بأكو بسكوت يساوي عشرين رغيفا تظل أسرة بأكملها تأكل منه يوما كاملا، أرض العلب وأغلق الدكان، أكتفي بإلقاء تحية المساء على أمي وخالتي رزقين، أضعد إلى أعلى فأجلس طوال الوقت صامتا وكأن سحابة من ركود جثمت على عقلي فتوقف عن التفكير حتى في نفسي، أرى المنظار معلقا على حافة الشباك وشبح ماري الواقف بعيدا يحثني على رفع المنظار لكن يدي رفضت أن تلامسه، أتمدّد جوار عفاف إلى أن يأتيني ملك النوم فيقبض أرقى وعندما أصحو تتكرر أحداث اليوم كسابقه فتوالدت الأسابيع والشهور وأخذت تفرخ أيامها المكرورة أحسست أنها كالطعام والشراب ودخول الحمام ..

• • •

تاقت نفسي يوما الذهاب إلى قصر الثقافة وعندما جلست في مكتبته الكبيرة أتصفح الأهرام سمعته وهو يرفع صوته ويضرب كفا بكف للخبر المشؤم عن حريق شب في قصر ثقافة بني سويف أثناء العروض المسرحية هناك أسفر عن موت العديد من الممثلين والنقاد والمثقفين حرقا واختناقا، ألقيت بالجرنال جانبا وأنا أتابع تفاصيل الحادث المهيّن الذي يرويه واحد من الشعراء على مسامع زميله وهو في فورة الغضب، وضعت رأسي بين كفي وأتساءل : ما من نهاية لهذا الإهمال الذي طال حتى العروض الفنية على واحد من مسارح الدولة، طنين مخيف يتملك حنايا رأسي فأغادر المكتبة على غير هدى إلى أن قادتنى قدماي نحو قهوة عبد الحي وكأني أبحث عن

عم خلف الذي ضرب المثل الأعلى في التخفف من أعباء الحياة ومشاكلها والهروب منها فرأيته من بعيد يدخن الشيثة، أقترُبُ منه، ألقي السلام فيرد بفتور اعتاد عليه، لحظت لحيته غير المحلوقة وعينيه الزائغتين، سألته عن حزنه فيخبرني أن واحدا من أبناء أخيه مات في حادث ميكروباص منذ أيام، اندهشت وحلفت له أني لا أعلم بالأمر وإلا لذهبت إليه وقدّمت له واجب العزاء لكنه يخبرني أن العزاء كان خارج البلد حيث يعيش أخوه في قرية الفيما التابعة لمركز الفتح، في شبه هذيان يتردد كلامه مصاحبا دخان الشيثة وهو يخبرني أن ابن أخيه كان عاملا في مصنع أسمنت أسيوط لكنهم استغنوا عن خدماته بعد بيع الشركة لشركة أجنبية عملت على تصفية معظم العمال المصريين، وبمكافأة خروجه من المصنع اشترى سيارة ميكروباص ويسافر بها إلى القاهرة، في الطريق الصحراوي انقلبت السيارة والوحيد الذي مات ابن أخيه سائقها ..

اكتملت كل خيوط الحزن القاتم داخلي على حال البلد الذي يسير من سيئ إلى أسوأ فظللت دقائق ساهما ثم شددت على يد عم خلف واستأذنت منه منصرفا، عدتُ إلى البيت مقررا أن أريح عقلي من التفكير وإلا سينفجر فنمت وبعد استيقاظي شعرت أن حالتي أفضل بعد استعدت موهبتي القديمة في القدرة على إلقاء كل هموم الدنيا خلف أذني ..

أجلس إلى المكتب وأمامي إحدى المجموعات القصصية، أشرع في قراءة أول القصص إلى أن وقفت مريم أمامي وقد أصبحت أطول مني قليلا ففتحت درج المكتب وأخرجت لها صور التقديم للشهادة الإعدادية

والتي استلمتهم من الإستوديو وأنا عائد من أرشيف الإدارة ففرحت بهم وبالكارت الهدية وعلقته على جدار غرفتها أما ضحى فقد أصبحت أطول من مريم وجسمها ممتلئ حتى يظنها البعض أنها أكبر من أختها، بقيت رحمة ذات الخمس سنوات فأصبحها معي إلى حضانة مدرسة الناصرية فلا تكف عن الكلام حتى مع نفسها.

أحيانا أستغرب من شخصيات بناتي المختلفة فمريم منظمة جدا ولا تترك سريرها إلا بعد أن ترتب كل شيء فيه وتعلق ملابسها في شاعة الدولاب أما كتبها فتجلدها بالجلاد الأصفر وتظل جديدة لآخر السنة عكسها ضحى التي تكسل حتى عن خدمة نفسها أما رحمة على صغر سنها فلا تكف عن تعليقاتها ووصفها لكل من حولها وما حولها فأتعجب من دقة ملاحظتها لأشياء في البيت لم يلحظها أحد من جدتيها وأمها أو حتى أنا فلم تأخذ أي منهن شيئا من طباع عفاف الهادئة البسيطة التي تنصرف بالفطرة في كل شيء وتقنع بالقليل فلا يهتمها غير لقمة وجلباب ونوم وخدمة بناتها وطاعة أمي وأمها وأنا ..

• • •

صنع خبر غرق العبارة المصرية روعي وبخاصة بعد أن علمت أن واحدا من أبناء خالتي حكيمة كان من العائدين فيها، اصطحبتُ أمي وخالتي رزقين إلى بيت خالتي في كوم الترمس، لم أكن أتخيل أن خالتي بكل هذا العجز، بلا اهتمام قابلني زوجها الفلاح العجوز، سألت عن بقية أبناء خالتي فأجاب باقتضاب بأنهم سافروا للسؤال عن أخيهم، عدت مصطحبا

أمي وخالتي وأرجعت ضيق زوج خالتي لفقدان ابنه، أيام وسمعت أمي تلطم خدها وهي تنعي لي خبر موت خالتي التي لم تتحمل ثكل ابنها، مرة أخرى وقفت في جنازة خالتي، أثناء العزاء عرفت لماذا يقاطعنا زوج خالتي وأبنائه، فهم يشعرون بالعار أني ابن خالتهم، أحسستُ بذلك في ردودهم علي حتى كانت القشة التي قسمت ظهر البعير حين اقترب مني زوج خالتي وهو يطلب مني بكلماته المتلعثمة أن أعود إلى البيت مصطحبا أمي وخالتي رزقين وأكد أن لا داعي للعودة هنا مرة أخرى .

في طريق، أتعجب في حسرة من تكبر زوج خالتي علينا ولم يتعظ من فقدان ابنه وموت زوجته في أسبوع واحد، ترددت في ذاكرتي جملة سمعتها يوما من الشيخ فتحي : السعيد من يعتبر بغيره والسفيه من يعتبر بنفسه .. رسخ في نفسي أن قيمتي في تحقيق ذاتي، في عمل الشيء الذي أحبه، في رعاية أمي وخالتي، في توفير الحياة الكريمة لبناتي والاجتهاد ليعشن بشكل أفضل مما عشته، هذه هي رسالتي التي لن أكف عن تأديتها ما دام في صدري نفسٌ يتردد وبعدها الكل سواء، سندفن جميعا في التراب وتبقى السيرة والأعمال ..

• • •

يوم حصول مريم على مجموع كبير في الإعدادية كان عيدا أعاد لنا ذكريات الشرابات الذي أعدت منه أمي وخالتي جردلا كبيرا ووزعت على كل بيت بالشق وما زاد انبساطي هو تصميم مريم على الالتحاق بالثانوية العامة فأعجبت بطموحها وأنا الذي ظننت أنها ستكتفي بمدرسة التجارة بنات فوافقتها على الفور وانتظرنا موعد التقديم للثانوية ..

• • •

- السنيورة يبكي ..

التفتُ إلى الأفندي الجالس جوارِي في باحة كافاتيريا العربي، يشير بيده إلى التلفزيون الكبير، فعلا رأيت إحدى قنوات الأخبار تعرض تقريراً إخبارياً عن الحرب الإسرائيلية على لبنان ثم يُطل فؤاد السنيورة رئيس وزراء لبنان وهو يغالب دموعه فغلبته وسالت وهو يرجو العالم أن ينقذ لبنان، يتغير المشهد ويظهر حسن نصر الله يهدد ويتوعد إسرائيل بمزيد من هجوم الصواريخ على مواقع الكيان الصهيوني كما يعبر عنه، أفندي آخر يتحدث متصنعا الغضب :

- لولا خطف الجنود الإسرائيليين ما كانت إسرائيل ضربت لبنان

- لكنه خطفهم لأجل تفرج إسرائيل عن أسرى حزب الله ..

- أهو وّرط نفسه وورط الدنيا معه ..

أرقب حوارهما وأنا صامت ثم يأتي صبي الكافاتيريا لي بالشاي فأحتسيه في صمت ولا أزال أستمع لحوارهما أثناء تغير المشاهد ..

- لكنه كان مستعداً لهم، آه .. الدبابة الميركافا الإسرائيلية النار مشتعلة فيها ..

- لكن الجنوب دمرته الحرب، بصراحة أنا أحمله مسؤولية تدمير البلد ..

- يا أخي حرام عليك ..

- وعلى كل أنا معجب به، نازل ضرب فيهم ولا يهمه أي تهديد ..

- ورئيسنا موقفه سلبي ..

في خوف ممزوج بالارتباك التفت أحدهم حول نفسه كأنه يريد أن يتأكد أن أحدا لم يسمع كلمة جليسه الأخيرة فابتسمت مغمغما : الجبن سيد الأخلاق..

تظهر كونداليزا رايس وهي تصرّح بصوت منخفض يعلوه صوت المترجم العربي : إن ما يحدث في لبنان هو آلام مخاض الشرق الأوسط الجديد..

- شرق جديد ؟

- نعم يا سيدي، شرق أوسط خالي من الأسلحة ينفذ سياسة أمريكا وإسرائيل ..

- ماشي لكن من غير حرب على لبنان المسكينة

- آه على الزمن، لو عبد الناصر ربنا أمهله وطوّل عمره كان ربّاهم ..

عندها أنهيت ما تبقى من كوب الشاي؛ نهضتُ مغادرا المطرح وأنا أتعجب من استمرار الجدل بين الرفيقين اللذين يتبادلان مبسم الشيشة والدخان يعبق البقعة التي يجلسان فيها ..

عدتُ إلى البيت، استعدت الحوار الأخير للرجلين وأنا فعلا مندهش من الموقف الرسمي المتخاذل للعديد من الدول العربية بينما شاهدت في التلفزيون المظاهرات الكثيرة في فنزويلا وألمانيا وغيرهما من العواصم غير العربية تندد بهذه الحرب القذرة ..

• • •

يوما قادتني قدامي إلى قصر الثقافة فصعدت إلى المكتبة لأجد لفيفا من الشعراء والكتاب الذين كانوا يجتمعون قديما، جلست صامتا وبدأت الأمسية بقصيدة عامية خفيفة أنهاها الشاعر شرقاوي بطرفة جميلة جعلتني أبتسم لنهايتها غير المتوقعة وأعجب ببرايعته في الإلقاء ثم ألقى آخر قصيدة طويلة فهمت منها أنه يندد بالحرب الإسرائيلية على لبنان ويصف بعض الحكام العرب بأنهم كالجمال الهرمة التي لا تستحق إلا الذبح وإطعام لحومها لكلا بأمريكا وإسرائيل ..

سرد أحدهم قصة المفترض أن تكون قصيرة لكن طولها المفرط جعلني أسرح من القاص ولا أتابع سرده لأحداث القصة مقتنعا أن القصة يفضل قراءتها لا الاستماع لها، شعرت بالملل فهمت أن أستاذنا منهم لولا دخول الأستاذ أيمن المفاجئ فسلم عليه الجميع ورحب به مقدم الندوة فقررت البقاء للاستماع له لكن خاب ظني فقد انتهت الندوة ولم يلق أيمن قصة كما كنت أتوقع وعند انصرافنا من أمام بيت الثقافة سألتني أحد موظفي الإدارة عن بنتي التي امتحنت مع بنته فأخبرته أنها حصلت على مجموع عالٍ وستدخل الثانوية العامة، ضحك ساخرا وقال :

- القوالب نامت والأنصاف قامت، بنت غريب بن ضيف العريان تدخل الثانوية، أحسن لها ولك الدبلوم أو شغلها بالإعدادية في دكان لأجل مساعدك ..

ضحك وفارق المكان وهو يهز رأسه ويواصل حديثه مع آخر يجاريه في الرأي، ظللت ساهما لبعض الوقت إلى أن أفاقنتي يدُ تربت من الخلف على كتفي، التفت ليطلعني وجه الأستاذ أيمن وهو يبتسم لي ويقول:

- سمعته .. ولا يهملك وإن شاء الله بنتك تكون أفضل البنات ..

أظهرت له غيظي وضيقني من كلام شخص يدّعي أنه مثقف لكن الأستاذ أيمن أكد أن البعض لا يتمنى للفقير أن يحسن من نفسه ويرفع مستوى عياله فلا يهمننا منهم، المهم هو اقتناعك بما تفعل وتحقيق ذاتك والعبرة بالخواتيم..

أتمّ أيمن كلمته وقد أزال بعضاً من ضيق نفسي، همّ في الانصراف لكن صابر فتحي أوقفنا مصراً على شرب الشاي في بيته القريب من قصر الثقافة، شعرت بعدم ممانعة أيمن فصحبتهما إلى بيت صابر البسيط ذي الطابق الواحد، جلست وأنا أتابع بعيني اللوحات المرسومة على الجدار، مناظر طبيعية للريف، لوحة فرعونية، مشهد لغروب الشمس ..

- صابر فنان أصيل لكن ظروف الحياة قاسية ..

أفاقتني عبارة أيمن من تأملاتي في اللوحات فالتفت إليه فتابع ..

- لو أن صابر في بلد أخرى غير بلدنا لأصبح فناناً كبيراً ..

هممت بقول شيء لكن صابر دخل بين يديه صينية الشاي، يضعها أمامنا فالتفت إليه معاتباً ..

- لم لا ترسم لوحات أكثر ..

رد عليّ وابتسامته الطفولية تزين وجهه العريض ..

- رسمت لكن واجهات الدكاكين ولوحات نشاط التلاميذ بالأجر، الفنان في بلدنا يموت من الجوع إن اعتمد على فنه فقط ..

- لكنك ممكن تشترك في معارض و..

- اشتركت وكل ما نالني شهادة تقدير أو مكافآت قليلة ..

صمت ثلاثتنا حتى قال أيمن ..

- ارسـم لنفسك، ابدع لتحقق ذاتك حتى ولو كل سنة لوحة، المهم تعبّر عن نفسك هوّم صابر برأسه، ينتهي احتساء الشاي، نهضنا مستأذنين، رفض أيمن أن يرافقنا صابر إلى أول الطريق .. انتظرت من أيمن تعليقاً فلم يضمن به علي حين ثبت عينيه في عيني وهو يؤكد :

- كل إنسان داخله شيء يجب أن يخرج، فليخرجه في أي صورة أو شكل، المهم أن يدع ..

ابتسمت له، صامتا رافقني إلى أن اقتربت من الشق فافترقنا على غير وعد بقاء، صعدت إلى البيت وأنا أعاتب نفسي التي تركت أيمن ينصرف دون تطويل الكلام معه أو أخذ وعد بقاء آخر لكنه ما دام يتردد على بيت الثقافة فسأقابلة هناك، فجأة قفز وجه ذلك اللفظ الذي صدمني بمعايرته لي ..

نعم أنا غريب ضيف العريان ابن بائع الملح وبائعة العسلية والحُمص في الموالد الذي لم يحصل إلا على دبلوم صناعي لكنني أيضا غريب موظف الأرشفة الحكومي الذي يُصرف له راتب كل شهر وله حق في التأمين الصحي وبطاقة تموين، غريب الذي أنشأ دكانا وبني غرفة واقتنع ببنت خالته التي كانت تعيش في عشة جوار الشيخ رمضان وتزوجها إكراما لخالته الطيبة، غريب الذي قرأ الكتب الكثيرة ويكافح هو وأمه وخالته من أجل حياة أفضل له ولزوجته ولبناته حتى أصبحت إحداهن على عتبة الثانوية العامة وانتظر منها دخول الجامعة ..

تمددتُ على السرير فجاءتني مريم بكوب الشاي، شكرتها وحملته إلى المكتب، جلست خلفه ساكتاً، أرحت رأسي إلى الوراء فطفر الوجهان؛ الوجه الحاقد ووجه أيمن المشجع، انمحي ذلك الوجه البغيض وبقي وجه أيمن الهادئ بكلماته الرنانة ولم يلبث أن توارى وبقيت بلا وجوه لبرهة لكن فوران صدري جعلني أفتح عيني على ذلك الآخر الذي عاد يردّد داخلي في قوة أن لي فرصة في عمل شيء لا أعرفه، أظل طوال الوقت محتاراً من هذا الكائن المعاتب لي على تقصيري في حق نفسي التي غرقت في بحور الحياة العادية فما أبيت فيه أصبح فيه و لا شيء سوى الخروج من الكينيف بعد أن أتخلص من بقايا اليوم الفائت ..

أفقت على صوت ضحى تخبرني أن الشاي برد وأنها ستحضر لي غيره لكنني استوقفتها مقررًا أن أنام، أشعر بمخالب التفكير تنهشني من كل جانب، أحياناً أقف في صف صابر المكافح من أجل لقمة العيش وأخرى أقنع بكلام الأستاذ أيمن بأن في داخلي شيء عظيم يتحين الفرصة ليخرج وتارة أخرى يطفر وجه الشيخ فتحي بوجوب التزام الإنسان بالعلم، سقطت في دوامت الآراء لكن أحداً منها لم تستطع أن تجذبني لأسقط في هوتها لأنني مقتنع بأنني أستطيع أن أعيش بشكل مختلف عن الآخرين وأغير من حياتي للأفضل دائماً، أتقلب جوار عفاف وأنا أحسدها على حياتها البسيطة الخالية من أي هموم فلا تعاني من ذلك الوحش الذي يدفعني دفعا إلى شيء مجهول لا أعرف ما هو ولا كيف أحققه ..

عفوا ..

انتهت الأوراق ذات الوجه المسطر والآخر غير المسطر وقد جاهدت كي أحافظ على خطي المنتظم بها، الآن أمامي صفحات مسطرة وبدون أن ينتهي حبر القلم الذي أكتب به رغبت أن أغيره أيضا بآخر جديد تماما لم يُستعمل من قبل وجدته في درج مكتب مريم والآن سأكتب بقلم مريم المملوء بالحبر والذي سيكفي كل الأوراق المتبقية ويزيد ..

• • •

أول يوم في الدراسة اصطحبتُ مريم إلى مدرسة البنات الثانوية، أسير جوارها وأنا أشعر بالفخر حتى ودعتني عند الباب ودخلت وهي تشير إلى زميلاتها بأن الواقف هناك هو أبوها، انبسط قلبي لمريم التي تفتخر بي أمام صاحباتها فزاد تصميمي أن أبذل الغالي والرخيص في سبيل تعليمها وأختيها ضحى ورحمة، مرت الأيام ولا عمل لي غير توفير كل ما تحتاجه البنات من لزوم تعليمهن حتى أوقات الترفيه لم أحرمهن من الاشتراك في رحلة قامت بها مدرسة أي منهن، كنت أقرأ مع مريم في كتاب (القواعد

الأساسية في النحو والصرف للمرحلة الثانوية) الذي استلمته مع الكتب وحين يستعصي عليّ فهم قاعدة بذاتها أستعينُ بواحد من موجهي أو معلمي اللغة العربية المترددين على الإدارة فيشرحها لي في بساطة حتى أن الأستاذ محي كان دائماً حين يشرح لي قاعدة يستشهد بآية من القرآن الكريم لإيضاحها وهو يردد دائماً أن قواعد اللغة كلها مأخوذة من القرآن الكريم، يوماً قصده في شرح علامات الترقيم فأوضحها لي في بساطة ووظيفة علامة الاستفهام والتعجب والقوسين والنقطة والنقطتين والفصلة وأختها التي أسفلها نقطة حتى قلت أخطائي بدرجة ملحوظة عندما أكتب أي شيء ولكن الهمزات لا تزال تنتصر عليّ فأكتبها في موضع عدم كتابتها ولا أكتبها في موضع كتابتها ومحاولاتي للسيطرة على الهمزات الشقية مستمرة ...

• • •

بعد صيام وقفة عرفات في نهاية ديسمبر، دعوت الله عز وجل بعد الإفطار أن يجعله عيداً سعيداً ويكرمني في زوجتي الطيبة وبناتي ويهب الصحة وطول العمر لأمي وخالتي ويصلح حال البلد ويبعد عنها الشر، بعد العشاء تعالت تكبيرات العيد وحين استيقظت ذهبت أنا ورحمة التي استيقظت مبكراً إلى الساحة الشعبية لأداء صلاة العيد، حين عودتي من الساحة أسلم على عصام عبده الذي رأيته أخيراً منذ أن سكن بأسيوط؛ هنأته بالعيد لكنه ردّ في اقتضاب ولمحت مسحة امتعاض على قسّات وجهه الجهمة فسألته عن سبب حزنه فرد بصوت مخنوق :

- الفجر أعدموا صدام حسين ..

ارتعدت وأنا أردد ..

- في يوم العيد؟!؟

هزّ عصام رأسه وفي كلمات مقتضبة حملني السلام لأمي وخالتي وانصرف، لحظت رحمة المرافقة لي صمتي وهي طوال الوقت تتكلم عن بصوتها الرفيع حتى دخلت البيت ولا أدري متى اشتريت لها البالونة الكبيرة التي تلعب بها أو أي دكان وقفت أمامه واشتريت العروسة الصغيرة التي تحملها بين يديها، لم أفتح الدكان وتركت الدنيا وما فيها وصعدتُ لأنام وأن مخنوق من تلك الأخبار، أنا مقتنع أن صدام كان جباراً، مجرماً لكن أيعدم في يوم عيد ويُحرم فرحته .

نزلت إلى الأسفل، أجد عفاف تنهي لبس مريم وضحي ملابس العيد الجديدة استعداداً للخروج مع جدتهن رزقين التي قررت مرافقتهن إلى أسبوط، بسلبية لم أشعر بها لم أرافقهن وانقضى النهار وأنا جالس مع أُمي في البيت أقلب في قنوات الأخبار لأتابع بعض لقطات شق صدام وردود الأفعال العربية والعالمية لتنفيذ الحكم في يوم العيد حتى عادت البنات مع أمهن وجدتهن وهن مسرورات للفسحة الكبيرة ورحمة تحكي في صوت متقطع ما رآته أما مريم وضحي فصعدتا إلى غرفتهما للنوم، بادرت أُمي خالتي رزقين :

- شنقوا صدام ..

- عرفت، كل الناس تتكلم عن قتله في العيد .. الله يرحمه ..

تركتهم وصعدت، نمت ولم أشعر إلا بالصبح يطل علينا، هرولت إلى سعد بائع الجرائد لكنه لم يكن قد أحضر الجرائد من أسبوط، انتظرتُه أمام

كنيسة مارفام حتى وقف عربة ربع نقل فجأة وألقى سعد وابنه الصغير الجرائد على الأرض فالتف الناس حوله ليفض الأربطة، بعد جهد استطعت الحصول على واحدة من الصحف، طفقت أقلبُ فيها وأستعرض أخبار شتى صدام بالصور الكثيرة، طويت الجريدة وما إن استدرت عائداً إلى البيت حتى قابلني الشيخ فتحي بوجهه البشوش مهتماً بالعيد السعيد ودون سابق إنذار عبرت عن أسفي لشئق واحد من الحكام وفي يوم عيد، صمت لحين هدأت حماستي فربت على كتفي قائلاً بلغته الفصيحة الهادئة :

- إرادة ربنا، كان ظالماً وطاغية جلب الخراب على شعبه وبلده وقديماً قالوا : إن الطغاة كانوا دائماً سبب الغزاة؛ بسببه نهشت أمريكا لحم العرب وخيراتهم ..

- لكن يوم العيد يا شيخ ؟

- يكفيك ربنا شر الانتقام ومن أعمالكم ما سلط عليكم، قُتل بأيدي من ظلمهم وحرّمهم فرحة أعياد طول زمن حكمه ..

استأذن الشيخ فتحي، ظللت مكاني أراقب ظهره المتبعد فعدت إلى الشق، وجدت الدكان مفتوحاً وأمي داخله، وقفت مكانها بقية النهار، رويداً ينحسر الاهتمام بالأمر وكما اعتدتُ توارى تفكيري خلف الأيام التي مرت في رتابتها المعهودة .

• • •

ضحى .. التحقت بعد الإعدادية بمدرسة التمريض برغم أن مجموعها يجعلها تدخل الثانوية العامة لكنها أصرت على التمريض ووافقتها على رغبتها التي ألحت عليها بشكل كبير وأنا أتعجب من إصرارها لكن ما باليد حيلة ..

طحنت متطلبات حياة عائلتي أي تفكير إلا في رعايتهم وتوفير الحياة الكريمة لهم وأنا أتوسل إلى الله أن يبعد عنا الأمراض ومصائب الزمن ..

• • •

عادت ضحى من المدرسة وفي يدها كُتيب ألقته على الكنبه، تناولته متصفحاً فلفت نظري عنوانه عن انفلونزا الطيور والتحذير من الإصابة بهذا المرض الذي أصبح يصيب الإنسان لا الطيور فقط، قرأت الكتيب الصغير كله فنبهني إلى الحملات التي تبناها التلفزيون من خطورة الإصابة بالمرض وأعراضه فاجتمعت ببناي وأمي وخالتي وعفاف وقضينا الليلة نتحدث عن المرض ونبهت على البنات تجنب أي زميلة لها تعطس أو تكح والابتعاد عن الطيور ودكاكين الطيور، برغم جديتي في الكلام إلا أنني أفاجأ بالعفريّة رحمة تعلق :

- سمعت فرخة عند أم وجيه تكح وأختها تعطس، لازم أم وجيه تذبح فراخها..

ضحكننا جميعاً من كلمات رحمة ولكنها نبهتني إلى أمر خطير عزمت أن أعرضه على أم وجيه، وما إن خرجت من البيت حتى رأيت جارتنا الطيبة تذبح كل طيورها دفعة واحدة، وقفت قبالتها ففردت قامتها القصيرة والتقطت نفسها، ابتسمت في رقة وهي تمسح عرقها :

- مقنع راجع من السفر ولازم يتغذى زين ..

ربت على كتف أم وجيه وفهمت أن المرأة بفطرتها خافت أن يبلغ أحد عن فراخها المنتشرة في أرجاء الشق فيحرر لها محضر، هذا ما عرفته من أمي بعد مذبحه الفراخ بأيام وبالفعل تم إغلاق محلات بيع الفراخ واختفت أقفاص البيع من الشوارع ولم تعد سيارات المزارع تأتي بأية طيور أما الإشاعات والحكايات التي انتشرت في كل مكان عن إصابات بالمرض فكانت السمة التي تُميز أهل بلدنا في كل زمان ..

• • •

اجتهدت بنتاي في الدراسة ولم تحبب إحداهن ظني وطوال أيام مذاكرة مريم لم أبخل بجهد لتوفير لها جو المذاكرة وفلوس الدروس التي تحتاجها، تمر الأيام والبيت كله في حالة طوارئ أثناء امتحانات مريم حتى الأولاد الصغار الذين يلعبون في الشارع كنت لهم بالمرصاد؛ حتى لا يزعمونها وتركز في مذاكرتها إلى أن انتهت الامتحانات ومرت أيام الانتظار القلق حتى كان يوم إعلان نتيجة الثانوية العامة وانتظرنا متلهفين لكني أعطيت رقم جلوس مريم لزميل لي لديه وصلة من وصلات الإنترنت وما إن ظهرت النتيجة أمام عيني حتى فاضت بالدموع الغزيرة وجريت لأبشر البيت كله بالخبر فلعلعت الزغاريد تهز أرجاء المطرح وتوافد الجيران يهنئون أمي وخالتي وعفاف التي لم تصدق أن ابنتها على وشك دخول الجامعة التي ترى الفتيات في المسلسلات يدخلنها، انقضت ليلة من ليالي العمر ونحن نتبادل القبلات

ولم تكف رحمة عن الرقص طوال الوقت على دقات طبلة جدتها رزقين أو
أغنية عبد الحليم حافظ التي تذيعها كل القنوات :
وحياة قلبي وأفراحه ..

• • •

مرت الأيام سريعة وأعلن مكتب تنسيق الكليات عن قبول مريم بكلية
الآداب بجامعة أسيوط وهي التي كانت تحلم بها فنصحتها أن تدخل قسم
اللغة العربية لكنها أصرت على قسم التاريخ وهنا طفر وجه ماري التي
تخرجت من نفس القسم قديما وومضت فكرة في رأسي فطلبت من مريم أن
ترتدي أفضل ما عندها واصطحبتها إلى بيت الأستاذ رمزي وبعد أن سلمنا
على خالتي أم وحيد وأستاذ رمزي الجالس على كرسي متحرك، جاءت
ماري وهنأت مريم على الكلية فأخبرتها أنها اختارت التاريخ ففرحت جدا
وأخذت تحدث مريم عن هذا القسم الجميل وتنصحها بالاهتمام بحضور
المحاضرات والسكاشن والتي عرفت أنها لمجموعة قليلة من الطلاب غير
المحاضرة التي تضم الدفعة كلها وبالاهتمام بعمل الأبحاث التي سيطلبها
أساتذة القسم منها ثم أخبرتنا بشيء لم يكن على البال أو الخاطر وهو وجوب
الإسراع في الالتحاق بالمدينة الجامعية، دهشت من هذا الاقتراح وأنا الذي
تصورت أن مريم ستمضي أيام دراستها تنتقل في المواصلات لكنني اهتملت
باقتراح ماري وبعد عودتنا أخبرت أمي وخالتي التي ضربت صدرها بيدها
واستنكرت أن تبات البنت خارج البيت وتعيش بعيدا عن أهلها لكنني
أفهمتهم أن المدينة الجامعية أمان وتوفر جهدا ووقتا لمريم وستعود كل
أسبوع لقضاء يوم الجمعة معنا ..

على مضض اقتنعت أُمِّي وخالتي بدخول مريم مدينة الطالبات وفرحت
ضحى بذلك أما رحمة فقد بكت لفراق أختها لها وعفاف كعادتها لم يكن لها
رأي وتركنتي أقود سفينة البيت فاصطحبت ابنتي يوما إلى أسيوط حيث
توقفت الميكروباص في موقف الأزهر ثم ركبنا الأوتوبيس المتجه إلى الجامعة
وآخر محطته مستشفى الجامعة، كل هذا حتى أعرف مريم خط سيرها،
توجهنا إلى إدارة المدينة الجامعية وقدمت الأوراق المطلوبة فالتحقت مريم
بمبنى يسمى (ج)، وأخبرتنا المشرفة موعد بدء السكن، أصررت أن أسير
مع ابنتي في شارع يسري راغب ودهشت للمباني والدكاكين المدهونة بنفس
اللون وتمت توسعة الشارع كثيرا وعند اقترابي من دكان عم جمعة بائع الكتب
القديمة فوجئت بمحل اكسسوار المحمول مكانه ..

أسرعت إلى الساعاتي الذي لا يزال دكانه مفتوحا، سألته عن جمعة
فأجابني بأسف أن صاحب البيت طرده من الدكان وأجره بالغالي لمحل
أجهزه المحمول فنقل العجوز كتبه إلى دكان آخر في شارع الجمهورية ..

رافقتني مريم إلى الجمهورية وأنا أسأل عن المكان الذي وُصف لي حتى
وجدته لكن الدكان مغلق فسألت المكوجي الذي أمامه فأخبرني دون أن
يكف عن عمله أن جمعة العجوز فتح دكان الكتب القديمة عدة شهور لكنه
لم يتألف في المطرح الجديد وظل أياما يجلس أمام الدكان حتى أغلقه ثم
سمعنا أنه مات ..

ركبنا إلى أبنوب وطوال الوقت أفكر في ذلك الرجل الذي يسعى طوال
الوقت في جمع الكتب القديمة ثم يعيد عرضها للبيع ويقنع بالقليل من

الجنهات وعندما سألتني مريم عن سبب حزني فأخبرتها أن عم جمعة له الفضل في أن أقتني العديد من الكتب بأسعار قليلة ولأول مرة أسمع من مريم أن الناس لم يعد عندها وقت تقرأ وما يريد البعض يبحث عنه في مواقع الإنترنت وسيقرأ ما يريد دون البحث عن كتب أو أن يتكلف شراءها..

انقضت الأيام سريعاً وطوال الوقت تجهز أمي وخالتي بمساعدة ضحى كل ما تحتاجه مريم من ملابس الخروج أو السكن بالمدينة واشترت لها لوازم المعيشة حتى جاء اليوم الذي جهزت لها الحقيبة الكبيرة وتأهبت لأصطحبها إلى المدينة الجامعية فأمطرتها جدتها رزقن بالقبل أما أمي فقد حضنتها وهي لا تريد أن تفارقها وتنصحها بالبعد عن الشباب المعاكسين أما عفاف فقد بكت لفراق ابنتها وطفقت تمسح على طرحتها وتوصيها أن تحرص على نفسها وتلتفت لدروسها، انفصلنا عنهم وسرنا نحو موقف سيارات الأجرة أنا ومريم وضحى ورحمة أصرتا على مرافقة مريم لأسيوط ..

وصلنا المدينة ففارقتنا مريم إلى الداخل بعد أن انفكت من أحضان ضحى ورحمة ثم قبلت يدي وغادرنا المكان وأنا أدعو لها بالتوفيق والمحافظة على حياتها ..

لم نعد للبلد مباشرة فقد اصطحبت ابنتي إلى مطعم كشري فتغدينا ثم جاء دور الكوكاكولا المثلجة ونحن نتحدث في أمر مريم التي ستعتمد على نفسها في حياتها المقبلة وافتخرت ضحى أنها بانتهاء السنة ستنتهي تماماً من مدرسة التمريض فتستريح من المذاكرة وتستلم عملها في أي مستشفى قريب أما رحمة الفيلسوفة فقد اقترحت أن تبات مع مريم في مدينتها الجامعية بعد أن

تستقر أمورها حتى تؤنسها وتحرسها من السرقة، ابتسمت لها وعدنا إلى
البلد فتلقفتني أُمِّي وخالتي وعفاف بتساؤلات لا حصر لها عن سكن مريم
وزملائها في الغرفة وأنا أجيب عليهما حتى شعرت بالصداع فصعدت إلى
الغرفة مقررا أن أهرب من كل ذلك بالنوم .

يوميا أتصل بها كي أطمئن عليها وتحادثها أُمي وخالتي وإن قطعت الاتصال أفهم أنها في محاضرة أو منشغلة في أمر ما أما ضحى ورحمة فلا تكفان عن الاتصال بمريم فتشحن ضحى ثلاثة كروت فودافون في الإِسبوع حتى جاء مساء الأربعاء فاتصلت بي مريم لتخبرني أنها في طريقها إلى البلد ..

تركت رحمة في الدكان وأسرعت إلى الموقف أنتظر وصولها أمام الإدارة التعليمية وما إن نزلت من الميكروباص حتى أسرعت إليها حاملا الشنطة الكبيرة، تسير جوارى وأنا منتفخ الصدر لابتني العائدة من الجامعة، أرمق الغادين والرائحين بنظرات الزهو وابتسامتي تقول لهم أن غريب ضيف العريان لم يسر سيرة أبيه الذي باع الدنيا وما فيها من أجل أحجار الشيثة بعد أن حمل في شبابه وعلى كتفه أحجار السد العالي ومات ولم يمتلك قبرا يستره فدفن في مدافن الصدقة وغيره من أصحاب شركات الاستيراد بنوا قصورهم وعمائرهم على أنقاض عشش الفقراء، إنما أنا غريب عشتُ حياتي أكافح من أجل الارتقاء بأسرتي وها هي ابنتي المحترمة تدخل كلية كبيرة فلا تقل عن أي واحدة بل فاقت كل بنات وأبناء الجيران ..

تسير ابنتي مشتاقة إلى البيت الذي تعشقه وقبل وصولنا أمسك يدها لأوقفها كي تسلم على الأستاذ المقبل نحونا، إنه الأستاذ أيمن الذي رحبت ابتسامته بنا فخطا نحوي في سرعة وهو يمد يده مسلما فأقدم له ابنتي مريم، يسلم عليها وأخبره بملء فمي أنها في آداب أسويط قسم التاريخ، يشد على يدها ويهز رأسه فأشعر أنه يشاركني الاعتزاز بوصول ابنتي إلى الجامعة، أنهى اللقاء القصير بدعوتي لحضور ندوة غدا الخميس بقصر الثقافة ثم انصرف فعدنا إلى البيت لتسبح مريم في أحضان أمها وجدتيها أما رحمة فقد ألفت بنفسها في حضان أختها تمطرها بقبلات الاشتياق وما إن أنهت ضحى سلامها حتى أخرجت مريم من حقيبتها علبة من الكارتون، فتحتها على الفور فصاحت ضحى : بيتزا!!!!!! ..

وضعتها على المنضدة، رفعت مثلثا من ذلك العجين المنتفخ وقدمته لي، دفعني الفضول إلى تناول قطعة لكن رائحتها النفاذة قلبت صدري وطعمها اللاذع أحرق زوري، ما إن ابتلعتها حتى شعرت بمغص ورغبة في إفراغ ما تناولته، انتحيت جانبا وأنا ألمح البنات يتقاسمن مثلثات تلك العجينة الغربية، شعوري بالغثيان يزداد خطوات نحو الكانون الذي تقعي خالتي أمامه تقلب البتاو على جمار النيران الهادئة، رائحة البتاو المقمر تطارد فلول رائحة البيتزا فيستريح صدرى رويدا، من البلاص المجاور تسحب خالتي رزقين قطعة جبن كبيرة، تضعها في قلب البتاوة وتقدمها لي، القضمات تتوالى واللقيمات ذات الرائحة المشتهية تبطل مفعول البيتزا داخل معدتي حتى محت ما سببته من غثيان فابتسمت لوجه خالتي الطيب وهي تواصل تقليب البتاو استعدادا للعشاء ..

أجلس أمام المكتب، حولي بناتي فتحكي لنا مريم يوميات أول أسبوع في الجامعة ما بين الكلية بمحاضراتها القليلة والتي لم تنتظم بعد والمدينة الجامعية بأتوبيسها الذي ينقلهن من مبنى المدينة إلى الكلية بالجامعة القديمة عند مدخل الوليدية وعن مواعيد الغذاء والعشاء والنوم وزميلاتها في الغرفة ومشرفات الدور والمطبخ ..

سهرنا لساعة متأخرة من الليل فقامت البنات ليدخلن غرفتهن وأسمعها تكمل تفاصيل حياتها بعيدا عن البيت وأنا أضحك من دقة وصفها لعالمها الجديد الذي تعيشه .

• • •

انقضى الخميس ولم أخرج من البيت بعد عودتي من الأرشيف وأمضيت يومي بين أسرتي الجريمة التي أصبحت أعشقها وشعرت أني رجل هذه اللمة من الإناث، الأولى أُمي والثانية خالتي والثالثة زوجتي وثلاث بنات يجري حبهن في عروقي مجرى الدم ..

قبل أذان عصر الجمعة، انفلتت مريم من بين أحضانهن وكأنها ستغادر لأول مرة ورحمة تبكي عليها، أوصلتها لموقف السيارات ثم عدت إلى البيت، أمضيت بقية اليوم في الدكان وعندما صعدت لأعلى جلست أمام المكتب، نظرت إلى الكتب التي لم تزد كثيرا، سحبت الدوسيهات التي تضم كتاب في جريدة، ثلاث ملفات كبيرة تحوي اثنين وستين كتابا وأسفت أشد الأسف لتوقف إصدار هذا الكتاب الذي ضمن لي قراءة لأعمال عمالقة المبدعين قديما وحديثا ومن كل البلاد العربية، طفرت لي فكرة عزمت أن أنفذها قريبا وهي

أن أقوم بتجليد أعداد كتاب في جريدة معا بحيث تصبح مجلدا ضخما بغلاف قوي يحفظه، ابتسمت لهذه الفكرة وسعدت أكثر لأنني أعرف من سيساعدني على هذه المهمة، إنه عصام الذي سكن مع أبيه وأمه وزوجته في أسبوط خلف الجامع الكبير الذي لا أراه إلا مرة في السنة مثل هلال العيد وأحيانا يمر العام دون أن أقابله فذهبت إليه حاملا الكيس الكبير وبعد الشاي اصطحبني إلى دكان لتجليد الكتب فأخرجت الأعداد الكثيرة وطلبت من عامل التجليد أن ينظم كل عشرين عددا في مجلد أما المجلد الأخير فيحوي اثنين وعشرين كتابا، تركته واستأذنت من عصام على وعد بقاء قريب حين أعود لأستلم المجلدات ..

• • •

أرحت رأسي إلى الوراء وشبكت أصابعي خلفها، أغمضت عيني، راودني تفكير غريب في حالي وتساءلت بيني وبين نفسي : لماذا أعيش، لماذا أنا بهذا الشكل، لماذا نشأت في هذه الأسرة ولم تكن لي أسرة أخرى، ولم تزوجت بنت خالتي المعاقة ولم أتزوج أي واحدة أخرى ولماذا لم يعش لي الولد وبقيت البنات، هل إذا استسلمت لطريقة أبي في الحياة تكون معيشتي مختلفة أم أن التعليم والوظيفة هي التي جعلتني أغير مجرى حياتي تماما وأقرأ وأكتب قصصا وتكون عندي كل هذه الكتب ؟ أم إنه القدر ؟

تراجعت التساؤلات في رأسي وفجأة تعالى داخلي ذلك الصوت الذي يوحي بأن لي حياة أخرى يجب أن أعيشها، تحوّل الصوت إلى أصوات عديدة تهدر داخلي حتى لم أشعر باليد التي تربّت على كتفي فأرفع رأسي ليطالعي

وجه عفاف، عقرب الساعة أمامي يقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، نهضت داخلا الغرفة وهي تتبعني متسندة على عكازيها، تمددت جوارها، أراقب الخيوط المنسوجة بين عروق الغرفة، تيار الهواء يهز بيت العنكبوت فتهتز معه ذاكرتي ... يطفر وجه الأستاذ أيمن أمامي وموعد ندوة الخميس التي دعاني لها قد محيت من ذاكرتي ولم أحضرها، عذمت على الحضور الأسبوع القادم والاعتذار له، لا أدري لم أنجذب إليه كلما رأيته، قررت عندما أراه أسجل رقم محموله وأتواصل معه فإنني لا أنسى أن هذا الإنسان هو الوحيد الذي نصحني بأن أحسن من معيشتي وأنا هنا في مكاني وبالصبر وحسن التخطيط وقبلهم توفيق الله ومشيتته فنفذت ما نصحني به وسأظل أسعى لذلك طوال ما في صدري نفس يتردد .

تزدحم قاعة الاجتماعات بالإدارة التعليمية، أجلس وسط زملائي، أنصت للمحاضر الذي عرفنا بنفسه أنه من حملات التوعية ضد مرض انفلونزا الخنازير، تحدّث الطبيب عن تسمية المرض وطرق انتشاره وأعراضه والوقاية منه بعدها انفضت المحاضرة وأنا اصعد إلى الأرشيف يتناهي لمسامعي تعليقات الزملاء على كلام المحاضر وأضحك لموظف الحسابات الذي يقول :

- استرها معنا يا رب، حتى الحلاليف صابتها انفلونزا ..

- يا أخي الخنازير نفسها أس المرض، كل خنزير وخنزير برميل انفلونزا غابا في حجرة الحسابات، وقفت برهة أمام باب الرشيف، زاد قلقي على مريم وهي التي تحالط فتيات من كل بلد سواء بالمدينة الجامعية أو بالكلية فبادرت بالاتصال بها، جاءني صوتها مطمئنا فحذرتها من الاختلاط بالبنات المصابات بالانفلونزا فطمأنتني بأنها في أمان وبخير، أنهيت المكالمة ولكن القلق أنشب مخالبة القاسية في نفسي، أدت المفتاح، لا أدري عندما فتحت الباب لماذا وقعت الملفات على أرض الأرشيف، أنشغلُ في لملمتها وأعيد

ترتيبها، أسمع صوتا ينادي عليّ، ألتفتُ فأراه يقف أمام الباب، أمُدُّ يدي مسلما عليه بحرارة، أَدْعُوهُ للجلوس فيجلس على الكرسي المقابل للباب، يمد يده بنصف ورقة فلوسكاب، أتناولها، أقرأ الطلب المكتوب فيها باستخراج ملف من ملفات نهاية الخدمة لعام ١٩٨٥م، أعيد قراءة الاسم فيhez رأسه ويخبرني مبتسما أنه أبوه ويريد الملف لاستخراج بعض المستندات لرفع قضية رصيد الإجازات الاعتيادية، رحبت به، طلبت شايًا لي وله، يتمنّع لكني أصريت متعللا أن استخراج الملف يتطلب وقتًا وبخاصة أنه مرّت خمس وعشرون سنة على نهاية الخدمة ..

بدأت البحث في الملفات القديمة لكنني لم أجد سوى بضع ملفات لعام ٨٧ ومثلها لعام ٨٦ ولا شيء لعام ٨٥ وما قبلها، أعيد البحث في الملفات الأحدث فلم أجده، فتحت الكيسين الباقيين، في حذر أخرج الملفات ذات الأغلفة المهترئة وأنا على يقين أنه ليس بينهم لكنني قلبت فيها جميعا ولم أجده، قرأت علامات القلق في وجه أيمن الذي ينتظر بين لحظة وأخرى أن أقدم له ملف أبيه لكن للأسف مرّ وقت من البحث ولم نجد أثرا للملف، بدا اليأس يطل من عينيه لكنني بعثت الأمل في نفسه القلقة بأنني سأسأل الأستاذ خلف عن ملفات عام ٨٥ لعله يعرف مكانها فهو على كل حال أمين الأرشيف وما أنا إلا عامل فيه ..

تفهم أيمن الموقف وتبادلنا أرقام المحمول لمتابعة البحث وأكدتُ وعدي أن أهتم بإخراج الملف، انصرف وجلستُ محتارا لكنني لم أضيّع الوقت وأسرعت إلى خلف لأجده مكوما على كرسي أمام بيته، سلمت عليه فرّحب

بي وجلسنا نشرب الشاي، سألته عن ملفات ٨٥ وما قبلها فأكد أنها في الأرشيف وأنا بدوري حلفت أنها ليست هناك، سكت لحين إخراج النفس الأخير من مبسم الشيشة القصير ثم ضرب رأسه وكأنه تذكر شيئاً، أخبرني أنه يوجد أربعة أكياس في غرفة الأرشيف القديمة لم ينقلها إلى الغرفة الجديدة بالدور الثاني، أشرق وجهي للخبر وقوي الأمل أن أجد الملف المطلوب من بينهم لكن هذا يتطلب أن يقوم هو بنفسه بهذا العمل ووعدي أن يأتي في الغد للبحث معي في تلك الملفات ولأول مرة يصدق خلف في وعده فجاء صباحاً واصطحبني إلى الغرفة القديمة ببدروم في آخر مبنى، أضاء اللمبة لتكشف عن مخزن ضيق جدرانها ناشعة، لا يحتوي على فتحة للتهوية بل باب مغلق في ضلع الغرفة المظلم، في إهمال ألقيت أكياس الخيش القديمة، خطاً وأنا وراءه، ساعدته في إقامة أول كيس، فك رباطه اللينى فأشم رائحة زهمة تفوح من بين الأوراق المعتقة كالجبين القديم ..

يسحب الملفات غير المرتبة الواحد تلو الآخر وأنا أقرأ الاسم ثم أضعها برفق على الأرض، انقضى الوقت وأحسست بتأفف خلف وحاجته إلى الشاي فاقترحتُ عليه أن آتبه بالشاي هنا لكنه أصرّ أن يشربه في القهوة القريبة ويعود ليكمل معي البحث، أعطاني مفتاح الغرفة وحذرنى من ضياعه وإلا لضاعت العهدة، ابتسمت لكلمته الأخيرة فخرج من الغرفة وتركني أعيد ملفات الكيس الثالث وأركنه جوار الجدار ..

شعرت بالإرهاق فأغلقت الغرفة وأنا على يقين من عدم عودة خلف لا اليوم ولا غداً ما دام ترك لي مفتاح الأرشيف القديم، عدتُ إلى البيت وفي

الدكان أتعجب من عدم الاهتمام بملفات الموظفين والمعلمين الذين خدموا البلد لسنوات طويلة تصل لدى أحدهم إلى أربعين سنة ثم تهمل حياتهم التي عاشوها في ملفات متهتكة الأغلفة مما يعرض سيرتهم الوظيفية إلى التلف والضياع ..

تفريقي نغمات المحمول المتواصلة، إنه رقم الأستاذ أيمن، يأتيني صوته السائل عن صحتي وحالي، أجيئه في اقتضاب ثم أخبره أن البحث جارٍ عن ملف أبيه وأكدت عليه أنني سأتصل به في الغد، أنهيت المكالمة في قلقٍ وجاء الغد وبمجرد توقيعي بالحضور اتجهت مباشرة إلى الأرشيف القديم واجتهدت في إفراغ الأكياس المتبقية وإعادة محتوياتها، عدت إلى البيت و واحد من أمثال خالتي رزقين يرن صدهاء في ذاكرتي وهو: "خيبة الأمل راكبة جمل .." من عدم عثوري على الملف، يرن الهاتف، إنه رقمه، أجيئه والخجل يتلبسني لكنني أفاجأ به يخبرني أنه يسير أول الشارع فأخرج من الدكان وأسرع إليه لأجده واقفا عند فم الشق الضيق ..

أدعوه إلى الدخول فيعتذر ثم يخضع لإصراري وأصطحبه إلى البيت، أفسح له الطريق للدخول فيطلب أن نجلس هنا أمام الدكان لكنني أصرّ مرة أخرى على الدخول فيخطو خلفي ليسلم باحترام على أمي وخالتي الجالستين على السرير، تقف أمامه رحمة وهي خجلى ثم تتقدم وتمد يدها مسلمة، سأل عن مريم فأخبرته أنها في المدينة الجامعية، أفضيت له عن قلقي بسبب انفلونزا الخنازير لكنه أكد أن المدن الجامعية دائماً تحطاط للأمر وأن عقار التاميفلو متوفر لمن يصاب بالفيرس، اطمأنت قليلاً، صعد خلفي

للدور العلوي، خرجت ضحى من الغرفة وسلمت عليه وانشغلت في تجهيز الشاي، جلس أمام المكتب ورأته يقف عند خروج عفاف من الغرفة وهي تتوكأ على العكازين، قدمتها له فسلم عليها في احترام ولم تلبث أن ساعدتها ضحى على نزول السلم، نظرت غريبة رأيت فيها احتراما لم أره من أحد ثم حوّل عينيه إلى مكتبي الصغيرة ووقف يقلب في الكتب ..

يشير إلى المجلدات الثلاثة مستفهما، أسحب أحدها وأقدمه له، أخبره أنها أعداد كتاب في جريدة فيندش لجمعها في ثلاثة مجلدات يحوي الواحد منها عشرين كتابا بترتيب الإصدار، أفاجا به يخبرني أنه اقتنى كل أعداد كتاب في جريدة لكنه لم تواته فكرة تجليدها مثلي وأنه سيقلدني ويجلدها قريبا جدا كي يحافظ عليها، تجاذب معي أطرافا من أحاديث حول القصص التي يكتبها وبدوري عرضت عليه ما كتبت فأعجب بقصة (آه يا جملي) وأيضا قصة (ليل ودخان) ونصحني بعدم التوقف عن القراءة والكتابة وبالبحث عن الفكرة الجديدة دائما ووصفني بأني أجيد التقاط اللحظة القصصية وأيضا تطوّر أسلوبه في التعبير عنها ..

شرب ما تبقى من الشاي وما إن لاحظ كتاب القواعد الأساسية في النحو والصرف إلا ويقلب فيه فأخبرته بقيمته الكبيرة فأمن على رأبي وأنه شخصيا لا يستغني عنه ويرجع إليه في كل كبيرة وصغيرة، سحب المعجم الوجيز ورمقني مبتسما فأخبرته أن مريم بنتي علمتني كيف أبحث عن كلمة غريبة في معجم، أعرب عن إعجابه بي وأكدت أنا بدوري عن احترامي له كلما قرأت في عينيه رغبة في الانصراف ألقيت عليه سؤال وكان السؤال التالي

عن روايته التي عرفت أنه يكتبها فأفاجأ به يقول أنه لم ينته منها بعد، نهض مستئذنا وأنا أجاهد لأبقيه معي لفترة أطول لكنه اعتذر وأمام الشارع رأيت في عينيه نظرة رجاء أن أهتم بالبحث عن ملف أبيه وأنا بدوري أكدت أنني سأقلب الإدارة وأفتشها شبرا شبرا حتى أجد الملف ..

انصرف الأستاذ أيمن وأنا في حيرة من أمر الملف الضائع الذي لم أجده حتى في بقية الأكياس بالأرشفيف القديم، عدتُ إلى البيت وأغلقت الدكان، بعد العشاء تمددتُ وأنا أفكر من أين أبدأ في السؤال عن أي ملفات قديمة التي لا يعلم مكانها إلا خلف الذي ذهبت إليه في اليوم التالي عند قهوة عبد الحي فيجيبني في ضيق أن ما رأيته هو ما يعرفه من أمر ملفات أرشفيف الإدارة، طلبت منه أن يعصر مخه كي يتذكر مكانا آخر يحتوي على ملفات لكنه هز رأسه في لا مبالاة، هممت أن أعود إلى الأرشفيف لكنه نحى خرطوم الشيشة جانبا وفجر مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أخبرني أنه تسلم الأرشفيف القديم من الأستاذ زكي قصطندي قبل أن يُحال إلى المعاش وهو رجل معروف بالدقة في عمله ولا يمكن أن يضيع ملف من عهده ويمكن سؤاله ..

أشرق وجهي بالأمل وتفاءلت من نهوض خلف واصططحبني لبيت الأستاذ زكي في حارة ضيقة بعد بوابة بيت حديد، يضغط على زر الجرس فتخرج زوجته العجوز وتخبرنا أن زوجها ذهب إلى البوستان ليصرف المعاش الشهري، توجهنا إلى مكتب البريد المحشور أمام شباكه مئات العجائز في صف طويل فخطا الأستاذ خلف مباشرة نحو رجل محني الظهر يدها ترتعشان باستمرار، سلم عليه ثم قدمني إليه، سألته عن مكان آخر يوجد به

ملفات الأرشيف، أدار لنا أذنه فكررت ما قلت فهزّ رأسه وانفرت شفتاه عن ابتسامة كشفت فراغ فمه ليخبرنا أنه توجد صناديق خلف الباب المردود في الأرشيف القديم ربما بها المزيد من الملفات لعام ٨٥ وما قبلها ..

شكرنا الرجل، تركناه يقف في الطابور الطويل ينتظر دوره، عدنا إلى الإدارة ففتحت الأرشيف القديم، الباب مغلق بترباس محكم، أحضر خلف شاكوش وأجنة، كسر القفل وعند انفراج الباب نفاجأ بغرفة داخلية صغيرة أعلاها فتحة ضيقة بها أسياخ من حديد أسفلها ثلاثة صناديق خشبية يعتليها التراب، هممت أن أنفض التراب لكن خلف استوقفني وسحب يدي خوفاً من وجود ثعابين أو عقارب في الصناديق، في حذر سحب أحدها وقلبه وسط الغرفة لينثر زبل ناشف على الأوراق المهترئة، يعيد وضع الملفات في الصندوق وأنا أقرأ الأسماء عليها حتى دق قلبي للملف الضخم الذي أمسك به بين يدي، إنه هو ملف والد الأستاذ أيمن، توقف خلف عن البحث وهو يزفر وعندما استراح للعثور على الملف أعاد بقية الأوراق إلى الصندوق وسحبه داخل الغرفة الضيقة، أغلق بابها واضعاً أكياس الخيش أمامه، خرجنا من قبر الملفات وقبل أن أصل إلى الأرشيف الجديد كان خلف قد هرب إلى القهوة وتركني في صحبة الملف، بحرصٍ شديد أقلب أوراقه ومسوغات التعيين لأقرأ سيرة الموظف :

شهادة تخرجه من مدرسة المعلمين بأسبوط عام ٤٦، فيش وتشبيه، شهادة طبية، صحيفة أحوال، تقاريره السنوية ناصعة من أي خصومات ونظيفة من أي جزاءات، شهادات حُسن سير وسلوك، شهادة اشتراكه في

المقاومة الشعبية أيام حرب ٥٦، شهادة طبية من المستشفى تتضمن إجازة مرضية لمدة عشرة أيام أواخر يونيو عام ٦٧ لإجراء جراحة استئصال المرارة، كشف بأسماء متبرعين بالدم عام ٧٣ وخطا باهتا بالأحمر تحت اسمه، استمارة تفيد اشتراكه في لجنة إعداد السكان عام ٧٦، إخلاءات طرف عديدة من الخدمة في الانتخابات ومراقبة لجان الامتحانات، استمارة للبدل النقدي بها اسم الزوجة والأبناء، صورة من كشف لمفردات المرتب، شهادات اجتياز لتدريبات بمديرية التربية والتعليم، تقارير .. تقارير لا تضم إلا الانتظام في حضور العمل ولم يتغيّب يوما ثم الورقة قبل الأخيرة وهي قرار نهاية الخدمة وبعدها آخر ورقة وهي إخلاء طرفه بعد أن تولى مدير مكتب شئون العاملين بالإدارة التعليمية ..

برغم الجو الذي بدا باردا إلا أنني تصببت عرقا وأنا ألهث بين أوراق الملف الوحيد الذي تصفحته منذ أن عملت في الأرشفة، ها هي سيرة واحد من مواطني الدولة الذين أفنوا حياتهم في خدمتها يتحوّل إلى مجرد أوراق تعافر من أجل البقاء ونجد معاناة في العثور عليها مقبورة في صندوق قديم أسفل قبو الإدارة التي تولى يوما مديرا لشئون عامليها، تمنيت ان تحمّل كل هذه الملفات على أجهزة الكمبيوتر لتحفظها ويكون الحصول على أية معلومة سهلا بمجرد الضغط على زر التشغيل وإدخال اسم الموظف ..

أرفع هاتفني المحمول، أبحث عن رقم الأستاذ أيمن، أضغط على زر الاتصال، أنتظر أن يفتح الخط لأخبره أنني عثرت أخيرا على ملف أبيه .

لأول مرة يصادفني هذا الموقف المفرح المحزن في آن واحد فبمجرد أن أبصر الأستاذ أيمن ملف أبيه حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتناسى وجودي في الغرفة وطفق يقلب في رفق الأوراق الصفراء القديمة وكأنه يلامس جذورا عزيزة عليه، أراه يبتسم، يرفع حاجبيه، يضحك ثم يقلب في بقية الأوراق حتى أنهى تصفُّح الملف ثم أخرج دوسيه بلاستيك ووضع الملف كما هو فيه وهو يشملني بنظرة شعرت فيها بكل آيات الامتنان ثم مد يده فسلمت عليه، شد عليها في حرارة واستحالة وجهه إلى اللون الوردي الذي ينضح بالأمل، غادر الأرشيف فصحبته إلى إدارة التسويات لعمل اللازم، طلبت منه أن يشرب معي الشاي لكنه اعتذر لانشغاله، غادر المكان وتركني أدور في دوامات الاستغراب الممزوج بالحيرة فأمضيت بقية النهار ساكتا لم ينتشلني من صمتي إلا اتصال مريم لتطمئن عليّ وتخبرني أنها ربما لن تتمكن من الحضور هذا الأسبوع بسبب كثرة المذاكرة وقرب الامتحانات ..

• • •

أسمعها تصرخ وتعقبها صوت خالتي العالي فأخرج من الدكان وأدخل البيت بسرعة فأراهم يحملقون في التلفزيون وخالتي تضرب صدرها بكفها أما ضحى فتضرب كفا بكف، أحرق بدوري في الشاشة الصغيرة ولا أفهم شيئا حتى تخرج المذيعة بالخبر الذي جعلني أبرك على الأرض وهو انفجار قنبلة أمام كنيسة القديسين بالإسكندرية ..

تابعت الأخبار التي تناقلتها كل القنوات وأنه يُجرى البحث عن الإرهابيين ثم تركتهم، أصعد إلى أعلى، أتهالك جالسا على كرسي المكتب،

أغمض عيني فيمر شريط أيامي الماضية عندما كنت أنا وفرحان وماري نلعب معا على عتبة كنيسة مارفام وعندما كنا نجوع يأتي لنا فرحان بقرصة من الخبز الشمسي مرسوم عليها دائرة داخلها صليب فتقاسمها معا ونواصل عمل الخواتم والقلوب من سعف النخيل الأبيض وبعدها بأيام يقبل شهر رمضان فيصنع ثلاثتنا الفانوس الكبير من الجريد الناشف ونلفه بالورق القزّاز الأحمر والأصفر والأخضر ونجتهد في تعليقه في وسط الشارع وبعد الإفطار نلعب أمام البيت ثم نشاهد فوازير نيللي أو فطوطة وألف ليلة و ليلة لشريهان وبعدها نردد نفس الأغاني ثم يتفرق كل منا إلى بيته على وعد بلقاء في الغد ..

لماذا لا نعيش مثلما كنا نعيش أيام زمان ؟ لماذا نفجع لتفجير قبلة أمام كنيسة لأناس يصلون ليلية الميلاد فينهش الحزن قلب كل مصري، ظللتُ لأيام أدور في دوامات من التساؤلات التي لا أجد لها إجابة وأمضي الوقت صامتاً في الأرشيف .. البيت .. الدكان .. لا أكاد أكلّم أحداً حتى ابنتي مريم وضحي الكبيرتين اللتين كانتا لا تكفان عن الكلام معي لم أعد أتبادل معها التعليقات في شيء فأحسّت مريم بما أشعر به ولم تثقل عليّ بأي حوار وظلت طوال الوقت تساعد أمها وتقرأ قصص الأطفال القديمة مع أختها رحمة ..

قادتني قدماي إلى قصر الثقافة فوجدت عدداً من الجالسين لا يزيدون عن عشرة، تظللهم سحابة من صمت بددها صوتُ المقدم المخنوق بتقديم العزاء لأهالي ضحايا كنيسة القديسين ثم بدأت الندوة بقصيدة شعر حزينة، لم أطق سماع بقيتها فاستأذنت منهم وغادرت المكتبة وطوال السكة إلى

بيتي أفكر فيما حدث حتى مررت بكنيسة مار فام فأسرعت مبتعدا عنها
لئلا تعاتبني بوابتها الكبيرة عن تقصيري في التعبير عن استيائي وحزني لما
حدث، اقتربت من البيت فطفر وجه الأستاذ أيمن في ذاكرتي وتساءلت عن
عدم حضوره الندوة، هممت أن أتصل به لكنني أحجمت وعندما وصلت
إلى البيت صعدت مباشرة لأعلى، دخلت حجرة البنات فوجدتهن نائبات،
غطيت رحمة وأغلقت عليهن الباب ..

بهت حبرُ القلم الذي أكتب به وأوشك على النضوب، تعجبت من خطه الزاهي أول الصفحات وها هو بعد ثلاثين صفحة قد أصبحت نهاية مداده وشيكة، مددت يدي لعلبة السمن القديمة التي أسرت فيها الأقلام السابقة كي أسحب قلمي آخر وبحركة لا إرادية وقعت العلبة فتبعثر الأقلام حول المنضدة، تكاسلت عن لملمتها، مددت يدي كي ألتقط واحدا منها وبعد جهد الانحناء الذي ألم ظهري رفعته أمام عيني فوجدت فيه القليل من الحبر، أمامي ورقة بيضاء، أبيض من كل الأوراق الكثيرة السابقة، سأستكمل الآن الكتابة التي لن تتوقف ..

• • •

اليوم شديد البرودة، عدت إلى الشق ولا تزال إحدى لوحات البانر عليها صور مرشحي مجلس الشعب معلقة أول الشارع العمومي، رحمة تقف في الدكان، أبتسم لها فتشير لي بأنها باعت اليوم بضاعة كثيرة، أدخل البيت فأجد أمي وخالتي كعادتهما القديمة تجلسان أمام ماجور كبير مملوء بعظام الذرة المشتعلة، تمد خالتي رزقين كفيها لتستدفعي ولم تلبث عفاف أن تضع صينية الشاي أمامهما، تحاملت على نفسها وهي تجلس جوار أمي، ألقى

عليهن السلام وصعدت إلى أعلى، مريم وضحى تحمقان في قناة الأخبار، غيرت ملابسني، أجلس جوارهما فتخبرني ضحى في سرعة أن مظاهرات قامت اليوم في ميدان التحرير والشرطة تفرقها، لم أهتم بما تقول، دخلت الغرفة، سحبت البطانية على جسمي فشعرت بالدفع يسري بين أوصالي، أغمضت عيني ولم أدر كم مرّ من الوقت قبل أن توقظني عفاف لتخبرني أن الأكل جاهز، حول الطبلية لا سيرة لمريم إلا مظاهرات اليوم وإصرار الشباب على التعبير عن رأيهم في حال البلد، أنهت طعامها وصعدت لأعلى، لحقتها ضحى ورحمة بعدهما، شربت الشاي في الدكان الذي لم يمر أمامه زبون واحد طوال ساعة فأغلقتة بعد أن لفحني تيار الهواء الساقع، ألقيت نظرة أخيرة على أمي وخالتي اللتين ترقدان بينهما رحمة والماجور الدافئ يجاورهن ..

يتناهى لمسامعي أصوات مختلطة، أراها تقبع وحيدة أمام قناة الأخبار تتابع ما يحدث، لم أسألها عن التجمعات التي تراها في التلفزيون وهي بدورها سلمت علي ثم انشغلت في متابعة الأحداث، دخلت الغرفة، لذت بالبطانية الثقيلة جوار عفاف التي يأتي الشتاء ومعه أنغام أنفاسها العالية ولكن لتعودي على ذلك أصبحت لا أنام إلا عليها ..

• • •

لا حديث في الإدارة إلا عن أحداث أمس الثلاثاء التي انتهت بتزايد أعداد المتظاهرين، عدتُ إلى البيت، تضايقت من جلوس البنات أمام التلفزيون طوال الوقت، تشير لي ضحى أن أشاركهم مشاهدة الأحداث، أجلس جوارها، أقول لهما :

- بدل التخريب في البلد يستحسن أن ينشغل الشباب في العمل ..

ترد عليّ مريم ..

- لو وجد الشباب شغل ما تظاهروا ..

أتركهما وأنزل للجلوس في الدكان، بعد غيبة طويلة أفاجأ بعصام مقبلاً عليّ، أرحب به وأطلب من رحمة أن تحضر لنا الشاي، أسأله عن حاله وأسرته فيحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ولأول مرة أهتم بحديثه عن تجمع الشباب في ميدان المجذوب فأسأله عن السبب فيخبرني أنهم متضامنون مع المتظاهرين في التحرير، ينهي شرب الشاي ويستأذن، أرافقه حتى فم الشق، أراقب ظهره المبتعد وما إن يختفي إلا وتيار هواء شديد يحتاج الشارع فتقطع حبال البانر الكبير ويسقط طرفه أمام حربي المزين، لا أعرف كيف تجمع بعض سكان الشق حول أمتار البانر المخلوعة وكأنهم يرونه أول مرة، تحمل المزين حربي على نفسه وفرد علي الجمال اللوحة الكبيرة، قاس وجهه الأمتار فوجدها خمسة فكان نصيب الواحد منا متراً، قصّ عم حربي أمتار البلاستيك ونال كل واحد منا نصيبة من بانر مرشحي الحزب الوطني، المزين العجوز فرش متر البانر على الأرض وواصل جلسته في لعب السيجة إلى أن يأتيه زبون ليحلق شعره، عم علي فرش نصيبه على عتبة البيت الخرسانية ..

عدتُ إلى البيت، فرشت القطعة على المنضدة الخشبية العارية من مفرشها، وقفت في الشباك فرأيت وجهه يعلق نصيبه كستارة على نافذة غرفته، تتعجب مريم من عدم سؤالي عن أخبار المظاهرات وكأنها تمت أن أسأل ...

تركت التلفزيون وجلست أمامي على السرير، غطتني بالبطانية، قدمت لي ضحى كوب الشاي وخرجت، بقيت معي مريم، هزّت رأسها وهي تقول:

- يرضيك حال البلد المنهار، قلة عندها المليارات وشعب معظمه فقير يعاني المرض والبطالة وسوء الخدمات، رحمة أختي تجلس وسط ثلاثة من أصحابها في الفصل الذي زاد عدده على الخمسين .. أين فلوس بناء المدارس؟ المستشفى فاضية ومصر سجلت أعلى نسبة في الإصابة بالكبد بسبب المياه الوسخة والأرض الزراعية قلت وأزمات العيش متكررة والحصول على أنبوبة بوتاجاز صعب وأنت نفسك جرحت بسبب زحمة الناس قدام المخزن، الأسمت أصبح نار والحديد نارين والحصول على سيخين تسقف بهم غرفة تدفع فيهم دم قلبك غير الكوارث التي عايشت أحداثها من غرق العبارة وحرق قطار الصعيد، حياة المصري أصبحت رخيصة والشباب العاطل اتجه إلى المخدرات والتجارة في المنوعات والآثار، أو المغامرة بحياته والسفر والغرق في البحر، كل ما حكيته لا يحتاج إلى تغيير؟

- يحتاج يا فيلسوفة ..

- هذا ما يحدث يا أبي، التغيير للأفضل إن شاء الله ..

- لكن فيه شباب ماتوا !

- شهداء ولن ننساهم، لولا إحراق البوعزيزي نفسه في تونس لما اشتعلت الثورة هناك وجعلت الرئيس بن علي يرحل تاركا البلاد التي نهبها هو وزوجته ليلي الطرابلسي ليقرّر الشعب مصيرها ..

- وهنا ... يقدر المصري يقرر مصيره ؟

- يقدر ويقدر ويقدر .. لكن الصبر ..

نهضت مريم استجابة لنداء ضحى وتركتني أرشف الشاي حائرا من أمر بنتي التي أحست بحاجتي إلى الفهم فقامت به وستظل تفهمني ومن مثلي من الذين كبروا على الخنوع والسير داخل الحيطان لا جوارها فقط حتى لا يقعون في مشاكل، أعجبتُ بمريم وكلامها الذي كله ثورة مع أنها لم تغادر البيت، شعرت بالفخر لابتني التي تفهم وتحاول إفهامي وتغير نفسي القانعة بفتات العيش ونسبَح بحمد الرئيس الذي يلقي إلينا بعلاوة لا تكفي وجبة لعائلة فقيرة .

تمددتُ أكثر وما بين الإغفاء والصحو تجتاحني رجفة، ظننت أن البطانية انزاحت عن جسمي لكنني أتغطى بها حتى رقبتني، الرجفة تنسحب ويحل محلها ذلك الكائن الذي يعود ليتملكني وينهش روحي ويهمس في كل جسمي بأني إنسان غير الذي ينام على هذا السرير ويجب أن أفعل شيئا أفضل من الخضوع للحياة التافهة، ومضت مكتبتني قليلة الكتب ثم قصصي التي كتبتها وتساءلت : لمَ لا أمسك بقلمتي وأكتب مرة أخرى ؟ هنا اهتز الكائن داخلي وكأنه يشجعني على ما أقترح، الهواء الساقع يلفح وجهي المكشوف فأسحب الغطاء عليه .. أستمتع بمذاق الدفء ولأول وهلة، أبحث عن ذلك الكائن فلا أجده .. يا ترى هل غادرتني وسيعود أم تركتني إلى غير رجعة ؟

• • •

تمضي الأيام وقد تحولت التجمعات القليلة التي اجتهدت الشرطة في تفريقها إلى مظاهرات حاشدة تعم محافظات كثيرة في مصر والصعيد وعُزل الوزير ونزل الجيش في الشوارع والميادين، قُبعت أكثر الوقت أمام قنوات الأخبار التي تنقل الأحداث ثانية بثانية حتى رأيت الرعب يرتسم على وجه مريم فأخبرتني أن بلطجية أرادوا سرقة المتحف المصري، سمعت كلمة بلطجي أكثر من مرة في الأفلام والمسلسلات على أنه الرجل الذي لا يعترف إلا بذراعه الحديدية في قتال أعدائه أما أن يكونوا عصابات للسطو على البنوك والمتاجر الكبيرة والمستشفيات حتى متحف الآثار فهذا ما جعلني أرتجف خوفاً على البلد من فوضى تحوّل مصر لغابة البقاء فيها للبلطجية، اهتزت في ذاكرتي مشاهد السلب والنهب التي حدثت في بغداد عقب الغزو الأمريكي الظالم لها لكنني استعذتُ بالله وأرجعت ما حدث بالعراق أنه كان هجوماً أجنبياً أما في مصر فالثائر مصري ويطالب فقط بحقه والبلطجية ما هم إلا قلائل سيحاكمهم الشعب كله على جرائمهم في حق بلدهم ..

انطويت على نفسي حتى الأرشيف لم أطق أن أفتحه فبقيت مع الزملاء في فناء الإدارة أستمع إلى تعليقاتهم ولا أشاركهم، مررتُ بالسوق ولا حديث للبايعين إلا ما يحدث في البلد، قطعت كيلو لحم، عدت إلى البيت، الدكان مغلق، أمي وخالتي وعفاف حول الفرن، رحمة نائمة وضحي ومريم أمام التلفزيون وتارة تحادث مريم إحدى زميلاتها في المحمول ثم تنقطع المكالمات وأرى الغيظ يرتسم على وجه مريم، يأتي المساء، أجلس بمفردي في الدكان، أفاجأ بمريم تأتي بصينية الشاي وتجلس قبالي، أسأها عن أخبار البلد

فتخبرني أن كل الناس تجمع على أن يرحل الرئيس وكفاية عليه ثلاثين سنة،
ابتسمت لها في سخرية..

- يرحل؟؟؟

- هو و وزرائه وأسرتهم كلها ونظامه المستبد بالبلد ..

- كان غيركم أشطر ..

- نحن الأشطر، آه لو تسمح لي بالسفر لميدان التحرير ..

- امش الله يلعنك، بنات آخر زمن، الرجال ما قدروا على شيء لما البنات

تقدر، امش على أمك ..

تعلم مريم أن كلامي معها لا يحمل معنى الإهانة فقامت مبتسمة

وأحاطت رقبتني بذراعيها ثم قبلت خدي وهي تقول :

- رأيك يا عم غريب، لو تشتري لنا كمبيوتر ؟

- لازم ؟

- لازم طبعاً، عندي أبحاث غرضي أكتبها ويمكن نشترك في النت ..

- أفكر في الموضوع

- على راحتك ..

دخلت البيت فرفعت علبة تحتها كيس، عددت ما به من فلوس واطمأننت

أن المبلغ يغطي شراء جهاز كمبيوتر وفي اليوم التالي قابلت الأستاذ عبد الله

الذي يعمل في قسم الإحصاء و يتاجر في أجهزة الكمبيوتر فطلبت منه

كمبيوتر وبعد الظهر رافقني إلى المحل الكبير واختار لي الجهاز بكل ملحقاته

من سماعات ولوحة مفاتيح وشاشة كبيرة، عدت بهم إلى البيت وما إن رأيتني رحمة مقبلاً بالتوك توك وأنزل منه الأجهزة حتى خرجت في سرعة وهي تساعدني في حملها داخل البيت، تم تشغيل الكمبيوتر وسط فرحة البنات ودهشة عفاف من هذا التلفزيون الذي يمكن أن نكتب على شاشته واستنكار أمي وخالتي اللتين رأتا أن الألف وخمسمائة جنيه ثمن الكمبيوتر أولى بها البيت والدكان أما أنا فبرغم من جهلي التام بالكمبيوتر إلا أنني كنت في غاية السعادة لمريم التي استخدمته في الكتابة وضحي كلمت أحد زملائها لتركيب وصلة انترنت مقابل اشتراك شهري أما رحمة فلم تكف عن إنزال اللعب الطريفة من النت إلى الجهاز وتقضي وقتاً طويلاً أمامه حتى اعتبرت الكمبيوتر لص الوقت الأكبر في زمننا الذي نعيشه متلاحقاً في سرعة أقرب إلى الجنون .

• • •

طوال خطبة الجمعة والإمام يدعو لمصر بالأمن والأمان وحفظها من الفتن، بعد انقضاء الصلاة، ابتعدتُ عن الجامع الذي لا يريد المصلون أن يتركوا رحبته الواسعة والكل يتحاور فيما يحدث، عدت إلى البيت صامتاً، كالعادة أحادث نفسي : ما الذي يمكن أن يحدث ؟ زوبعة ثم يعود كل واحد لبيته، حكومة جديدة و وزراء جدد والرئيس هو الرئيس والذي نعرفه أفضل من غيره ..

مرّ اليوم وأنا جالسٌ أمام مكتبي حتى إذا جاء الليل وجدت البنات قد أدخلن التلفزيون في غرفتهن من البرد، جلستُ على سرير رحمة الصغير فأتت

لي عفاف بالشاي قبل أن تنام، تقلب ضحى في كل القنوات حتى زعقت فيها
لتثبت على قناة واحدة، أفاجئ مريم التي تقلب في مواقع النت بقولي :
- آخرتها كل واحد يقعد في بيته ويبقى الرئيس ..

على غير العادة لم تعلق مريم على كلامي، كل ما فعلته أنها أتت بصفحة
تظهر صورة شاب وسيم وأخرى لنفس الشاب مضروبا و بريق الحياة فارق
عينيه فسألته عنه فأخبرتني أنه خالد سعيد، قبل أن أسألها عن حكايته تأتيني
بصورة لشاب آخر ودون أن أسألها تخبرني أنه محمد البوعزيزي الشاب
التونسي الذي شعر بالظلم فأحرق نفسه ومع إشعال النار في جسده اشتعلت
الثورة في تونس التي انتهت بهروب رئيسها بن علي .

التفت مريم في حدة واختطففت الريموت من ضحى، رفعت الصوت
أكثر من اللازم، ظهر نائب الرئيس فاجتاح الصمت الغرفة الضيقة وهو
يلقي بيانه ويعلن فيه تنحي رئيس الجمهورية وتركه البلاد للجيش كي يدبر
أمرها ..

استيقظت رحمة فزعة وخرجت عفاف من غرفتنا لزعيق مريم وضحى
بصوت واحد : الشعب خلاص أسقط النظام ..

شعرت برجفه تجتاحني، لم أعلق على ما رأيت، راودني شعورٌ بأن كل
ما يحدث مجرد تفاهاات لم يلبث أن يعود الجميع إلى بيوتهم بعدها، تركتهم
في صخبهم، سحبت البطانية على جسمي ولم أدر إلا بالضوء يغمر الغرفة،
استيقظت وكأن ما حدث حلمٌ استفتت لتوي منه، تستقبلني مريم بصينية
الإفطار وهي تنظر لي باسمة وكأن عينيها تقولان : رحل يا غريب يا عريان

• • •

عدت يوما من الأرشييف لأقابل عند باب الحارة عصام الذي قدم ليشيع جنازة أحد أقاربه، تحدثت معه عما يحدث في البلد فأخبرني أنه لا أحد فوق القانون وسيحاسب كل إنسان على ما فعل، هذا في الدنيا أما في الآخرة فإن الله سيحاسب الجميع ..

برغم منطقية كلامه إلا أنني لحظت نبرة غريبة في لهجته ثم فوجئت به يحدثني عن لقاءات يحضرها في أحد مساجد أسيوط ويدعوني لحضورها والاستماع إلى الشيوخ الأفاضل الذين يخطبون في الناس، اعتذرت له لانشغالي بالبيت والبنات وأمهم وأمي وخالتي التي بدأت تشكو في الأيام الماضية من ألم جنبها، سلم علي وتركني وأنا محتار من أمره ..

تستقبلني مريم بأخبار الاحتجاجات التي انتشرت في ليبيا ومن قبلها اليمن وهي تؤكد أن الشباب العربي حملوا على أكتافهم الثورة على أنظمة بلادهم التي أصابها العفن والفساد الذي ضرب بأطنابه الدول حتى أمست قلة تتمتع بخير البلاد والكثرة تقاسي الفقر والمرض والجوع ..

تزف لي الخبر الأقوى وهو القبض على معظم وزراء الحكومة السابقة بتهم الاستيلاء على أموال البلد، تركتها وتهالكت على كرسي المكتب، أتساءل عن هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا زيادة الأصفار أمام أرقام الجنيحات فتصبح آلاف وملايين ومليارات وعند وقوع الواحد منهم في المرض لن تشتري أمواله التي لُت في جمعها من أفواه الشعب الشفاء ثم يأتي الدرس الأخير .. الموت .. فلا تجدي كل كنوز الدنيا في دفعه ..

أتساءل .. لماذا ينهم الناس في الاستيلاء على كل ما تصل إليه أيديهم دون حياء من الله ؟ لم يستحلون المال العام الذي يعود خيره على الجميع ؟ سمعت

يوما من الشيخ فتحي في إحدى خطبه قصة عن عمر بن عبد العزيز .. كان إذا انشغل في أمر من أمور الناس أضاء شمعة من بيت المال فإن أنهى انشغاله أطفأها وأشعل شمعة من ماله الخاص ليعيش حياته الخاصة مع أسرته ..
الله يرحم أيامهم ويرحمنا في أيامنا التي امتلأت بالبلطجية الذين استحلوا كل شموع الناس لكن لا شمعة منهم ستضي لأحد قبره ..

تمضي الأيام ويتم تأجيل الدراسة بأسبوعاً وراء الآخر حتى مرت أربعة أسابيع بعدها انتظمت الدراسة في شيء من الارتباك، رافقت مريم إلى المدينة الجامعية وبعد أن ودعتها تمشيت في شارع الشهيد يسري راغب، في أثناء عودتي لموقف الأزهر أرى فتاة تبكي وهي تمسك بسلسلة رفيعة وصاحبته تهدئ من روعها، القليل من المارة يتجمعون فأقف بينهم لأسمع رواية صاحبة الفتاة التي تخرج الكلمات من بين دموعها بأن ولدين يركبان الموتوسيكل وخطف الشاب الذي بالخلف شنطة الفتاة وأسرعاً مبتعدين نحو الكوبري والشنطة بها فلوس الكلية والمذكرات والموبايل، ضربت كفا بكف وفي سرعة اتصلت بمريم وحذرتها من هؤلاء الخطافين وأمرتها بأن تسير على الرصيف مبتعدة عن أي موتوسيكل يقترب منها، عدت أتعجب من هؤلاء الشباب الذين استسهلوا السرقة على البحث عن عمل شريف ..

• • •

- شباب سوريا أعلنوا الثورة ..

قالت مريم هاتفة في فرح فأكدت لها أن سوريا بلد قوية ولا يهز نظامها أية مظاهرات فعاتت تؤكد في يقين أن سوريا بالذات كان يجب أن تتفجر بها

الثورة منذ زمن فنظامها هو الوحيد الذي نجح في توريث الحكم حتى أغرى ذلك رؤساء الدول الأخرى أن يجهزوا أولادهم للحكم بعدهم ..

تنظر مريم في عيني ثم تؤكد أن العالم العربي كله سيتغير إلى الأفضل ما دام الشباب قاموا بالثورة وهم أيضا سيتولون الإصلاح ..

- لكن يا بنتي فيه جهات أخرى لا يهمها ثورة ولا إصلاح ..

فاجأتها بالرد لكنها رددت : فلول النظام القديم وإسرائيل ..

أكدت لها أن إسرائيل وحدها مرعوبة من تلك الثورات التي تهدد أمنها القومي لو أن قوة حاكمة أعلنت مواجهتها لإسرائيل أو حربها عليها ..

- لا يهم، المهم أن يبدأ الشباب في الهدم ثم تأتي مرحلة تعمير بلدهم ..

• • •

لمة كبيرة أمام قهوة أبو شنب، وقفت وسطهم وإذا بالمشاهد تعرض سريعة، تبيت من خلال التعليقات وما يمر في شريط الأخبار وبعد كلمة عاجل : أن الصور لمشاهد تفيد القبض على القذافي وقتله، عدتُ مسرعا إلى البيت فرأيت البنات يتجمعن أمام التلفزيون، لم أسأل مريم متى عادت من المدينة الجامعية في هذا اليوم المشهود يوم الخميس ٢٠ أكتوبر فقد انضمت إليهن أتابع الصور الملتقطة في سرعة للقذافي الجريح ثم صور قتله ونقله إلى مكان آخر، صعدت لأعلى وأنا أتعجب من نهاية هذا الحاكم الذي حكم بلاده أكثر من أربعين سنة ونسمع عنه كل أصناف الظلم التي يعامل بها شعبه، يقبضون عليه في إحدى مواسير الصرف كالجرذان تلك الكلمة

الخبیثة التي وصف بها شباب بلده في إحدى الخطب ثم يُقتل وتحمل جثته في إهانة إلى مثواها الأخير لتوارىها الرمال التي ارتوت طوال مدة حكمه بدماء الأبرياء من شعبه ..

• • •

عادت مريم ذات إجازة وهي مكتئبة وعندما سألها أخبرني أن البلطجية قاموا بحرق المجمع العلمي بالقاهرة، قرأت في عيني استفسارا فأجابت بأن المجمع أنشأه نابليون بونابرت أثناء الحملة الفرنسية على مصر وهو يضم آلاف المخطوطات والخرائط والنسخ الأصلية لكثير من الكتب الهامة في تاريخ مصر وجغرافيتها، شعرت أمام ابنتي أنني أعاني من نقص شديد في معلوماتي عن بلدنا العظيمة التي نعيش فيها فطوال السنوات الماضية سجت نفسي في قراءة الروايات ومشاهدة الأفلام والمسرحيات القديمة وأنا أظن أنني أصبحت مثقفا إلا أنني وجدت نفسي جاهلا أمام حادث تراه ابنتي مفجعا بكل المقاييس وتدعو الله أن يحمي بلدنا من البلطجية الذين لا يراعون حرمة لبلدهم المفترض أنهم يعيشون على خيراتها فأيقنت أننا نعيش أياما أسود من قرن الخروب على حد تعبير خالتي رزقین ..

شهور تمر ونفاجأ بخضوع الرئيس نفسه مع أبنائه للمحاكمة، تكررت تلك الجلسات التي يعقبها مظاهرات وتجمعات في الميادين الكثيرة في أرجاء مصر ..

يتحدد موعد لانتخابات مجلس الشعب وتكون أسيوط من محافظات المرحلة الأولى، أشعر بالبلد في حالة من التوحش لهذه الانتخابات، الجميع

يريد أن يثبت وجوده على الساحة الجديدة، تستقبل أذني كلمات ومصطلحات لم أكن أسمعها من قبل، فلول النظام القديم، جماعات دينية، التيار الليبرالي، الإسلام السياسي .

كعادي عندما تتزاحم الأفكار في رأسي أهرب منها بتجاهلها التام وكأني لا أسمعها، ألزم بالعودة خلف مكتبي أقرأ الروايات وأستمع إلى تعليقات بناتي على الأحداث وأنا أبتسم لاهتمام كل واحدة منهن فمريم لا يفوتها خبر من أخبار البلد منذ ثورة يناير وضحي تشاركها بعض الآراء أحيانا لكنها تهتم بنفسها وبأمها أكثر أما رحمة فلا هم لها إلا مساعدة جدتها في الجلوس بالدكان وهذا لمصلحتها الشخصية من تناول الملبن والنوجة وغيرها من حلويات ..

• • •

أتمدد على السرير وبجوارتي رواية جبال الكحل لكاتب نوبي اسمه يحيي مختار، انخرطت في قراءة الرواية التي يحكي بطلها هجرة أهالي النوبة قبيل اكتمال بناء السد العالي، أعجب بدقة وصف الكاتب لمشاهد قريته القديمة وأيقنت أن كل ما كتبه مصدره ما حفظته ذاكرته من أحداث عاشها لحظة بلحظة، اقتربت من نهاية الرواية وأنا مشدود لها وفي قرارة نفسي أسفت أشد الأسف على الوقت الذي انقضى من حياتي بلا قراءة أو كتابة، أنهيت الرواية وأنا مفتون بها، هممت أن أتناول كتابا آخر لكنني فوجئت بعفاف تسرع نحوي برغم شللها لتخبرني أن أمها تتلوّى من الألم ..

هرولت متخطيا السلاليم لأقف قبالة خالتي رزقين التي تمسك جنبها ومريم تمسح رأسها أما أمي فانشغلت بغلي الكراوية، تخبرني ضحي أنها

تشبه في التهاب المصران الأعور، أسرع إلى الموقف فركبت توك توك وعدت به إلى الحارة وأنا أحث السائق الشاب على الإسراع، استطاع التوك توك أن يدخل الشق حتى باب البيت فتحاملت خالتي واتكأت على ذراعي لتتعد داخله، جلست يمينها وعن يسارها جلست ضحى أما أمي وعفاف ومريم ورحمة فلحقن بنا في المستشفى ..

ما كاد الدكتور يفحصها حتى أكد ما شكت فيه ضحى بأنها أعراض التهاب الزائدة الدودية، أعطاها مسكن للألم وأمر بتجهيز غرفة العمليات، أقبلت عفاف متحاملة على عكازيها ومريم وأمي تمسك بيد رحمة، في سرعة نزلت ضحى التي تعرف دهاeliz المستشفى ولم تلبث أن عادت وهي تمسك ورقة التحويل إلى العنبر وبعد أخذ عينات لتحليل الدم والسكر قرر الدكتور إجراء العملية فوراً، دخلت خالتي رزقين غرفة العمليات وسط دموع أمي وعفاف ورحمة أما مريم فقد فتحت المصحف لتقرأ وضحى جلست متقبلة الأمر وتهدي من خوفنا بأنها عملية بسيطة وبخاصة أن جو نوفمبر لا هو بالحر الخائق ولا بالبرد المميت ..

لا أدري كم مرّ من الوقت حتى انفتح باب غرفة العمليات وخرج السرير أبو عجل فانتترت لأقف قبالتها وهي تصدر أصواتا عبثية، أكدت ضحى أنها في طريقها لتسترد وعيها بينما هدأت مريم من بكاء أمها المتسندة على حواف السرير ..

بعد استقرار خالتي في عنبر الحريم أعود أنا وعفاف ومريم إلى البيت لتجهيز الطعام وعندما رجعنا إلى المستشفى أجد ضحى تتولى كل شيء من

تركيب أنبوب الجلو كوز وحقن المضاد الحيوي وبخاصة بعد أن عرفت
الممرضة أن ضحى في السنة النهائية من مدرسة التمريض .

• • •

الإدارة التعليمية يتم اتخاذها مقرا لانتخابات مجلس الشعب، أي أنني لن
أذهب إلى الأرشيف ليومين كاملين، استقبلتني ضحى بترحاب وأخبرتني
أن جرح جدتها رزقين حالته جيدة والدكتور سمح بخروجها غدا ..

استبشرت خيرا وقبلت يد خالتي الطيبة التي لا هم لها في الدنيا سوى
بذل كل ما تقدر عليه في سبيل راحة أمي وعفاف وبناتنا، انتظرت اليوم التالي
الذي جاء خفيفا فقد قلت حدة التوتر في لجان الانتخابات وعادت خالتي
إلى البيت لتجد البنات جهزن لها السرير والطعام وجلسن حولها جميعا في
فرح لوجودها بيننا، انقضى اليوم وفي الليل جلست أمام التلفزيون لأتابع
أخبار الانتخابات التي رأيت من خلال القنوات المتعددة أنها مرت بسلام
لكن لم تكن أبدا هادئة خلال اليومين السابقين ...

• • •

كالعادة منذ سنوات طويلة تكتظ قهوة أبو شنب بالمشاهدين، سعدتُ
لعودة دوري كرة القدم وانشغال الشباب في متابعة المباريات لكن التعليقات
التي تناهت لمسامعي استوقفتني لبرهة، اقتربت من القهوة، اللقطات التي
شاهدتها غير مطمئنة فقرب انتهاء المباراة زادت حدة التوتر وعقب صفارة
الحكم هلعت روعي لهجوم مشجعي المصري البورسعيدي على جماهير
ولاعبي الأهلي دون مبرر فالمصري هو الفائز، مسرعا عدتُ إلى البيت، فتحت

التليفزيون، لا تزال أعمال الشغب مستمرة والمذيع يعلن عن مقتل وإصابة العشرات، تنضم ضحى ومريم إليّ، تتبعان تواتر الأخبار حتى تركتهم في ساعة متأخرة من الليل وانسدت نفسي عن تناول العشاء فنمت وأنا مغموم مما حدث وطفرفي ذاكرتي حماس الشباب قديما لمشاهدت المباريات لكن دون كل هذا العنف، نمت نوما متقطعا حتى أشرقت شمس الصباح فذهبت إلى الإدارة ولا حديث للناس هناك إلا عن أحداث المباراة الدموية حتى انتهى اليوم وعند خروجي من الإدارة قابلت عصام فسلمت عليه فأخبرني أنه في جاء لزيارة واحد من أعمامه، ما إن هممنا في السير بشارع السوق حتى توقفت عربة أماننا ونزل من الميكروباص جاري مقنع ، رحبت به أشد الترحيب لغيابه تلك الفترة الطويلة لكنه أوضح أن ظروف عمله بالقاهرة تضطره إلى الغياب، لكنه سيمكث بأسبوع لفترة طويلة لأنه في طريقه لنقله إلى فرع الشركة التي يعمل بها في أسبوع، سأله عصام عن أحوال القاهرة، يخبرنا أنها في أسوء حال بسبب ما حدث في بورسعيد ..

- مؤامرة، مؤامرة على الشباب وزعزعة الاستقرار في البلد ..

قالها عصام في غضب فأردف مقنع :

- الحل الوحيد هو عودة الأمن للشارع المصري ..

ابتسم عصام في قوة وهو يومئ برأسه رافعا يده السبحة أماننا ويقول في حماسة:

- ومرشحنا سيفوز إن شاء الله ويعيد الأمن والخير للبلد كلها ..

نظرت في وجه عصام غير المحلوق وعقبت :

- مرشحكم ؟

- مرشح الإخوان، سيعدل الميزان في البلد والشعب .. النهضة إرادة شعب ..

- أي رئيس في المرحلة القادمة سيحاول أن يثبت كفاءته ويعدل ميزان البلد ويحقق أهداف الثورة ..

- ليس أي رئيس يا عزيزي، لازم يكون رئيس له شعبيته مثل ..

يقاطع مقنع كلام عصام ويستأذن معللاً رغبته في العودة إلى الشق بإرهاق السفر واشتياقه لأمه، سار ثلاثتنا في شارع السوق حتى فارقنا عصام ودلفت أنا ومقنع الشق، دخل مقنع بيته ووقفت في الدكان جوار رحمة وأنا أشد الأسف على الشباب الذين حصد أرواحهم التعصب الأعمى أو المؤامرة على حد تعبير عصام.

أتساءل ..

لماذا يتهالك الجميع على كرسي العرش ؟ ذلك الكرسي الذي سمعت من الشيخ فتحي ذات يوم أنه تبرأ منه أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : "وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني .."

توحشت الحملات الانتخابية بين مرشحي الرئاسة والجميع لا حديث لهم سوى مزايا وعيوب كل مرشح، ازداد في كل مكان شد وجذب الناس حتى وأنا أجلس في عيادة التأمين الصحي لأكشف على جنبي الذي أشعر بألمه منذ فترة تعارك أحد المرضى مع موظف بالتأمين بعد اختلافهم على أحد المرشحين فضحكت وشاركتني ابنتي ضحى التعليق، جاء دوري في الكشف، دخلت على الدكتور الذي يتحدث في تليفونه المحمول بتجهم ثم نظرت لي وهو مكشّر، أخبرته ضحى بموضع ألمي، نهض ساكتا وبإشارة نمت على سرير الكشف، وضع السماعة على جنبي ثم جلس على كرسي مكتبه وهو يكتب شيئاً في ورقة صغيرة فتسلمتها ضحى وهي تهز رأسها ..

فارقنا الغرفة، نزلنا الدور الأرضي لعمل الأشعة، وبعدها صعدنا مرة أخرى للدكتور فوجدناه يتهيأ للانصراف، قلب في الأشعة ثم أشار إلى ضحى بأنه توجد حصوة كبيرة في الكلية اليمنى ويجب استخراجها، مال علي وهو يخفض صوته :

- العيادة في أسبوط تحت أمرك وبها غرفة عمليات مجهزة وأنظف من المستشفى .. المهم صحتك ..

تظاهرت بالموافقة وبعد عودتي إلى البيت قرر الجميع بمن فيهم مريم التي عادت اليوم من الكلية أن أجري العملية في عيادة الدكتور لكني ولأول مرة أصر على أن أجري العملية في المستشفى العام ..

• • •

كل ما تذكرته هو أن الدكتور طلب مني أن أعد من واحد لعشرة ولكني تمتت بأية الكرسي وبعد أن استعدت الوعي وجدتهم حولي، أمي وخالتي رزقين وعفاف وضحى ومريم ورحمة حتى نفيسة أختي قدمت من أبو تيج وبصحبتها ابنتها سعاد وحفيدها كريمة التي ولدت في أسبوع ولادة مريم ..

- حمدا لله على سلامتك يا شقيقي، شد حيلك يا غريب ..

أجيبها في صوت واهن :

- نحمده يا نفيسة ..

أغمض عيني وعند استيقاظي تخبرني أمي أن نفيسة تركت لي مبلغا وهي مشغولة في ترتيب خطوبة كريمة بنت سعاد، هززت رأسي في وهن والألم

يطن في كل جسمي، تأتي الممرضة لتعطيني أدوية المضاد الحيوي وتساعدنا
ضحى في الحقن وإعطائي مسكن الألم، لم يلبث أن يدخل ممرض فألاحظ
ابتسامته الطيبة تزين وجهه الوسيم فيتابع حالتي ثم يخرج بعد أن يعطي
ضحى التعليمات اللازمة لتغيير أنبوب الجلوكوز ومن حين لآخر أسمع
تعليقات كل من بالعنبر من مرضى وزائرين عن الانتخابات وتوقع الفائز
بها أو الإعادة بين اسمين ..

يومان وبدأت أستعيد عافيتي وأجلس على السرير، لم تعد أُمي إلى البيت
أما عفاف فقد رجعت مع خالتي رزقين وضحى التي انقطعت عن عملها
بالوحدة الصحية لأيام، بينما أصرت مريم على القعود معي ثم تعود هي
ورحمة إلى البيت آخر النهار ..

كتب لي الدكتور تصريح الخروج وأنا في طريق العودة لأول مرة ألحظ
البناء المتزايد على الأرض الزراعية حتى أن قطعاً بأكملها تم البناء عليها ولا
أرى سوى الأعمدة والحوائط وأنا الذي كانت عيناى لا ترى آخر للغيطان
الممتدة على جانبي الطريق، حتى الأرض التي كان ينصب فيها مولد الشيخ
حسن اختفت وحل محلها غابة من الأعمدة الخرسانية، ترددت في ذاكرتي
مشاهد جمع لقطع دودة القطن بأرض الأستاذ عزيز وإخوته الفلاحين ثم
جني القطن وكبسه والأكياس الضخمة التي لا حصر لها في الشونة التي
كنت ألعب عليها أنا ومقنع وفرحان ..

أخيراً ..

البيت، بيتي العزيز على قلبي، لا أجد راحتي إلا فيه، فرشت مريم ملاءة نظيفة أما عفاف فقد أتت بطبق المسلوق وأوصتها ضحى بعدم وضع الملح تماماً ورحمة أتت لي بكتاب وهي تظن أنني أريد القراءة فقبلتها ووضعت الكتاب جانبا، احتسيت القليل من الشوربة ومضغت قطعة صغيرة من اللحم، تمددت ولم يمر وقت طويل حتى استيقظت لأرى الترايزة عليها التلفزيون أمامي، رحمة تشغل التلفزيون فور استيقاظي، ابتسمت لها فتخبرني أنها صاحبة الفكرة ...

كل القنوات تستعرض نتائج الانتخابات والاستعداد للإعادة بين اثنين من المرشحين نالا أعلى الأصوات ..

بالليل .. يتجمعن حول السرير، تجتر أمني وخالتي أحاديث تبادلهما مع سيدات تعرفتا عليهن في المستشفى، عفاف كعادتها تجلس ساكنة تدير عينيها المتعبتين بين أمني وأمها، تعطيني ضحى دواء المضاد الحيوي وتصب مريم الماء من زجاجة المياه المعدنية أما رحمة فقد جلست أمام التلفزيون، برغم مروحة السقف والشباكين المفتوحين إلا أن جو الغرفة خانق لكنني في غاية السعادة، أشعر وأنا وسط حريمي الستة اللاتي لا تكف الواحدة منهن عن رعايتي بأني في الجنة، حمدت الله على كل نعمه التي أنعم بها عليّ ..

على إثر مناداة تطل رحمة من الشباك لتخبرني أن عمها عصام بالأسفل، نزلت بسرعة لتفتح له الباب، أتت ضحى بكرسي وحين ألقي عصام التحية عليهن، سلمت عليه أمني وخالتي التي سألت عن صحة أمه، خرجت

عفاف وأمي وخالتي والبنات، جلس قبالي على الكرسي، ركن الكيس الأسود الذي بانت فاكهته، أرى لحيته استطالت أكثر من ذي قبل، يسألني عن صحتي فأجيبه بحمد الله، يأسف لعدم مشاركتي الانتخابات، أبتسم له متهكما :

- يعني صوتي هو الفارق في اختيار رئيس ..

بدا الاهتمام في كلام عصام واقترب مني ..

- طبعاً، صوتك يفرق وإن شاء الله تنزل تنتخب في الإعادة، مرسي رجل متدين و طيب ويعرف ربنا وكل همّه تحسين معيشة الشعب ..

- يعني مرسي متدين والباقي عبدة شيطان ..

يفرد أمامي جريدة الحرية والعدالة التي يصدرها الحزب، الشعار بعرض الجريدة : النهضة إرادة شعب

- في مائة يوم فقط سيتغير وجه مصر ..

قالها عصام في حماسة فhezزت رأسي قائلاً :

- شعارات ما لها أساس من الواقع، التغيير مراحل كبيرة ومائة يوم إن اقتنع الناس بشخصيته وفاز لا تكفي ..

- تكفي وأقل منها يكفي ..

أتعجب من شخصية عصام الذي بدا لي أنه يردد كلاماً يحفظه عن ظهر قلب ولا يفهمه، لم أستم في مهاترتة فوقف مستئذناً؛ يسلم عليّ وهو يؤكد..

- المهم يا غريب .. الإعادة يومي ١٦ / ١٧ من الشهر ولازم تنزل أنت وأمك وخالتك والبنات.

- ربنا يولي الأصلح ..

ينزل عصام وهو يقول : يا ساتر، لم يكد يغيب حتى سمعت صوته في الشارع يسلم على أحد، هذه المرة أخبرني ضحى أن عمها مقنع قادم لزيارتي ..

بدوره يجلس أمامي على الكرسي، يركن كيسه الأسود جوار كيس عصام، أجبت عن سؤاله بأن صحتي في تحسّن ..

- لا تنس يا غريب، إعادة الانتخابات ..

- يومي ١٦ / ١٧ ..

- شفيق سيعيد لنا كرامتنا ..

- شفيق ؟ وزير مبارك الأخير، يقولون أنه من الفلول ..

- لا فلول ولا غيره، رجل خبرة وقوي وسيعيد الأمن للشارع المصري من جديد بعد توحش البلطجية ونهبهم لكل شيء في البلد ..

- ربنا يولي الأصلح ..

يستأذن مقنع على وعد بزيارته مرة أخرى وتصحبه رحمة إلى الخارج ..

أتمدد، أرفع رأسي إلى سماء الغرفة الواطئ، المروحة تدور وتدور مثل أيام الحياة التي نعيشها، الغرفة خالية، أشعر بقشعريرة تتملك جسدي، أفتح عيني، شيء يتسحب من أسفل قدمي إلى أعلى، يجثم على كل جسدي الواهن، يهزني .. تمنيت أن يدخل أحد ليفيقني مما أنا فيه، ذلك الكائن يزورني

اليوم وأنا على حالتي من الضعف، أستسلم له وكأنني اشتقت لقاءه، نفس الشعور يتملكني بأن لي حياة أخرى غير تلك العادية التي أعيشها وسط حريمي، يستطيل وقت بقائه معي حتى تمنيت مرة أخرى أن يأتيني أحد، ارتفعت نغمات المحمول فأشعر به ينسحب من كل خلايا جسمي ويهرب، بأنامل مرتبكة أرفع الموبايل لأرى الرقم، إنه رقم الأستاذ: أيمن ..

أضغط على الزر فيأتيني صوته السائل عن صحتي، يخبرني أنه في الطريق لزيارتي، أرحّب به، ينهي المكالمة وأود أن أنزل لأفرش له الأرض رملا، تمنيت أن تكنس إحدى البنات الغرفة وترش بلاطها وتنظف الحصير المفروش على الأرض وترتب المكتب .. صوته المنادى جعلني أبقي كل شيء في مكانه، أناادي رحمة التي استجابت على الفور ونزلت لتصحب الأستاذ أيمن لأعلى، دخل الغرفة .. سلم عليّ .. جلس على الكرسي المقابل للسريـر، لم يأتني بكيس أسود كالمركونين جوار المنضدة وإنما زارني بوجهه البشوش وابتسامته العذبة وهو يخبرني أنه سأل عني في الإدارة فأخبروه بأمر العملية، دخلت مريم الغرفة وهي تحمل كوب الليمون، تضعه أمامه .. تجلس على حافة السريـر وتباغت الأستاذ الصامت ..

- من تختاره في انتخابات الإعادة ؟

- والله يا آنسة ربنا يولي الأصلح ..

على إثر صوت ضحى تنصرف مريم ولم يبق الأستاذ أيمن فنهض بدوره مستأذنا ولكنه مديده لي بمظروف أصفر، أخرج منه كتابا .. قدمه لي فقرأت العنوان ..

- شرقة الجسد - رواية -

يجيب على عيني المستفهمتين بأنها نشرت ضمن مشروع النشر الإقليمي بالهيئة العامة لقصور الثقافة ويزيد عن ذلك أنه يخبرني بأنني أنا أيضا يمكن أن أنشر تبع قصور الثقافة إن كانت لدي رواية أو مجموعة قصصية جاهزة، سألته إن كانت هي الرواية التي بدأ كتابتها منذ أن كان في العام الأول من الكلية فأجاب بالنفي وأوضح أن الرواية التي بدأ يكتبها لم تنته منذ ذلك الحين، شكرته على هديته الغالية، حاولت النهوض لأصطحبه إلى السلم لكنه رفض، قادته رحمة إلى الخارج، قلبت في الكتاب، منذ زمن لم أقرأ كتابا، ها هي الفرصة التي أتت كي أقرأ لواحد من بلدنا، يا ترى ما الذي تحويه الرواية من أحداث ؟

قلب الصفحة الأولى، قرأت الإهداء وشرعت في القراءة ..

• • •

مع آخر سطر قرأته في رواية - شرنقة الجسد - جلست مريم جوارى فتسألني عن رأيي في الرواية فقلت لها :

- رواية جميلة وتصف حياة الشقاء التي عاشها البطل الذي يذكرني بمخيمر السحلية الله يرحمه لكن توجد حكايات جانبيه لا لزوم لها فلو حذفت لن تؤثر على سير الرواية ..

أعجبت مريم برأيي ووصفتني بأني ناقد، ابتسمت لوصفها وعندما جاء الأستاذ لزيارتي مرة أخرى أعدت عليه وجهة نظري فاندعش لها أيها اندعاش وردد نفس كلمة مريم وكعاداته لم تطل زيارته فلم يلبث أن استأذن وانصرف مؤكدا أنه سيزورني مرة أخرى عندما تسمح الفرصة ..

• • •

انتهت انتخابات الإعادة وتم تنصيب الرئيس الجديد، توالى الأخبار بين مؤيد للرئيس ومعارض وتناطحت برامج التلفزيون لإظهار الإيجابيات والسلبيات ولكنني ارتحت نفسيا بسبب قرب استقرار البلاد التي يأمل كل واحد في ذلك ليلتفت إلى أكل العيش ..

عدت إلى الأرشفة فدمعت عيني للملفات، شعرت أنها تستقبلني باشتياق بعد طول إجازتي المرضية، بكفي مسحت عليها وأتعجب، ها هي ملفات موظفي البلد التي يتناحر الجميع ليصبح الرئيس عليها ولم يلبث بدوره أن يصبح له ملف لا يختلف كثيرا عن المقبورين أمامي على العكس فحسابه سيكون عسيرا إذا لم يرع الله في شعبه ..

عادت مريم متأخرة بسبب عدم توفر العربات ووصفت لنا طوابير السيارات أمام محطة البنزين والأزمة التي يعيشها الناس من نقص الوقود، زاد على ذلك الخبر الذي نزل عليّ كالصاعقة التي أتت به خالتي رزقين وهو انتهاء غاز أنبوبة البوتاجاز ويجب تغيير الإنبوبتين وأنا لا أستطيع أن أحمل حتى واحدة وأزاحم الجماهير المكتظة أمام مخزن الأنابيب كما كنت أفعل قديما ..

اتصلت ضحى بأحد التومرجية من الذين يعملون معها في الوحدة الصحية بكم المنصورة، فجاء بأنبوبة ممتلئة وأخذ الفارغة، أعطته ضحى ضعف ثمنها فركبتها أمني في البوتاجاز ..

لم أتبين ملامح عصام وهو مقبلٌ عليّ من بعيد حتى اقترب من الدكان فألقى السلام وجلس، لحيته استطالت أكثر من اللازم لكن الفرحة تطل من

بين شفثيه وهو يبيدي لي نشوة الانتصار لفوز مرشح الإخوان في انتخابات الرئاسة وأن القضاء على الفساد قادم، أخذ يتحدث في موضوعات كثيرة وأنا أهز رأسي حتى سألني عن رأيي فأخبرته بكل صراحة :

- ربنا يولي الأصلح الذي يرعى مصالح الشعب كله

- تولاها الأصلح وانتهى الأمر وتحقق أمر ربنا " ليميز الخبيث من الطيب "

- يا أخي، أمر ربنا في علمه والطيب والخبيث يعلمه وحده ..

وكأنه لم يستمع لكلمة مما قلت فمسح لحيته ونهض منصرفا وهو يؤكد لي أن البلد ستصبح على خير ما دمنا نطبق شرع الله، ورئيسنا اختاره ربنا لذلك..

أتعجب من عبارته الأخيرة؛ فنحن طول عمرنا نطبق شرع الله فتتزوج على سنة الله ورسوله ونصلي ونصوم وكل واحد من جيران الشق يرعى حرمة جاره فننام داخل البيوت في أمان والأبواب مواربة ومن يملك يعطي من لا يملك وتقاسم اللقمة فما الذي يريد عصام أن يطبقه، تنهشني الحيرة من عصام الذي كان لا شأن له بالسياسة وها هو الآن يشعرني أنه واحد من أولي الأمر وكأنه لا يفارق قصر الرئاسة ليل نهار وهو الذي تعلم الصلاة بعد الدبلوم، برغم شعوري أن تروس عقلي صدئة وتوقفت عن التفكير إلا أنها عادت لتدور فأمارس عادتي القديمة و ألقى ما فكرت فيه خلف أذني ..

• • •

تقطع قلبي وأنا أتابع أخبار حادث قطار منفلوط الذي دهس أطفال أتوبيس المدرسة، أضرب كفا بكف للإهمال الذي لا يريد أن ينتهي حتى نفقد أربعين طفلا دفعة واحدة تنهرس أجسادهم وتتكسر عظامهم بين قضبان وعجلات القطار والجميع يتبادلون التهم وطاف بذاكرتي حريق قطار الصعيد قبيل عيد الأضحى في ٢٠٠٢ وأتساءل : لماذا نتناسى الكارثة إلى أن تحدث أخرى ثم نتناساها إلى أن نصاب بكارثة تالية دون أن نفكر في علاج لمشاكلنا، ترحمت على ضحايا القطار من فلذات أكبادنا ورجوت الله أن يلهم أهلهم الصبر على تحمّل تلك الفاجعة ..

أدمنت الجلوس ساكتا في الأرشيف حتى قطع صمتي ذلك الوجه الذي أطلّ عليّ ملقيا تحية الصباح، لأول وهلة شعرت أني رأيته ولكن أين لا أتذكر، حسبت أنه يريدني لاستخراج أحد الملفات لكنه يذكرني بنفسه بأنه الممرض الذي تولى علاجي بمستشفى المبرة فسلمت عليه في حرارة ودعوته للجلوس، في خجل يعرفني الشاب باسمه وعائلته التي تسكن إحدى نواحي أبنوب البعيدة وأنه يطلب يد ابنتي ضحى .

سكتُ لحظات ولم ينطق أحمد حتى أخبرته بأن يعطيني فرصة للسؤال عنه وبعدها سيكون الخير بإذن الله .. يتسم الشاب فتزداد وسامته وينهض مستأذنا فودعته حتى باب الإدارة، انصرف ولم أضيع الفرصة واتجهت مباشرة نحو القهوة بحثا عن العم خلف الذي يعرف كل الناس وعلى رأي المثل : له في كل خرابة عفريت، رأيته يسحب أنفاسه في تلذذ، ألقيت عليه السلام فاستقبلني بترحاب، قبل أن أتكلم تقلص وجهه في جهامة وألم ولم

يلبث أن أخرج من جيبه قرصا فابتلعه وشرب الماء في سرعة وهو يتصنّع
الابتسام، تخرج كلماته من بين أسنانه الصفراء في ببطء :

- الترامادول فيه سر خطير، يخفف الألم على طول ..

- لكنه ضار يا عم خلف ..

- لا ضار ولا حاجة .

تعمدت عدم التماذي في الجدال مع خلف ورأسه الناشفة، سألته عن
أحمد وأعطيته الاسم كاملا فزرّ عينيه في اهتمام وطال سكوته حتى ظننت أنه
نسي ما تحدثت فيه لكنه يفاجئني بكلمة : مبروك ..

- مبروك ؟!؟ أنا ...

- تسألني عن ممرض وبتتك ممرضة، أكيد طالب القرب منك ..

لا أخفي إعجابي بفراصة الرجل الذي تظنه مخبولا من فرط ما يدخن وما
يضعه على حجر النار من حشيش، سحب نفسا ثم شرع في الكلام بأصل أحمد
الطيب وأن أباه - الله يرحمه - كان عاملا في مجلس المدينة لكنه كافح وعلم
أحمد وأخته المتزوجة بعيدا وأنهم أسرة سرّها هادئ وأم أحمد صاحبة واجب
وطيبة .. شكرت عم خلف، ودعته وهو يقول : ربنا يتمم على خير ..

عدتُ إلى البيت وفي الليل بعد العشاء جلست أمامي عفاف وأمي
وخالتي فأخبرتهن بأمر الشاب فتذكرته خالتي رزقين وأكدت أمي أن أحمد
طوال إقامتي بالمستشفى كانت عينه على ضحى أما عفاف فاتبعت ابتسامتها
وشعرتُ بفرحها لابنتها التي ستصبح عروسا عن قريب ولأني واثق من

تربية بناقي وضحى بالذات لا تقبل أنصاف حلول فإني على يقين أن أحمد قد فتح معها موضوع التقدم لها فوافقت في قرارة نفسها لكنها طلبت منه أن يقابلني وهذا ما حدث والآن علينا أن نضع النقط فوق الحروف كي نفصل في هذا الموضوع فأكدت خالتي رأيها بقولها : ربنا يتمم بخير ووافقت أمي أما عفاف فقد أبدت استعدادها لتمثيل دور أم العروسة بقي رأي مريم وقد وافقت لكن بعد أن أكدت لها حسن سيرة أسرة أحمد، بعدها فاتحت ضحى في الموضوع فلاذت بالسكوت في حياء، ضحكت جدتها رزقين وهي تهز رأسها :

- السكوت علامة الرضا ..

لم يصدق أحمد نفسه حين أخبرته بالموافقة فحددت معه نهاية الأسبوع لزيارة أمه وأخته ليتتي فقبل يدي وغادر الأرشيف وأنا متفائل من هذا الشاب الطموح الذي يسعى لتكوين بيت له معتمدا على نفسه فقط .

• • •

ما زلت أتذكر أحداث ليلة خطوبة ضحى التي مرت بسلام برغم الجو الخانق من يونيو، كانت ليلة هادئة لم يحضرها سوى أحمد وأمّه وأخته وجاءت أختي نفيسة من أبو تيج وغادرت في نفس الليلة وهي تؤكد علينا حضور عقد قران ليلي بنت ابنتها سعاد يوم ٢٥ من الشهر، أه كبرت أختي وستزوج حفيدتها .. لا .. لم تكبر فقد عرفت من أمي أنها تزوجت وهي في السابعة عشرة من عمرها وابنتها سعاد تكبرني وتزوجت صغيرة هي الأخرى، ليلي في مثل سن مريم، الله على الزمن الدوّار وأيامه كيف الرحي، تطحن حياة

الإنسان واحدة واحدة حتى لا يبقى منه إلا ذكرى في نفوس أهله أو أوراق بين دفتي ملف من ملفات الأرشفة لا يؤنسها إلا التراب المتراكم عليه ..

تمددت على السرير ومن حين لآخر يتناهى لمسامعي أصوات حريمي وهن يعدن ترتيب البيت ولا تزال الصغيرة رحمة تغني وترقص، عيناى مثبتتان نحو عروق السقف، خفتت الأصوات، أغمضت عيني لأنام فلم أشعر بشيء سوى ذلك الكائن الذي هبط عليّ من أعلى يملك جسمي، يتخلل مسامي، يهزني فلا أستطيع الفكك منه، فتحت عيني لكنني عجزت عن الرؤية، أردت الصراخ فانعقد لساني، يراودني صغير في أذني وصوت يقول لي : هذه ليست حياتك، يوجد شيء لم تفعله ويجب أن تفعله .. هممت أن أسأله عن هذا المجهول لكنه انسحب في هدوء وغادر، لويت عنقي فرأيت عفاف المستلقية جواري وأنفها كالعادة يعزف موسيقى النوم الثقيل ..

• • •

بعد العشاء، الكثير من الناس اتجهوا غرب البلد لحضور سهرة يقيمها واحد من كبار عائلات البلد وسيحييها الشيخ ياسين التهامي، اعتذرت لعم خلف الذي شجعني على مرافقته لتلك السهرة التي تضمن له تدخين الشيعة وما يوضع على أحجارها من خيرات أخرى تجود بها مثل تلك الليالي ..

عدت إلى الشق وأنا أعلم أنني سأمضي سهرتي مع رفاق آخرين، فالليلة ذكرى وفاة واحد من أبناء علي الجمال، أقترّب من بيت عم علي المفتوح بابه على مصراعية، يجلس أهل الشق متجاورين على كنب المنطرة الكبيرة، يفسح لي مقنع مكانا جواره فتمسح عيناى وجوه جيراني، سيد الجزار وابنه مسعود

يجاوره المزين حربي وكريم بن شوقي السماك ثم دخل عم فنجري يتوكأ على عقصة عكازه ولم يلبث أن دخل الشيخ يوسف يتأبط ذراع الشيخ منصور، يرحب به عم علي ويجلسه في الوسط، يخلع الشيخ الضرير نعله ويصلي على النبي ثم ييسمل ويشرع في قراءة ربع قرآن وما إن ينهي الشيخ يوسف حتى تعلو أصوات الاستحسان ومن بعيد يتناهى صوت الأعيرة النارية ثم تتذبذب أصوات إنشاد الشيخ ياسين، تدور صينية الشاي فيتناول الجميع الأكواب، بعد الربع الثاني تطرب أذني لطريقة الشيخ حتى تمنيت ألا يشغله أحد عن التلاوة لكن ما إن أنهى الربع الثالث حتى مُدَّت الطبلية الكبيرة ومن صينية نحاس وضعت صحون وأطباق الأرز والخضراوات واللحم، جلسنا متحلقين حولها وقام صديق بن علي بتوزيع اللحم على ضيوفه واستوصى خيرا بالشيخين، أثناء تناولنا للطعام يباغت مسعود الجزار بسؤال الشيخ منصور :

- رأيك يا شيخ منصور في ليالي الشيخ ياسين ؟
- الشيخ ياسين أكبر ماح للنبى صلوات الله وسلامه عليه في عصرنا والغلط ليس فيه إنما يفعله الناس من تدخين وخلافه ..
- غرضك تقول أن كلامه ..
- كله قصائد لعمر بن الفارض وغيره من أقطاب الصوفية في مدح سيد المرسلين ..
- صلى الله عليه وسلم ..

انتهيت من تناول الطعام تبعني مقنع، نهضنا فيقودنا صديق إلى الحنفية
قرب الحوش، بعد غسل أيدينا أقف جوار عم علي أمام الحوش فألمح الدموع
تسيل على خده..

- وَّحَدَ اللهُ يَا عَمَّ عَلِي، اللهُ يَرْحَمُ الْمَدْفُونِ بَعِيدٍ وَيَرْحَمُ الْمَدْفُونِ قَرِيبٍ ..
يربت سيد الجزار على كتف جاره الحزين وهو يقول مشجعا :
- ربنا يبارك في صديق وتفرح بأولاد أولاده ..

يهز الرجل العجوز رأسه ويطيل النظر نحو قبر جملة المدفون في الحوش
ثم يستدير عائدا إلى المنطرة بعد أن يكون صديق ابنه قد أنهى جمع الأطباق
ورفع الطبلية من مكانها ..

- غرضنا نسمع أناشيد كيف الشيخ ياسين يا شيخ يوسف ..
قالها مسعود وهو يرجو وانتظر هنيهة رد الشيخ يوسف الذي حرَّك رأسه
كعادة فاقد البصر ومد وجهه للأمام وقال :

- حاضر يا سيدي، غالي والطلب رخيص .. لكن بعد ربع القرآن ..
ينهي الشيخ يوسف ربع القرآن وبعده ينهي على كوب الينسون الساخن
وتهيات لأستمع إلى واحدة من التواشيح التي تتردد قبيل الفجر على، تنحنح
الشيخ يوسف فاردا كفه على صدغه وهو ينشد :

غفرانك اللهم جَلَّ عَلاكَ

لطفا بعبدك خالقي رحماك

يا كاشف البلوى

أتيتك راجيا؛ أرجو رضاك ..

فليس لي إلّاك ..

إن كان حظي في الحياة قليلوها

فالصبر يا مولايا

فيه رضاك

ما حيلتي والعجزُ غاية قوتي

فإذا قضيت فمن يرد قضاك

ما إن أنهى الشيخ يوسف إنشاده حتى انبهرت بطريقة أدائه والكلمات التي نفذت بقوة داخل قلبي، كذلك أعجب الحاضرون وطالبوا بإعادة المقاطع فأعاد الشيخ إنشاده وأنا في غاية الطرب له حتى أنهى المقطوعة الأخيرة وصلى وسلم على نبينا الكريم وتحسست قدماه نعله معلنا انتهاء الليلة ..

- من تأليفك يا شيخ يوسف ..

باغته مقنع بالسؤال، فهز الشيخ رأسه إشارة النفي وأوضح بطريقته التي يتحدث بها في فصاحة :

- لا، فأنا منشّد فقط، القصيدة لا علم لي بمؤلفها لكنني سمعتها من الشيخ وحيد أبو الحسن الشرقاوي ..

يصمت الشيخ يوسف ويستسلم لقيادة الشيخ منصور، يغادران المطرح وأترك عم علي مع لفيف من أهل الشق ليكملوا معه بقية السهرة ..

بعد وداع مقنع أعود إلى البيت ولا يزال إنشاد الشيخ يوسف يرن في أذني
فأكرر مقاطعه وطريقته في الإلقاء حتى حفظتها عن ظهر قلب، أتأمل كلمات
التوشيح فأقتنع بكل كلمة بها فإن كان فعلا حظي في الحياة قليلوها فالصبر
على قسمتي ونصيبي فيه رضا الله عز وجل، تردد في ذاكرتي ما تقوله دائما
خالتي رزقين : رزقكم مقسوم وما يجري عليك غير المكتوب عليك ..

راودني شعور غريب من الاطمئنان الممزوج بالحنان لأهل الشق الذين
تيقنت أني لا أستطيع الحياة بعيدا عنهم، كل واحد منهم يحمل في تلافيف
ذاكرته قصصا وحكايات، لو أني أمسكت قلمي لكتبت روايات وقصصا
عنهم وعن تجاربهم في الحياة وتساءلت في قرارة نفسي : هل أستطيع ؟!؟

عدتُ إلى البيت، وجدتهم مستعدين وأحضر لهم أحمد خطيب ضحى ميكروباص أحد أقاربه فصعدت أُمي وخالتي، تبعتهما مريم ورحمة اللتان استقبلتا أمهما فركبت في الكرسي خلف السائق ليسهل نزولها ثم ركبت ضحى جوارها أحمد وودعتهم باللحاق بهم بعد الغد أي يوم الفرح، غادرت عائلتي البلدة وآخر ما ودعت عيني مريم الراققتين اللتين ترجو ألا أتأخر عليهن، أشعر بقلبي يخفق بشدة والعربة تسرع حتى اختفت عند منحني الطريق فهذه أول مرة تبتعد عائلتي عني جملة واحدة فاستدرتُ عائداً إلى الإدارة التعليمية، فتحت الأرشيف وجلست، أمامي الرواية المترجمة التي أنهيت قراءتها منذ يومين : رواية مذكرات محكوم عليه بالإعدام ليفكتور هوجو، دُهِشت للكاتب الذي استطاع بحنكة أن يجعل ذلك المحكوم عليه بالإعدام يكتب يومياته، مررتُ بعيني فتعجبت من الروايات العربية والمترجمة التي على المكتب، فوق الأرفف، بين الدوسيهات والملفات القديمة، نهضت وجمعتها كلها في كيس كبير مقررا أن أعيدها إلى البيت، أملت رأسي إلى الوراء، أشعر به يقترب مني، استعذبت أن يحتويني، يسمعي كلماته بأن

لي حياة أخرى يجب أن أعيشها لكنه هذه المرة غادر بهدوء وكأنه عرف أنني
وعيت مقصده، يفاجئني عامل الكانتين بيده الممدودة تسحب كوبي الشاي
الفارغين ويبتسم في سخرية :

- الدفتر طلع، ناوي تبات هنا يا غراب أفندي ؟

ابتسمت لمزحته، هزرت رأسي لوجهه الطيب فلم أرد عليه واكتفيت
بنهوضي المتثاقل، أغلقت الأرشيف، وقعت الانصراف وفي شارع السوق
أراهما، عصام بلحيته الطويلة أمامه مقنع، يتحاوران في حدة، ألقىت عليهما
السلام لكنهما استمرا في الجدل، عصام مؤيد لما يفعله رئيس البلاد الذي
يصفه بأنه شرعي جاء عن طريق صناديق الانتخابات الحرة؛ ومقنع معارض
وينتقد الرئيس ويرى أنه لا يصلح للفترة القادمة ويتوعد بما سيحدث في
الثلاثين من هذا الشهر، حاولت أن أتدخل فقط لإنهاء المهادنة والجدال
الذي تطوّر إلى رفع الصوت والسب لكني فشلت فتركتها مفارقا زحمة
شارع السوق .

وأنا عائد حزنت لدكان عم علام البقال الذي صار محلا لأدوات
التنظيف والشامبو وكل أنواع المناديل الورقية أما دكان المكوجي فقد قلبه
أولاده اكسسوار للمحمول، بيت مهاود حوله ابنه المهاجر إلى إيطاليا إلى
عمارة كبيرة يجلس مهاود العجوز أمام مدخلها يدخن السيجارة بعد أن باع
البغل والعربة لكن ما زالت يده تقبض على القمشة حتى كنيسة مارفام فقد
علا سورها وأستبدل بأبها الخشبي العتيق ذو النقوش البارزة الجميلة بأخر

حديدي ودهنت بدهان جديد، أستغرب المطرح فأنعطف إلى الشق، لا يزال
المزين حربي يجلس على مفرش الخيش تجاوره السيجة بأحجارها القديمة،
أمامه يقعي أحد زبائنه ليحلق له ..

كيرلس بن بشاي قام بهد البيت القديم وبني عمارة وفتح بدل محل أبيه
صانع المفارش معرضا كبيرا للأدوات المنزلية، ابتسمت للحصير المصنوع
من البيلاستيك بدل المفارش الصوف ذات الرسوم الجميلة التي كانت تميز
صناعة أبيه المقدس بشاي التي عرفت أنه توارثها من أجداده ..

فتحت الدكان، ركنت كيس الكتب جانبا وقعدت أتسلى باللب والبول
السوداني، أبتسم للصورة التي علقتها بدبوس على أحد الرفوف : أنا في
الوسط بين أمي وخالتي التي تجاور عفاف وأمانا مريم وضحي أما رحمة
الشقية فركبت كتفي، رجل وست ستات .. ابتسمت للجملة التي كتبتها
رحمة أسفل الصورة بخطها البرئ فطفر في ذهني المسلسل التلفزيوني الذي
تعشق ضحي مشاهدة حلقاته، ألزم الصمت ويساعدني هدوء الشق وإغلاق
أبواب بيوته ..

أظل على حالتي من اللا تفكير إلى أن تنهى لمسامعي ارتجاعات صوت
أذان العصر فأغلت الدكان وسرت متوجها إلى جامع السوق، بعد انقضاء
الصلاة قررت أن ألزم البيت وأنام وما إن أقتربت من فتحة الشق إلا وياغتني
صابر فتحي فيخبرني بوجوب حضوري الليلة في ندوة قصر الثقافة، أتعجب
من طلبه فالיום ليس الإثنين موعد الندوة لكنه الأحد فأكد أن الندوة اليوم

وزاد من تأكيده على الحضور ونوّه عن مفاجأة في الندوة، ينصرف صابر وأعود للبيت، أغلق خلفي الباب وأصعد السلم، باب غرفة البنات مفتوح، أهم بغلقه لكنني دخلت الغرفة، سرير رحمة الصغير تتناثر عليه أصابع ألوان الشمع والفلوماستر، أقلب في الكراسي فأبتسم لرسمها التي تصوّر جدتيها في جلستيهما أمام الفرن ودقة وصفها في رسم الأرغفة المنفوخة والمواعين وماجور العجين وكيس تراب الفرن المكون جوار الجدار، فكرتني بحبي القديم للرسم ولا تزال الكراسي القديمة التي بها لوحة لمتحف ملوي شاهدة على ذلك، ألتفت فيطالعني سرير ضحى غير المرتب فطبقت الملاءة الخفيفة أما سرير مريم فملاءته نظيفة، مطبقة، وملابسها على المشجب وفي الدولاب جواره تعلق على الجدار صورتنا الجماعية، أحب عائلتي وحياتي متعلقة بهم كما تتعلق الجذور بالأرض، أطيل النظر إلى الصورة ومن بين شقوق الخوف من المستقبل يتسرّب الأمل في حياة أفضل سأسعى جاهدا لتحقيقها لأسرتي..

أرحت مثنائي، ذهبت إلى غرفتي، فوجئت بملاءة بيضاء على المنضدة تخفي شيئا وما إن سحبتها إلا ويطالعني طبق الأرز عليه ورك الفرخة .. هذه هي عفاف، لا يهتمها إلا أن توفر لي الطعام حتى لو لم تكن موجودة وأتوقع ما سأراه في الثلاثية من أطباق تكفيني ليومين على الأقل إلى أن ألحق بهم يوم الثلاثاء لحضور الفرح .. أكلت في شهية، بعد الانتهاء تمددت على السرير وأنا أتوقعه يأتيني ويتغلغل كعادته في جسمي حتى أستفيق لكنه لم

يأت ولم أشعر بالوقت إلا عند آذان المغرب فنهضتُ من فوري مغلقاً مروحة السقف، برغم حرارة آخر النهار إلا أن حمّام الماء الفاتر أفاقني تماماً وطرّد بقية رغبة في النوم، ارتديتُ ملابسي، مشطت شعري ابتسمت للشعيرات البيضاء المتناثرة بين السواد، التفت لصوت ماكينة خياطة أم وجيه خلف الباب الموارب، غادرت الشق، في الطريق إلى بيت الثقافة أشاهد الناس وهم يستعدون لسهر الليل على المقاهي وعلى أعتاب البيوت وأمام التلفزيون، أبتسم لايقاع الحياة الرتيب وأتساءل كيف يرضى البشر عن حياة ليس بها تغيير، بل أن أكثرهم ضد هذا التغيير فنوعاً بما يبيت فيه ويصبح فيه، لا يهمه من الحياة إلا ما اعتاد عليه ولا يرى قيمة لأي تغيير، أهم شيء في حياته راحة البال والصحة ودون ذلك كله على الله حتى أنهم اعتادوا الموت فهو بالنسبة لهم راحة من الحياة .

يطالعي خواء المطرح إلا من موظفين يستقبلني أحدهما باصطناع الترحيب لكنني سلمت على صابر داخل المكتبة وأكد أنهم جميعاً سيحضرون والمفاجأة التي ينتظرها معي لن يفصح عنها وإلا لن تكون مفاجأة.

ينقضي الوقت بطيئاً ونحن نتحدث ثم ينضم إلينا الشيخ فتحي ويقبل رواد القصر تباعاً إلى أن دخل المكتبة خمسة عشر رجلاً دفعة واحدة، لم ألحظ الأكياس التي معهم إلا بعد أن ركنوها على منضدة منزوية بالمكتبة، بدأت الندوة وسعدت لوجود الأستاذ أيمن في المنتصف، قرأ البعض أشعاراً بالعامية والفصحى ثم طلبوا من الأستاذ أن يقرأ قصة ففتح أحد كتبه وقرأ

قصة أعجبتني لصدقها كان عنوانها (التوصليلة) عن عجوز ينحشر داخل أتوبيس وطوال الوقت يشكو من حاله وعند نزوله يقع على الأرض فيحاول البعض إفاقته بينما يواصل الأتوبيس ابتعاده ..

فور انتهاء الأستاذ أيمن من قراءة القصة صفقت مع الحاضرين مبديا إعجابي، تهدأ القاعة الصغيرة ويبدأ مقدّم الندوة في مراسم أخرى غير تقديم الأدباء بأن اليوم عيد ميلاد الأستاذ أيمن ويترك له الكلمة، مرة أخرى صفقنا فأطرق الأستاذ رأسه ثم رفعها متحدثا :

- اليوم ٢٣ / ٦ / ٢٠١٣م أكملت عامي الأربعين ومعه أتممت عشرة أعمال ما بين القصة والرواية والمسرحية فأشكر لكم فكرة الاحتفال بعيد ميلادي في نفس المكان الذي أحبه منذ الصغر .. المكتبة ، بين الكتب التي أعشقها فأنا أولد كل يوم معها ..

علا تصفيق الحاضرين وبدأ صابر مع آخرين بتوزيع أطباق الكارتون وقطع الجاتوة بها مع زجاجة فانتا أو كوكاكولا كبيرة، أثناء تناولنا الحلوى أخذ كل منهم يتحدث عن سابق معرفته مع الأستاذ أيمن أو تجربته القديمة في التأليف إلى أن انتهى الحفل الصغير بدعوة الجميع لحضور ندوة الأربعاء بنادي القصة بقصر ثقافة أحمد بهاء الدين بأسسوط فتشجعت للخبر وسألت صابر عنه فأوضح لي أنه يوجد نادي متخصص للقصة بقصر ثقافة أحمد بهاء الدين جوار نادي المهندسين، خفق قلبي وقررت الانضمام إلى أسرة نادي القصة فعرفني صابر على أحدهم فَرَّحَ بي ودعاني لحضور ندوة الأربعاء وتجهيز قصة لقراءتها على سبيل التعارف ..

غادر الجمع قصر الثقافة والضيوف من أسبوط اتجهوا لموقف السيارات
أما أنا وصابر والشيخ فتحي فقد اتجهنا إلى شارع السوق وأمام شارع
مدرسة التجارة استأذن الشيخ فتحي وبقيت أنا وصابر نتناول أحداث
الليلة إلى أن استأذن هو الآخر وما إن أقرب من فم الشق حتى يستوقفني
أحد الشحاذين وهو يمد يده فسحبت جنيها ووضعت في راحته العجفاء
فضم أصابعه في قوة وهو يدعو لي بطول العمر وطفق يكرر الدعاء وأدعية
أخرى عجزت من لعنتمته أن أتبين معظمها حتى ابتعد، توقفت للدعاء
الذي رن في أذني بأن أعيش عمرا فوق عمري فابتسمت له ومضيت فلا
أحد سيعيش عمرا فوق عمره فأني إنسان سيعيش عمره الذي قدره الله
له ولكنني تفاءلت للدعاء وتخيلت أن الله مد لي عمرا فوق عمري عندها
دهشت لأنني لا أعلم عمري ومنذ استخراج بطاقة الرقم القومي وهي في
جرابها لم أفكر في التدقيق فيها..

جلست على دكة مركونة جوار جدار بيت عم بشاي، أخرجت محفظتي
الرثة وفي بطء سحبت البطاقة من جرابها البيلاستيكي، شرعت في القراءة
بصوت عال وكأني أتعرف عليه لأول مرة وعندما وقعت عينا على تاريخ
الميلاد انترت من قعدتي للتاريخ الذي أتفاجأ به لأول مرة في حياتي، أردد :
٢٣ / ٦ / ٧٣ ..

إنه اليوم، نعم اليوم الذي احتفلنا فيه منذ ساعة بعيد ميلاد الأستاذ :
أيمن، إنه يوم ميلادي أيضا، يا لها من مصادفة غريبة وعجيبة أن يُحتفل بعيد

ميلاد إنسان أحبه وأحترمه يوم ميلادي بل وهو الذي قدّم لي طبق الحلوى
بابتسامته الطيبة وكأنه يحتفل بعيد ميلادي أنا .

مرة أخرى أتكوّم متهالكا على الدكة التي تعلن اعتراضها بأزيز مكتوم،
ألوي عنقي ناحية الشق، من بعيد يتراءى لي المصباح المنير أعلى باب الدكان
المغلق جواره باب البيت، في الناحية الأخرى من الشارع أتأمل بيت الأستاذ
رمزي وكالطيف مرت حياتي بين باب بيتي البعيد وبيت ماري القريب، كلا
الباين مغلقٌ على ذكريات دفيئة تنتظر أن أبوح بها، انثالت دمعة حارة على
خدي وبللت ملوحتها شفتي، أربعون عاما مرت بين ماري الحلم الهارب
مني دائما وعفاف الحقيقة الملاصقة لي .

توقف تفكري عند هذا الحد حتى اهتزّ لصدى كلمة الأستاذ أيمن الذي
أعلن فيها عن عشرة كتب من تأليفه واحتفاله الحقيقي بعيد ميلاده سيكون
بين الكتب التي يشعر أنه يولد معها كل يوم من جديد، أعجب بوجهة نظره
وفي نفس الوقت أحترمها، نهضتُ مقررا العودة إلى البيت لأجهز لاحتفالي
الخاص بعيد ميلادي.

• • •

قرب انقضاء يومي الثاني من الكتابة المتواصلة أشعر أن انتهاءها وشيك،
أدهش من عشرات وعشرات الصفحات التي ملأتها بكل هذه الأخبار من
عدة أقلام أمست فارغة لكنني لن أستغني عن أي منها بل أعترف بجميل
مرافقتها لي في رحلة الكتابة، أفتخرُ بكل موقف من تلك الأحداث التي

استطعت أن أدونها وجعلت منها احتفالاً بعيد ميلادي الخاص بي، ومع ذلك أشعر أنه توجد ذكريات أخرى تختبئ في تلايف ذاكرتي التي استبحت أسرارها طوال الساعات الفائتة، أرفع النظارة المقرّبة فأرى ماري تجلس أمام النافذة، أخفض عيني فتصطدم بملابس عفاف الملقاة على السرير، أرسل نظراتي إلى مكتبتي الصغيرة فتقع عيناى على كتي، تلك الكتب التي تضم بين دفتيها أسرار الكون، أحلق في هاتفي المحمول فأرى رسالة وصلتني، أقرأها وقلبي يتراقص فرحة :

كل سنة وأنت طيب يا غريب يا طيب

الرسالة من مريم التي لا أعتبرها ابنتي فقط بل صديقتي التي أودع بها أسراري وأمي الحانية وأختي العطوف، وحدها التي تذكرت عيد ميلادي وأرسلت لي رسالة ..

• • •

بعد كل هذه الكتابة أشعر أنني أتممت مراسم الاحتفال الخاص بعيد ميلادي وأيضاً أسمع همسات ذلك الكائن في جنبات الغرفة وهو يودعني إلى غير رجعة مباركا احتفائي بحياتي الماضية، أيقنت بعد أن بدأت بنفسى أنني أستطيع أن أكتب عن الآخرين، كل واحد في الشق يمكن أن يصبح موضوعاً لرواية كبيرة، مخيم السحلية نفسه سأكتب عن حياته فيما بعد رواية كاملة ..

لا أدري كيف سأمضي يومي التالي؛ أأكون في القراءة والكتابة أم بتأمل
ماري الجلالة أمام نافذتها البعيدة أم بالسفر إلى عائلتي لأشاركهم حياتهم
الرتيبة، الهام في تلك اللحظة أنني حققتُ ما كنت أريده وانتهيت من كتابة ما
مرّ بي من ذكريات، أما غدا فإن قدر الله لي أن أعيش، لا أدري كيف سأمضيه
بعد أن انقضى من حياتي أربعون عاما ويوم .

نمت

الأحد ٢٣/٦/٢٠١٣م

الاثنين ٢٤/٦/٢٠١٣م

سيرة ذاتية



أيمن رجب طاهر.

قاص وروائي.

مواليد أنوب بأسيوط ٢٣/٦/١٩٧٣ م.

عضو اتحاد كتاب مصر.

عضو نادي أدب أسيوط.

عضو نادي القصة بأسيوط.

العنوان :

محافظة أسيوط/ مركز أنوب/ ١٥ تقسيم غزالي بجوار مسجد أحمد البدوي.

رقم الهاتف : ٠١٠٠٨٧٤٩٩٧٩

البريد الإلكتروني: ayman_rt73@yahoo.com

الأعمال الصادرة :

التابوت (قصص) ٢٠٠٥ م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط .

مدونة الأساطير (قصص) ٢٠٠٧ م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط .

موت برئ (رواية) ٢٠٠٧ م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط .

شرقة الجسد (رواية) ٢٠١١ م عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

وفي .. حكيم الحروب (رواية) ٢٠١١ م روايات الهلال .

من أنتم ؟ (قصص) ٢٠١٣ م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط .

القحط (رواية) ٢٠١٣م عن دار الأدهم للنشر .
إبور .. ناصح الفرعون (رواية) ٢٠١٣م روايات الهلال .
بيت الحكمة (مسرحية) ٢٠١٣م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط .
بنتاور .. الساقى الأمين ٢٠١٤م (رواية) روايات الهلال .
كتاب الموتى ٢٠١٥م (نصوص) دار الإسلام للطباعة والنشر .
جوائز وتكريمات :

جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في أدب الطفل ٢٠٠٩م .
جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في الرواية ٢٠١٠م .
جائزة أخبار الأدب ومؤسسة المصري في القصة القصيرة ٢٠١١م .
جائزة القصير للإبداع الأدبي في القصة القصيرة ٢٠١١ .
جائزة تحكيم مسابقة أحمد بهاء الدين في الشعر والقصة ٢٠١٢م .
درع نادي القصة بأسيوط لعام ٢٠١٢م .
إطلاق اسم (أيمن رجب طاهر) على دورة مؤتمر نادي القصة بأسيوط
٢٠١٤م .

المؤتمرات :

المشاركة في :

مؤتمر أدباء مصر بالقاهرة ٢٠١٠م .
مؤتمر الكلمة نغم الأدبي بالقاهرة ٢٠١١م .
مؤتمر مئوية نجيب محفوظ بالأقصر ٢٠١٢م .
ملتقى الصعيد الثقافى الأول في أسيوط ٢٠١٢م .

المؤتمر الأول لنادي القصة بأسيوط ٢٠١٣ م.

المؤتمر الثاني لنادي القصة بأسيوط ٢٠١٤ م.

مؤتمر إقليم وسط الصعيد الأدبي بأسيوط ٢٠١٤ م.

ملتقى الصعيد الثقافي الثاني بأسيوط ٢٠١٤ م.

المؤتمر الثالث لنادي القصة بأسيوط ٢٠١٤ م.

مؤتمر أدباء مصر بأسيوط ٢٠١٤ م.

المؤتمر الرابع لنادي القصة ٢٠١٥ م.

نشرت قصصه في مجلات منها :

جريدة أخبار الأدب/ مجلة الثقافة الجديدة/ جريدة السفير/ مجلة المحيط

الثقافي/ مجلة نزوى العمانية/ مجلة اللقاء/ جريدة أخبار أسيوط.

نقدي ودراسات عن الأعمال :

تناول أعمال الكاتب الكثير من النقاد بالدراسات النقدية منهم :

أ: عبد الحافظ بخيت متولي/ أ: زكريا عبد الغني/ د: ثروت عكاشة السنوسي/

أ: أشرف عكاشة/ د: محمود فرغلي/ د: أشرف عبد الودود/ أ: أحمد مصطفى علي/

أ: مصطفى البلكي أ: محمود عرفات/ أ: محمد صالح البحر/ أ: أشرف الخمايسي/

د: أحمد الصغير.

رؤى نقدية ودراسات منشورة :

١ - (الفقراء يخسرون مرتين قراءة في رواية شرقة الجسد) للأستاذ الناقد / عبد

الحافظ بخيت متولي نشرت بجريدة أخبار الأدب عدد ٩٨٧ يوليو ٢٠١٢.

٢ - (هندسة البناء رؤية في قصة وجه مبتسم) للأستاذ / قاسم مسعد عليوة

نشرت بمجلة الثقافة الجديدة باب القادمون عدد ٢٦١ يوليو ٢٠١٢.

- ٣ - (سيمياء الرمز في مجموعة من أنتم ؟) للدكتور الناقد / أحمد الصغير نشرت بكتاب المؤتمر العام لأدباء مصر الدورة ٢٩ ديسمبر ٢٠١٤ .
- ٤ - (الآخر في الإبداع رواية القحط نموذجاً) للباحث الأستاذ / أحمد مصطفى على نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الخامس عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي بالوادي الجديد ٢٠١٥ .
- ٥ - (القحط يحتاج البلاد قراءة في رواية القحط) للروائي الناقد / محمود عرفات نشرت بكتاب أبحاث مؤتمر اليوم الواحد بأسبوط ٢٠١٥ .
- ٦ - (الرواية وتداخل الأجناس - المشهد السينمائي في الرواية الجنوبية القحط نموذجاً) للروائي الناقد الأستاذ / محمد صالح البحر نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الثالث لنادي القصة بأسبوط .